مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

رجاء النقاش

قلوب و عقول

لوحة للفنان محمد حجى

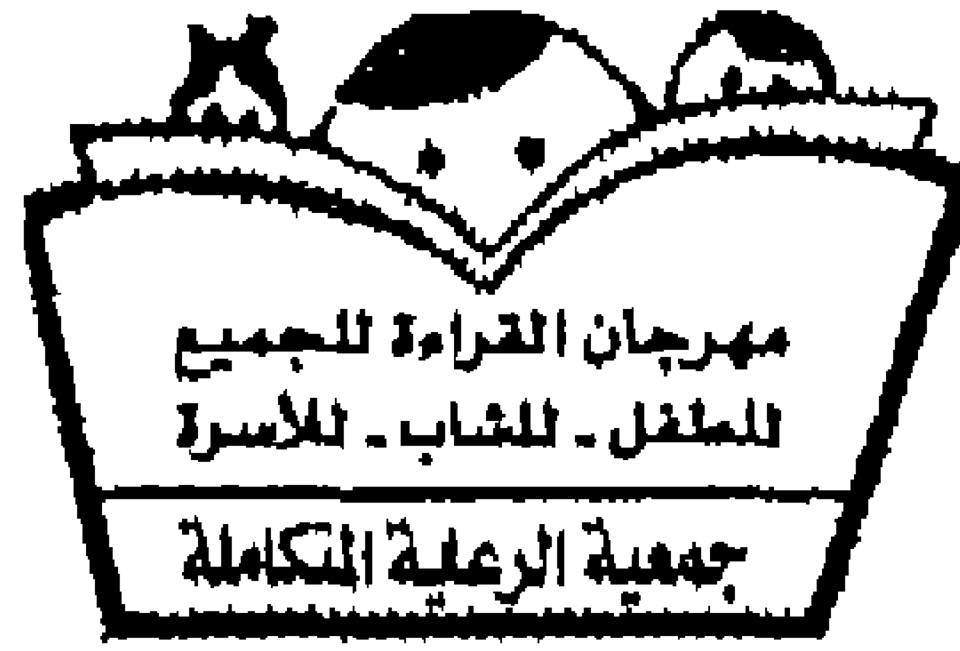
الأعمال الفكرية



قلوب وعقول

قلوب وعقول

رجاء النقاش



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

إشراف: مصطفى غنايم

قلوب وعقول
رجاء النقاش

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د.سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقي وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د.سمير سرحان

مقدمة

فى هذا الكتاب فصول متنوعة تدور حول موضوع يشغلنى منذ سنوات بعيدة. بل لعله يشغلنى منذ أن تفتح عقلى وقلبى على الوعى والتفكير، والموضوع يدور حول كلمة جميلة وغامضة ومطلوبة وموجودة ومفقودة، وفيها كل ما شئت من الصفات المتناقضة والمعانى الكثيرة المختلفة، وهى كلمة "السعادة"، فالسعادة كلمة تشبه الزئبق، وهى أحيانا تشبه السراب، وفى أحيان ثالثة فإنها تبدو كأنها عصفور على الشجرة وليست فى أيدينا . وكلما طاردناها وأحسسنا بأننا اقتربنا منها طارت من غصن إلى غصن، وإذا طاردنا عصفورة السعادة فى رفق وحنان فلن نتمكن من القبض عليها والإمساك بها، ومع ذلك فسوف يملأ الفرح قلوبنا ونحن نطارد العصفورة "العفريتة" التى تفلت من أيدينا وتطير بعيداً عنا كلما اقتربنا منها، ولعل العصفورة نفسها إذا شعرت بالرفق

والحنان منا فإنها تطير هى الأخرى فى فرح، لأنها تحس أننا لا نريد أن نقبض عليها بيدين قاسيتين، فلو فعلنا ذلك فإن العصفورة سوف تموت. وعندما تموت فماذا يجدينا أن نقول إننا قد أمسكنا بها؟ إننا بقسوتنا نكون قد أمسكنا بشئ بارد لا حياة فيه وليس قادراً على الطيران أو الزقزقة لأنه ببساطة يكون فاقدا للحياة.

البحث عن السعادة أمر يشغلنا جميعا، ولا يشغلنى وحدى، وكل جهد فى هذه الدنيا هو فى الأصل بحث عن السعادة. فالعمل والسعى وراء الرزق هو بحث عن السعادة فى الاستقرار المادى. والعلم والثقافة وحب الفنون المختلفة هو بحث عن السعادة فى القلوب والعقول. والبعض يبحث عن السعادة بالسيف الذى يقضى به على أعدائه ويرفع به راية أنصاره، والبعض يبحث عنها فيما يسمى باسم المجد الذى يحقق الشهرة ويجعل من الإنسان نجمة تتلألأ فى عيون الجميع. والبعض يبحث عن هذه السعادة فى الزهد والتصوف وتعميق الصلة بالله. فالسعادة هدف واحد، ولكن له ألف طريق وطريق للوصول إليه. ولذلك فإن السعادة إذا كانت فى اللغة كلمة واحدة فهى فى واقع الحياة لها ألف وجه، ومعانيها تختلف باختلاف الناس والمكان والزمان. ودائماً. دائماً.. تبقى الكلمة واحدة والمعانى متعددة.

فى فصول هذا الكتاب "قلوب وعقول" نبحث عن السعادة ونجرى وراءها ونحاول أن نمسك بخيط من خيوطها. وهذا البحث عن السعادة يتكرر فى كثير من كتبى التى أصدرتها من قبل مثل

"تأملات فى الإنسان" و "تحت المصباح" وغيرهما من الكتب. فهل أستطيع أن أقول اليوم وأنا أقدم هذا الكتاب الجديد أننى وجدتها ... أى وجدت السعادة؟. أبداً. بل ولا أستطيع القول بأننى قد وصلت إلى تعريف دقيق لهذه الكلمة التى هى من زئبق وسراب. ولكن الذى أستطيع أن أقوله هنا هو أننا كلما توخينا البساطة والتواضع فى مطالبنا وأهدافنا كلما اقتربنا من السعادة وأصبحت المسافة بيننا وبينها محدودة، أما إذا تركنا البساطة والتواضع، وأخذنا نبالغ فيما نريده ونجعل من أهدافنا الواقعية بحجم الأحلام التى نراها ونحن نيام، فإننا سوف نجد أن السعادة تخاصمنا وتعطينا ظهرها وتقول لنا: لا. هذه واحدة. أما الثانية فهى أن رحلة السعادة أو رحلة البحث عنها هى فى حد ذاتها سعادة. وأعترف أننى قد عشت طويلا فى سعادة البحث عن السعادة أكثر مما عشت مع السعادة نفسها وجها لوجه. وحالى هنا هو حال الشاعر اليونانى الإسكندرانى العظيم قسطنطين كفافى "١٨٧٣-١٩٣٣ "فى قصيدة له عنوانها "جزيرة إيثاكا"، حيث يدعونا الشاعر الكبير إلى الاعتزاز برحلتنا فى الحياة، والشاعر يلفت نظرنا إلى جمال الرحلة فى حد ذاتها، وينبه عقولنا ومشاعرنا إلى أن هذه الرحلة تحمل لنا الإثارة والدهشة والعذوبة والفتنة، وهو يقول لنا إن من الإساءة إلى نعمة الحياة أن نقيس جمال الرحلة بنتائجها الأخيرة، أو أن ننتظر بعد نهاية الرحلة وفى آخر المطاف أشياء مثيرة وكنوزا ثمينة، وأن نفقد الرضا عن رحلتنا فى الحياة عندما نجد أن نهاية هذه الرحلة هى نهاية بسيطة وعادية وخالية من النتائج المذهلة. فالشاعر

الكبير يدعونا فى قصيدته إلى الإعتزاز برحلتنا فى الحياة، فالرحلة فى حد ذاتها هى الهدف الأساسى، وهى السعادة المنشودة. ولا بأس من قراءة نص هذه القصيدة فى ترجمة لها من لغتها الأصلية وهى اليونانية إلى العربية، والترجمة هى للأديب الفنان الدكتور نعيم عطية، حيث يقول لنا الشاعر العالمى فى قصيدته الرائعة: "إذا ما شددت الرحال إلى جزيرة "إيثاكا" فلتكن أمنيتك أن يكون طريقك إليها طويلا، وأن يكون حافلا بالمغامرات، مليئاً بالتجارب والمعارف. ولا تخف وأنت فى طريقك من الغيلان وجنيات البحر الغاضبة. فإنك لن تقابل شيئا من ذلك ما دام فكرك سامياً، وما دامت العاطفة الخالصة تقود روحك وجسدك. لن تقابل الغيلان وجنيات البحر الغاضبة ما لم تكن أنت قد حملتها معك فى أعماقك، وما لم تكن روحك قد أقامتها أمامك. فلتكن أمنيتك أن يكون الطريق طويلا، وأن تكون أيام الصيف فى ساعاتها الأولى المبكرة كثيرة، وأن تدخل أنت فى هذه الأيام ممتلئا بالفرح إلى موانئ تراها لأول مرة. توقف عند الأسواق السورية واحصل على الأشياء الجيدة، من أصداف ومرجان وكهرمان وأبنوس وعطور منعشة من كل نوع. خذ ـ على وجه الخصوص ـ من العطور المنعشة قدر ما تستطيع. واذهب إلى مدائن مصرية كثيرة لتتعلم ممن فيها من العلماء والعارفين.

لتكن جزيرة "إيثاكا" فى فكرك دائما، وليكن وصولك إليها هو هدفك ومقصدك، لكن.. لا تتعجل فى سيرك، والأفضل أن يدوم سفرك سنين عديدة، وأن تصل إلى الجزيرة، بعد المشيب، غنيا بما

كسبته فى الطريق. لا تتوقع أن تعطيك "إيثاكا" ثراء، فلقد منحتك "إيثاكا" رحلة جميلة، فما كان بإمكانك أن تخرج إلى الطريق لولاها، وليس عليها أن تعطيك أكثر من ذلك الآن. لو وجدت إيثاكا فقيرة فإنها لم تخدعك. وما دمت قد أصبحت على هذا القدر من الحكمة، ولك كل هذه الخبرة، فلابد أنك تعرف ماذا تعنى هذه الجزيرة.. وأى جزيرة أخرى".

تلك هى القصيدة الجميلة التى تقول لنا إن الرحلة إلى الهدف هى المتعة الأساسية التى يجب أن يحرص عليها الإنسان، وعلى هذا الضوء ينبغى أن تكون رحلتنا فى البحث عن السعادة، فربما كانت رحلة البحث هذه هى كل ما نملكه، وكل ما نحتاج إليه، وفى هذا الكتاب رحلة جديدة من رحلاتى المتعددة فى كتب سابقة للبحث عن السعادة. وأنا شديد الرضا بما يدعونا إليه الشاعر العالمى "كفافى"، أى أن تكون الرحلة فى حد ذاتها هدفا نسعى إليه، أما السعادة نفسها فقد لا نجد منها سوى سعادة البحث عنها والرحلة المتجددة من أجل الوصول إليها.

القاهرة

مايو ٢٠٠٣

رجاء النقاش

كن جميلا

من أجمل قصائد الشعر العربى المعاصر وأبسطها وأكثرها لطفا وعذوبة قصيدة للشاعر العربى اللبنانى المهاجر إلى أمريكا إيليا أبو ماضى "١٨٨٩-١٩٥٧"، وعنوان القصيدة "كن جميلا تر الوجود جميلا"، وهى من القصائد التى أحفظها، وأرددها كثيرا بينى وبين نفسى، وخاصة فى تلك اللحظات التى يعترينى فيها الحزن، وتحاصرنى الهموم. ولا أكاد استمع إلى هذه القصيدة حتى أجد فى نفسى ضوءا مثل ضوء الشمعة، يتراقص أمامى فى هدوء، ويشدنى من يدى ـ فى رفق وحنان ـ خارج همومى وأحزانى. والفكرة الأساسية فى القصيدة هى أننا لو حرصنا على الجمال فى نفوسنا، فسوف نجد الدنيا جميلة أيضا، وسوف نجد فى الناس من حولنا أشياء طيبة، لا نراها أبدا إذا أسلمنا أنفسنا

للتشاؤم والغضب، وتعودنا على أن نبحث فقط عن الأخطاء والسلبيات والعيوب.

إن النفس الجميلة هى النفس الإيجابية القادرة على العمل والحركة.. والنفس الجميلة تختلف تماما عن النفس الساذجة المخدوعة، لأن الجمال لابد أن يكون ذكيا. ولا يوجد جمال غبى على الإطلاق. ولو جربنا يوما أن نجلس إلى امرأة بالغة الجمال فى ملامحها ومظهرها ثم اكتشفنا أنها غبية العقل، فسوف نحس - على الفور أن جمالها كاذب، وأن هذه الجميلة فى مظهرها هى فى حقيقة أمرها قبيحة ومثيرة للنفور.

والجمال لا يرتبط بالذكاء فقط ولكنه يرتبط أيضا بالثقافة والتدريب، ذلك لأن جمال النفوس هو استعداد إنسانى لا يمكن أن يظهر إلى الوجود إذا لم نتدرب عليه ونضيف إليه ونغذيه دائما بالتفكير الطيب والسلوك الحسن. فلا يمكن أن يظهر جمال النفس فى إنسان يتعامل بقسوة مع الآخرين، أو يرفض أن يكون رحيما فى موضع الرحمة، أو متسامحا فى موضع التسامح، أو قادرا على أن يمد يده بالخير والعون كلما كان ذلك فى إمكانه، فمن لا يتدرب على الجمال والإحساس به، فإن الجمال يموت فيه، وتتحول مشاعره إلى أوراق صفراء من أوراق الخريف.. كلما رأيناها أحسسنا بمعانى اليأس والهم والأحزان. ولو أننا أخذنا بنظرية الشاعر "إيليا أبو ماضى" والتى يلخصها فى قوله "..كن جميلا تر الوجود جميلا" فإننا سوف ندرك معنى "الفرح" وأهميته فى تقدم

الحياة وتقدم الإنسان، فبدون "الفرح" لا يمكن للإنسان أن يتقن عملا من أعماله، ولا يمكن له أن يحقق النجاح فى أى خطوة من خطوات حياته، حتى لو كانت هذه الخطوة بسيطة وسهلة: "فالفرح" شرط من شروط النشاط والنجاح والقدرة على الإنجاز. والذى لا يملك قدرا كافيا من "الفرح" فى عمله وحياته يصبح مثل السيارة التى ليس فيها وقود، فإن هذه السيارة لابد أن تتعطل وتعجز عن الحركة والسير إلى أمام.

أذكر عبارة قرأتها يوما لعميد الإدارة الصحفية فى مصر الدكتور سيد أبو النجا يقول فيها ما معناه "إن الإنسان الذى لا يشعر بالفرح فى عمله لا يمكن أن ينجح فيه"، فكأن "الفرح" حسب قول الدكتور أبو النجا هو شرط "إدارى" للنجاح. وتلك فكرة من الأفكار العجيبة والصحيحة معا، خاصة وأنها صادرة عن رجل من رجال الإدارة وليس رجلا من رجال علم النفس، أو واعظا من الذين ينصحون الناس بالخطابة البارعة والألفاظ ذات البريق. والفرح فى حقيقته هو "ابن الجمال". لأن الفرح لا يولد أبدا فى نفس معتمة متجهمة تتربص بالناس والحياة، ولا تفكر إلا فى وضع العقبات وتسجيل الأخطاء،.. ولا تشعر بالأمان والرضا إلا فى الظلام.

يقول الشاعر النبيل إيليا أبو ماضى فى قصيدته:

هو عبء على الحياة ثقيل... من يظن الحياة عبئا ثقيلا

ويقول:

والذى نفسه بغير جمال... لا يرى فى الحياة شيئا جميلا

ويقول:

أحكم الناس فى الحياة أناس... عللوها فاحسنوا التعليلا
فتمتع بالصبح ما دمت فيه... لا تخف أن يزول حتى يزولا
وإذا ما أظل رأسك هم... قصر البحث فيه كى لا يطولا

ويدعونا الشاعر دعوة عذبة طيبة إلى أن نتعلم من الطبيعة فيقول:

كن مع الفجر نسمة توسع الأزهار... شما وتارة تقبيلا
ومع الليل كوكبا يؤنس الغابات... والنهر والربى والسهولا
لا دجى يكره العوالم والناس... فيلقى على الجميع سدولا

وينهى الشاعر قصيدته بقوله:

أيها المشتكى وما بك داء... كن جميلا تر الوجود جميلا

ولابد أن تخطر على بالنا عدة أسئلة ونحن نقرأ هذه الدعوة الإنسانية، إلى الجمال: فهل يمكن أن تنجح هذه الدعوة فى الحياة العملية وفى التعامل الواسع مع الناس؟ وهل يكفى أن يكون الإنسان جميلا حتى يختفى الشر من حوله؟ وهل نستطيع أن نعالج أمراض النفوس بالجمال الملئ بالصحة والعافية؟ وهل يمكن لصاحب النفس الجميلة أن يتجنب إساءة فهم الناس له وتصورهم أنه ضعيف وقابل للإستغلال والإنكسار والإبتزاز دون أى مقاومة؟

فى الإجابة عن هذه الأسئلة جميعها نستطيع أن نعود إلى الدعوة الإنسانية لشاعرنا إيليا أبو ماضى وهى: "كن جميلا تر

الوجود جميلا" ذلك لأن "جمال النفس" ليس وسيلة سلبية لمواجهة الحياة والإنتصار على الشر والإرتفاع فوقه والسمو عليه. ولعلنا نجد فى الواقع والتاريخ ما يؤكد هذا المعنى الأساسى، وهو معنى القوة التى تكمن فى جمال النفس وتساعد على تحقيق النصر الحقيقى فى معارك الحياة. ولا أنسى أبدا تلك القصة الحقيقية التى وقعت فى تاريخ اليونان منذ حوالى ثلاثة آلاف سنة وبطلها قائد وزعيم سياسى له اسم غريب وثقيل هو "ليقورغ" ولكن شخصيته كان فيها من الغنى أو الخصوبة ما يجعله جديرا بأن يحمل اسم "فاضل" أو "نبيل" أو أى اسم آخر من هذه الأسماء السهلة الطيبة، وفى حياة هذا القائد اليونانى قصة يرويها لنا المؤرخ الأمريكى الشهير "ويل ديورانت" فى كتابة الشهير "قصة الحضارة" الجزء الأول من المجلد الثانى ترجمة الأستاذ محمد بدران"، حيث نقرأ هذه القصة العجيبة التى تقول إن هذا القائد اليونانى جاء إلى بلاده بإصلاحات واسعة عميقة "وأن القادة والنبلاء تقبلوا إصلاحاته على مضض لأنهم رأوا أن لابد لهم من هذه الإصلاحات إذا أرادوا أن يضمنوا السلامة والطمأنينة، ولكن أحد الشبان الأشراف وأسمه "الكمندر" قاوم هذه الإصلاحات مقاومة شديدة عنيفة، وقام بعملية إجرامية "فقأ" فيها إحدى عينى القائد اليونانى الداعى للإصلاح. ولم يثبط هذا العمل عزيمة القائد اليونانى أو يضعف همته، بل سكت قليلا، ثم كشف لمواطنيه عن وجهه المشوه وعينه المفقوءة، فاستولى الخجل والهلع على المواطنين من هذا المنظر، فجاءوا بالمجرم "الكمندر" لمعاقبته

على ما فعله. فشكر لهم القائد اليونانى جهدهم، وصرفهم عن أخرهم، ولم يستبق منهم إلا المجرم "الكمندر" ثم أخذه معه إلى منزله، ولم يقل له كلمة نابية أو يوقع عليه أى عقاب، بل أمره أن يقف فى خدمته وقت الطعام، وكان الشاب ـ فى الأصل ـ صاحب خلق كريم ولكن الغضب أعماه فارتكب جريمته. ولذلك فقد قام هذا الشاب بكل ما كان يؤمر به دون أن يتذمر أو يتململ. ولعله أحس أن هذا هو أقل عقاب يمكن أن يناله. وبذلك أتيحت له الفرصة أن يعيش مع القائد اليونانى فيلاحظ فيه، بالإضافة إلى رقته وهدوء طباعه، إستقامة لا عهد له بها، كما لاحظ فيه جدا وصبرا على العمل، وأصبح الشاب من أشد الناس إعجابا به وقد كان قبل ذلك من ألد أعدائه، وقال لأصدقائه وأقاربه، إن هذا القائد، لم يكن أبدا ذلك الرجل الممتلئ بالنكد وسوء الطباع كما كانوا يظنون، بل إنه دون غيره هو الطف الرجال وأكثرهم رقة فى العالم كله، وأجدرهم بالحب والولاء.

هذه القصة العجيبة تكشف لنا أن القائد اليونانى قد احتفظ بجمال نفسه فى أشد الظروف قسوة، ورغم أنه دفع ثمنا غاليا لضبط نفسه أمام جريمة الشاب الذى أعتدى عليه، فقد كسب شيئا آخر هو أنه استطاع أن يحيل هذا الشاب من عدو له إلى تابع مؤمن به متحمس لفضائله مخلص فى دفاعه عنه.

وليس من السليم أن ينتظر أصحاب النفوس الطيبة حتى يتعرضوا لمن يفقأ عينهم "كما حدث مع القائد اليونانى"، فهذا ثمن

لا يجوز لأحد أن يتحمله. ولابد أن يدافع "الجمال" عن نفسه بقوة وعزيمة، فحتى الأزهار فى الطبيعة لها أشواك جارحة. وينبغى أن يكون فى كل جمال حقيقى أشواك تحميه وتدافع عنه. وإلا أصبح جمال النفس نوعا من السذاجة والإستسلام، وأصبح صاحب النفس الجميلة مثل "الحائط المائل" الذى يستهين به الجميع، ويستطيع أن يهدمه كل من يريد بأقل الجهود.

فالنفس الجميلة لابد أن تصاحبها إرادة قوية، وقدرة عالية على الصبر والتجاوز لما فى الحياة من صغائر. والنفس الجميلة لا تجرى وراء أخطاء الناس، بل تحاول أن تنظر إلى الجانب الطيب والإيجابى والمشرق، وتحاول أن تساعد هذا الجانب من جوانب الحياة على النمو والإزدهار. والذى لا شك فيه أن "برنامج" أصحاب النفوس الجميلة لابد أن يكون أكثر ثراء وخصوبة من برنامج الكارهين أصحاب النفوس السيئة والمعتمة، لأن برنامج الجمال يهتم بالأمور الجوهرية، ويبتعد تماما عن المعارك الثانوية التافهة، ويعرف قيمة الوقت، أى قيمة الحياة، ولا يسمح بإضاعة جهده فى الهدم والتدمير والتفكير المستمر فيما لا يجدى ولا يفيد. بينما الكارهون فى الأرض لا يستطيعون أن يناموا قبل أن يأكلوا لحم إخوانهم فى الإنسانية، وتصبح مشاعرهم مثل الماء الذى يغلى باستمرار، ولا يجدون راحة فى نفوسهم المريضة إلا إذا كان لديهم قائمة دقيقة وكاملة بأخطاء الناس ونقاط الضعف فيهم. وهذا كله يجعل نفوسهم خاوية، ويشل فيهم إرادة الخير والعمل النافع الممتع لأنفسهم ولغيرهم من الناس. والكارهون فى الأرض

لا يعرفون الأفراح الحقيقية، لأن أفراحهم تكمن فى أحزان الناس ومتاعبهم وخطاياهم، فأفراح هؤلاء دائما هى فى دموع الآخرين. أما الذين يشير إليهم شاعرنا إيليا أبو ماضى بقوله "كن جميلا تر الوجود جميلا" فإنهم يتمتعون بروح شفافة، سريعة الحركة، قادرة على وضع يدها على مباهج الحياة الكثيرة والبسيطة، وقادرة أيضا على أن تزرع الورد فى كل مكان تلمسه بيديها الطيبتين، وأن تعرف بسهولة ويسر مناطق القوة الإيجابية فى الناس، مما يؤدى فى آخر الأمر إلى أن تكون الحياة أسعد وأيسر على الجميع، ولا شك أننا نجد هذه الدعوة الإنسانية تتردد عند الكثيرين من كبار الشعراء والفنانين فى العالم كله. وهذا جزء من قصيدة للشاعر العالمى الكبير بابلونيرودا "١٩٠٤-١٩٧٣" الحائز على جائزة نوبل سنة ١٩٧١، وهو من "تشيلى" فى أمريكا اللاتينية وفى هذه القصيدة يردد "نيرودا" بطريقته الخاصة نفس دعوة شاعرنا العربى، والقصيدة ترجمها من الأسبانية الدكتور محمود صبح: يقول الشاعر "نيرودا": "هلم بنا معا. نرقص فى هذه الدنيا ونسقط أزهار التفاح. ندخل من النوافذ. نصرف معا. نتغنى بألحان الأمس والغد. فلابد أن يأتى يوم، نحرر فيه النور والماء. والأرض والإنسان. وسيكون كل شئ للجميع. فتعال معى. فما زال علينا أن نرقص كثيرا، وأن نغنى كثيرا. فهيا بنا نمضى، على إمتداد البحار. على إرتفاع الجبال. هيا بنا نمضى، حيث يمتلئ الربيع الجديد بالأزهار، وبضربة ريح وأغنية، سوف نوزع الأزهار والعطر والثمار وهواء الغد الآتى على الجميع".

و .. كن جميلا تر الوجود جميلا.

عقول ضاحكة وقلوب متفائلة

أنا دائما أدعو شبابنا المتعلمين إلى أن "يقتحموا" الحياة، وأن تكون أداتهم فى ذلك: عقول ضاحكة وقلوب مليئة بالتفاؤل، وقد يكون تعبير "العقل الضاحك" غريبا وفيه بعض الغموض.

ولكننى أقصد به شيئا محددا وهو أن "المعرفة" الناتجة عن القراءة والتوسع فى الثقافة لا تقتضى أبدا أن يكون الإنسان مكتئبا ومتجهما حتى يقول عنه الناس إنه يعرف كثيرا، أو أنه من العلماء. هذا كلام فارغ ولا معنى له وليس صحيحا على الإطلاق. وكل "ثقافة" تؤدى إلى "الاكتئاب" و "التجهم" و "تقطيب الوجه" هى ثقافة ضارة وغير نافعة. وأى كتاب أو مقال أو قصيدة أو لوحة تدفع بالإنسان إلى الحزن أو كراهية الحياة أو الانعزال عن الناس والتعالى عليهم هى كلها أنواع من الثقافة لا تقل خطرا عن

المخدرات التى تعطل العقل وتدفع الإنسان إلى أن يعيش فى عالم ملئ بالأوهام الباطلة. فالحقيقة التى ينبغى ألا ننساها أبدا هى أن الثقافة "بهجة" تملأ القلوب والنفوس، وتدفع الناس إلى العمل وهم متفائلون قادرون على الصبر واحتمال المشقات.

وأستاذنا فى ذلك كله هو "العامل" الصعيدى الذى كان يأتى إلى المدن الكبيرة هربا من الفقر وقلة الرزق ليعمل فى أشق الأعمال مثل أعمال "البناء" وإقامة العمارات الكبيرة الضخمة، فإن هذا العامل الشقى الذى يعيش حقا وصدقا "بعرقه" يؤدى واجباته القاسية وهو يغنى. فالغناء عنده أهم من الخبز. لأن الغناء يمنحه القوة والنشاط والعزم على مقاومة ظروف الحياة الصعبة. والغناء يجعل هذا العامل "التعبان" واحد من الملوك ولا يدانيه فى ذلك أى ملك فى الدنيا أو سلطان. ومعظم أغانى الصعايدة الذين يقومون بأشق الأعمال تدور حول الحب، وحول جنون الحبيب ورموش عينيه الساحرة والقاتلة، أى أن العامل هو فى نفس الوقت عاشق يغازل حبيبته، ويطالبها بالوفاء له، ويتخيلها دائما أمامه وهو يؤدى عمله الشاق، ويحاول أن يقول لها: أنا رجل قوى قادر على احتمال مصاعب الحياة... فكونى أيتها الحبيبة معى، وبجانبى، فأنا أستحق منك الحب والحنان ودفء العاطفة.

هذا هو الفن الذى تتغذى منه العقول والقلوب عند الصعايدة الذين يقومون بأشق الأعمال. والقاعدة فى هذه الدنيا واحدة وثابتة.

فلا يمكن النجاح أبداً بدون "عقل ضاحك" و "قلب متفائل" فالضحك والتفاؤل هما قوة الحياة التى تدفعنا إلى الأمام، وتتيح لنا أن نتغلب على الصعوبات. والشاب الذى لا يعرف ذلك ولا يؤمن به هو شاب ألغى من عمره فترة الشباب وقضى على نفسه بأن يكون عجوزا مهدما منذ بداية الطريق.

الشاب المتشائم الذى لا يعرف الضحك والتفاؤل هو شاب قد اتخذ قرارا بالانتحار مع إيقاف التنفيذ، فحياته مثل موته، ولا يمكنه أن يحقق لنفسه أى نوع من أنواع السعادة فى المستقبل. لأنه بسبب إنعدام روح المرح فى حياته وإنعدام التفاؤل فى قلبه هو إنسان بلا مستقبل.

كنا شبانا صغارا فى أوائل الخمسينات. وقد أتاحت لى الظروف أن أكون صديقا للفنان الكبير الراحل صلاح جاهين، وذلك قبل أن يصبح مشهورا وناجحا ومعروفا بين الناس، وكان صلاح جاهين يصحبنى معه إلى بيت متواضع جدا فى "السيدة زينب" هو بيت الفنان "سيد مكاوى"، ولم يكن سيد مكاوى فى تلك الأيام معروفا، بل كان "بائسا" مثلنا، يعيش، كما يعيش، يوما بيوم، بل ساعة بساعة. أما صلاح جاهين فهو من أسرة ميسورة، فأبوه "مستشار" يشغل منصبا عاليا جدا فى القضاء. ولكن صلاح جاهين ــ رغم هذا ــ كان فى ذلك الوقت من البؤساء لأنه كان يحب "الفن" أكثر من حبه للدراسة. ولم يكن والده راضيا عن ذلك ولا سعيدا به. وصلاح جاهين من ناحية أخرى لم يكن قادرا على أن يتحكم فى

ميوله ويحقق رضاء والده على حساب حبه لفنه. وهكذا كانت حياتنا فى تلك الفترة صعبة جدا. وكنت أنا من النوع الذى خلقه الله ميالاً "للحزن" ولم أكن انتظر خيرا من الدنيا الصعبة أو من تجارب الشقاء التى كنا نمر بها كل يوم. ولكن صحبتى لصلاح جاهين فى تلك السنوات القاسية أدهشتنى وعلمتنى معنى جديدا للحياة.

كان صلاح ـ كما أشرت ـ يصحبنى معه إلى بيت سيد مكاوى القديم المتواضع فى السيدة زينب. وهناك كان صلاح يكتب بعض أشعاره وسيد مكاوى يحمل العود ويلحن هذه الأشعار. ولم يكن هناك جمهور غيرى سوى عدد قليل من الأصدقاء. ومع ذلك كان صلاح يكتب من قلبه كلاما جميلا جدا، وكان سيد مكاوى يلحن هذا الكلام بحماس وموهبة عالية ونادرة. وكان الأهم من ذلك كله أن صلاح جاهين كان فى تلك السنوات أستاذاً فى الضحك والتفاؤل. ولم يكن يجاريه فى ذلك إلا سيد مكاوى الذى كان هو الآخر يضحك من قلبه ويرسل "النكت" فى تدفق غريب، نكتة وراء نكتة، أى أن هذا الجو الذى لم يكن فيه أى أمل واضح لأحد منا، كان مع ذلك جوا مليئا بالمرح والتفاؤل والسخرية من كل شئ. كان جوا بهيجا جدا دون سبب واضح للبهجة، فلا مال ولا شهرة ولا جمهور ولا أى عمل واضح يقوم به أحد من الجالسين أو ينتظر منه رزقا ماديا مضمونا، وتعلمت فى هذا الجو الجميل أن أتخلص من اكتئابى وميلى الدائم إلى الحزن والتشاؤم، وأدركت أن الحياة بدون ضحك وتفاؤل مستحيلة، وأن المصاعب فى هذه الدنيا تكبر وتزداد

كلمـا أستسلم الإنسـان إلى الإكتئـاب والحـزن، وعلى العكس من ذلك فإنها - أى المصاعب - تتلاشى كلما فتح عقله وقلبه للابتهاج وانتظار الخير حتى لو لم يكن يعلم كيف يأتى هذا الخير ولا من أين ولا متى.

ولم تمض سـوى سنوات قليلة حتى تغيـرت الأحـوال، وأصـبح صـلاح جاهين نجمـا، وأصبح سيد مكاوى نجمـا آخـر، وقدم صـلاح وسـيد مكاوى نموذجين للنجـاح الكبيـر فى هذه الدنيـا، واعتـرف الجميع لهما بذلك.

لا أنسى تلك الأيام أبدا، ولا أنسى مـا تعلمتـه فيـهـا من صـلاح جـاهين وسـيـد مكاوى. لقـد كـانت أيام القـوة النابعـة من البـهـجـة، وكانت هذه ا لبهجـة تملأ عقـولنا وقلوبنا، فى الوقت الذى كان فيه كل واحد منا يبحث لنفسه عن مكان تحت الشمس، ولم يكن هذا المـوقف خـداعـا للنفس، ولكنه كـان "توليـدا للطاقـة الكهـربائيـة المـوجـودة داخل الإنسـان"، ثم اسـتـخـدام هذه الطاقـة فى العـمل والجـد والإجـتـهـاد، وبهـذه الطريقـة أصبح لدينا شئ من الثـقـة بالنفس، والإحساس بأن العقبات يمكن التغلب عليها، وأن المواقف العسيـرة يمكن اجتيـازها، ولابد من الوصـول إلى بر الأمان وشـاطئ النجاة فى يوم من الأيام.

ولذلك فـأنا أقـول إن العـقل الضـاحك والقلب المـتـفـائل همـا أفـضـل قـاربين للسـبـاحـة فى بحـر الحـيـاة الملئ بالعـواصف والأعـاصير، بشـرط ألا يرتبط ذلك بالخمول واللامبالاة والتساهل مع النفس والركـون إلى الإهمـال. وهنـاك شـرط أخـر أهـم هو ألا

يتحول الإبتهاج والضحك والتفاؤل إلى هزل أو تجريح للآخرين، فقيمة الضحك والتفاؤل هى أن يكونا مصدرا لتجديد الطاقة والنشاط ولابد من استغلال ذلك على خير وجه فى تنمية إمكانيات الإنسان وزيادتها، حتى تستطيع هذه الإمكانيات فى نهاية الأمر أن تكون مطلوبة ونافعة، وتصبح موضع احترام الناس جميعا.

وهناك قصة واقعية من قصص التراث العربى القديم قرأتها فى أحد كتب أستاذنا الأديب السورى المبدع الدكتور عبد السلام العجيلى، وهو من أجمل الناس فى هذه الدنيا فنا وأخلاقا، وقد عرفته وقرأت له كثيرا، واستمتعت بكتابته وشخصيته الإنسانية استمتاعا غير محدود. هذه القصة التى قرأتها فى كتاب الدكتور العجيلى تقول:

"روى الرواة عن "كلثوم بن عمر العتابى"، وهو شاعر عاش فى أيام الرشيد وقال عنه يحيى بن خالد البرمكى لأبنائه: إن قدرتم على أن تكتبوا أنفاس "كلثوم" فافعلوا فلن تروا أبدا مثله... رووا عن "كلثوم" هذا أن أحد أصحابه رآه فى مدينة "الرقة" يأكل خبزا على الطريق، فقال له: ويحك أما تستحى أن تأكل أمام الناس؟ فقال كلثوم: أرأيت لو كنت أنت فى دار بها بقر أكنت تستحى أن تأكل وهى تراك؟ قال صاحبه: لا. قال كلثوم: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقرٌ، ووقف بجانب جدار يعظ، ثم يقص القصص، ثم يروى الأحاديث النبوية، ثم يدعو، حتى اجتمع عليه خلق كثير.

ولما أشتد الزحام قال للناس حوله: روى لنا غير واحد أن من أخرج لسانه فبلغ به "أرنبة" أنفه لم يدخل النارٌ، فما بقى واحد من

الجمهور إلا أخرج لسانه يومئ به نحو أنفه ليرى هل يبلغها به أم لا. فالتفت كلثوم عندئذ إلى صاحبه، وأشار إلى الجمع الذى يحرّك أفراده ألسنتهم تحت أنوفهم كما تفعل الثيران، وقال: ألم أخبرك أنهم بقر؟!.

ضحكت من قلبى عندما قرأت هذه القصة الطريفة، ولكننى فكرت فيها أيضا. وكان أول ما فكرت فيه هو أن أعرف معنى كلمة "كلثوم" وهى اسم بطل من هذه القصة، خاصة وأن كلمة "كلثوم" بالتحديد لها مكانة خاصة فى نفوسنا ومشاعرنا لأنها مرتبطة بفنانة كبيرة جدا ومحبوبة إلى أبعد الحدود هى "أم كلثوم". فما هو معنى كلمة "كلثوم" هذه؟ ومددت يدى إلى المعجم الذى أصدره "المجمع اللغوى" فى جزءين والذى تعودت أن أرجع إليه لأفهم معنى الكلمات المختلفة كلما احتجت إلى ذلك واسمه "المعجم الوسيط". ووجدت أن كلمة "كلثوم" معناها: الممتلئ الخدين والوجه، ومعناها أيضا الوجه "المستبشر" الذى لا يعرف "التجهم" ومعناها "الحرير". وبذلك فإن كلمة "كلثوم" أصبحت واضحة فى ذهنى، ولم تعد أى كلام والسلام. وهذا ما يفسر لنا ما كان العرب يقصدون إليه عندما يسمون أبناءهم "كلثوم" وبناتهم "أم كلثوم". فالمعنى هنا هو الاستبشار والبهجة والتفاؤل والنعومة الجميلة التى تشبه نعومة الحرير.

وهناك أفكار أخرى خطرت بذهنى حول تلك القصة من قصص التراث العربى.

فبطل القصة "كلثوم العتابى" هو إنسان يعيش حياته فى مرح وتفاؤل، ولذلك فهو يتصرف فى حرية وانطلاق وجرأة. فهو يأكل فى الطريق العام أمام الناس، وهذا تصرف غير مهذب، ولكن الرجل لم يقصد الإساءة إلى الذوق العام، وإنما قصد إلى "نقد" قوى وظريف جدا لعصره وللناس فى هذا العصر، فقد كان الناس يعيشون فى "غيبوبة" عقلية، ويصدقون أى كلام يقال لهم، وقد كان هذا الأمر "يغيظ" كلثوم، لأنه يريد من الناس أن يستخدموا عقولهم، وأن يفكروا فيما يقال لهم، وألا يكونوا مثل "البقر" يستطيع أى إنسان أن يقوده إلى أى مكان دون مراجعة أو تساؤل أو فحص أو تدقيق. ويكفى أن يقول لهم أحد من الناس سمعنا كذا عن فلان عن فلان عن فلان، حتى يصدقوا ما يقال لهم دون وعى. وهذا من أخطر الأمور التى يمكن أن يتعرض لها المجتمع.

لأن مثل هذا المجتمع يسهل خداعه والسيطرة عليه والإستبداد به وتبديد مصالحه العامة. فهو مجتمع لا يستخدم عقله استخداما حكيما وجيدا، وهو مجتمع فاقد للروح المرحة الذكية التى تجعل من الصعب على أحد أن يخدعه أو يلعب بعقله، فلو كان الناس فى عصر "كلثوم" يستخدمون عقولهم استخداما صحيحا، ولو كانوا من الذين يفهمون معنى المرح والبهجة وخفة الظل لاكتشفوا أن ما قاله لهم "كلثوم" من أن "من يستطيع أن يخرج لسانه ويبلغ به أرنبة أنفه لم يدخل النار" ما هو إلا "تهريج" واستخفاف و"لعب بالعقول" واختبار بسيط للذكاء.

كان "كلثوم" إذن صاحب عقل ضاحك شديد المرح، قادر على النقد الظريف للناس، قادر على أن يجعلهم موضوعا للسخرية حتى أمام أنفسهم، بعد أن ألغوا عقولهم واستسلموا لأى كلام يقال لهم دون فحص وتمحيص أو نقد ومراجعة.

وكان بطل هذه القصة الطريفة ناجحا فى حياته، كان قويا ومحترما فى مجتمعه، بدليل ما قاله "يحيى بن خالد البرمكى" عنه لأولاده من "أنهم لن يروا مثله أبداً". وقد وصل "كلثوم" إلى ذلك بموهبته وجده واجتهاده, ووصل إليه لأنه كان يرفض الاكتئاب والتجهم والتكشير، وكان صاحب عقل ضاحك وقلب متفائل.

أراد "كلثوم العتابى" بطل هذه القصة أن ينقد عصره وأهله، وأن يعترض على ما يعيشون فيه من "غفلة" شديدة، ولم يكن هذا الرجل قائدا سياسيا ولا حاكما، ولكنه كان شاعرا وعالما، وكان يشعر بالغضب من الأحوال القائمة فى عصره. فهل يسمح لهذا الغضب أن يقوده إلى التشاؤم واليأس واعتزال الناس والموت ببطء فى وحدته وهمه وعزلته؟

كلا. لقد اختار أن يضحك ويسخر وينقد ويعترض، دون أن يثير حقد الناس عليه، فقام بهذه التمثيلية الطريفة" فأضحك الناس على أنفسهم ونبههم إلى ما يجب أن ينتبهوا إليه من ضرورة استخدام عقولهم، وفحص ما يقال لهم، وعدم الاستسلام لمن كانوا يخدعونهم باسم الدين، ويتحدثون بغير وعى عن شروط دخول الجنة والنجاة من النار.

وكل أصحاب الشخصيات الحية الناضجة والقادرة على النجاح يبدأون رحلتهم فى الحياة بالتفاؤل والابتهاج، ولا يسمحون لليأس والتشاؤم أن يتسلل إلى نفوسهم ويضعف إرادتهم، ويجعلهم عاجزين عن العمل.

إنهم حقا أصحاب عقول ضاحكة وقلوب متفائلة.

نفوس راضية

لعل من الصعب فى العصر الذى نعيش فيه أن نعثر على "نفس راضية" عن أحوالها الخاصة، أو راضية عن العالم الذى تعيش فيه، فالكل يشكو، وبعض الشكوى مصدره واضح مثل ضيق ذات اليد وكثرة المشكلات الاقتصادية، وعجز الإنسان عن تحقيق كل ما يحلم به، وبعض الشكوى مصدره شئ غامض فى النفوس، يحرك فيها الغضب وعدم الرضا دون معرفة السبب الذى يؤدى إلى ذلك، لكن ظاهرة "عدم الرضا" هى ظاهرة شائعة، ولا يكاد يفلت منها إنسان يعيش فى هذا العصر. ويكفى أن يطمئن إلينا شخص من الأشخاص حتى يبدأ فى التعبير عن شكواه وإحساسه بأن الحياة لاتعطيه ما يريده أو ما يستحقه، ونحن أنفسنا كثيرا ما نشكو ونعبر عن عدم الرضا إذا وجدنا من ينصت إلينا ويستمع فى صبر إلى صوت أحزاننا. ومع ذلك فنحن نجد فى هذه الدنيا بين الحين

والحين نفوسا راضية مطمئنة، وهذه النفوس على ندرتها جديرة منا بأن نفكر فيها ونتأمل أحوالها، وهى جديرة منا بأن نتعلم أسلوبها فى التفكير والسلوك حتى نتصالح مع أنفسنا ونتصالح مع الحياة. فعدم الرضا لا تكمن خطورته فقط فى أنه يعكر نفوسنا، ويجعل مشاعرنا مثل الأشواك التى تجرحنا بصورة مستمرة كلما اقترينا. بل أن ظاهرة عدم الرضا هذه تنعكس على كل شئ فى الحياة فتجعل الإنسان أقل قدرة على الإنتاج والعمل مما كان يستطيع تحقيقه لو أنه كان من أصحاب النفوس الراضية، كما أن عدم الرضا لابد أن يكون مصحوبا بالتوتر الدائم والأعصاب المشدودة وعدم الصبر على التعامل مع الآخرين حتى لو كانوا أقرب الناس إلينا وهذه كلها أمور تفسد الحياة. وتجعل الأيام تمر علينا فى صعوبة شديدة، فنصبح كأننا "نتجرع" الحياة ولا نعيشها، كما أن عدم الرضا كثيرا ما يؤدى إلى أمراض فى الجسم مثل "ارتفاع ضغط الدم" و "الأرق" وعدم القدرة على النوم الهادئ الخالى من الكوابيس والأحلام المزعجة.

وكثيرا ما مرت بى لحظات كنت أشعر فيها بعدم الرضا بسبب مشكلة تقلقنى ولا أجد لها حلا، وفى هذه اللحظات التى قد تستمر أياما أو أسابيع فإننى أفقد القدرة على النوم الهادئ، وإذا نمت فإن نومى يصبح عملا من الأعمال الشاقة، لأن نومى يكون ممتلئا بالأحلام المزعجة التى تثير التوتر الشديد، فأكون نائما وكأنى أمشى فى شارع مزدحم لا مكان فيه لموضع قدم، وبذلك يكون هذا النوم مصدرا للتعب وليس مصدرا للراحة، وفى مثل هذه الحالات

فـإن نومى ـ وإن طالت مـدته ـ لا تكون نتيجته إلا الإرهاق الشديد، فأنا أصحو من نومى مهدود الجسم، كأننى كنت أجرى لمسافة طويلة دون توقف، وبذلك يكون النوم عبئا ومشقة كبيرة، وليس وسيلة طبيعية للراحة العضوية والذهنية والنفسية، ويفقد النوم بذلك وظيفته فى تجديد نشاط الإنسان وحيويته، وتلك هى الوظيفة الطبيعية للنوم فى حياة الإنسان، بل فى حياة الحيوانات والطيور والأشجار وكل ما هو حى فوق هذه الأرض. عدم الرضا مرض يبدأ فى النفس وينتقل إلى الجسم، وهنا تكون خطورته وتأثيره السلبى على حياة الإنسان وسعادته وقدرته على الاستمرار فى البقاء. وأذكر أننى سمعت مرة من صديقى الطبيب النابه الدكتور محمد شرف، قصة مريض من مرضاه، وكنت أعرف هذا المريض لأنه من رجال الإعلام، وكنت أعرف أيضا أن المرض قد أصابه منذ أوائل الستينيات، وكنا جميعا، نحن الذين نعرف هذا المريض ونعرف خطورة مرضه، نعتقد إنه لن يعيش أكثر من فترة قصيرة لا يمكن أن تتجاوز فى أحسن الأحوال سنة واحدة، أما الدكتور شرف وهو الطبيب المعالج فهو يقول: إن هذا المريض بكل مقاييس الطب الدقيقة كان محكوما عليه بالموت السريع، ولم يكن فى يد الطب كله إلا أن يعمل على تخفيف آلام المريض حتى يأتيه الشفاء الأعظم وهو الموت. وقد تعرض هذا المريض لمحنة أخرى ربما كانت أكبر من محنة المرض، وهذه المحنة هى أن كل القريبين منه قد تخلوا عنه بعد أن طال مرضه، وأصبح عاجزا عن الحركة أو رعاية نفسه. وكان فى مقدمة الذين تخلوا عنه زوجته

الشابة الجميلة التى كانت تفخر بزوجها أيام صحته وعافيته ونجاحه فى عمله، وكانت هذه الزوجة تحرص على الظهور مع زوجها فى النوادى والأماكن العامة، فلما أصابه المرض، وبدا أن زوجها هو مريض ميئوس من شفائه تخلت عنه تماما، وطلبت الانفصال ونالت ما طلبته، ولم يبق إلى جوار هذا المريض سوى أمه التى تحملت كل شئ فى سبيل ابنها، على الرغم من تقدمها فى السن، ولم تتخل لحظة واحدة عنه، وظلت إلى جواره تخدمه وترعاه ليلا ونهارا دون أن تشعر بأى نوع من الضيق أو اليأس، وتلك هى القوة الإلهية التى وضعها الله فى قلوب الأمهات، فجعلت من هذه القلوب أعظم القلوب الإنسانية على الإطلاق.

وتمضى الأيام بهذا المريض الذى وقف أمامه الطب عاجزا ويائسا، وهرب الناس منه لأنهم أصبحوا على يقين من أنه فى طريقه إلى النهاية، فلم يبق إلى جانبه إلا قلب أمه الصابرة.

ولكن المريض لا يموت، بل على العكس بدأت حالته تتحسن، وبعد أن كان لا يتحرك مطلقا بدا يتحرك وتتقدم صحة المريض يوما بعد يوم، حتى وصل الآن ـ أى بعد ثلاثين سنة من بداية المرض الخطير ـ إلى وضع شبه طبيعى، وعاد الرجل إلى ممارسة عمله الإعلامى بنفس كفاءته المعروفة عنه.

ثلاثون عاما وهذا المريض يقاوم. ثلاثون عاما وهو يحاول أن يخرج من العجز الكامل إلى حياة طبيعية مثل سائر البشر الذين لا يعانون أى مرض.

ولأنى أعرف هذا المريض فإننى لم أجد تفسيرا لمعجزة شفائه إلا أن نفسه كانت راضية حتى فى أشد لحظات المحنة، وأن إرادة الحياة فيه لم تفارقه أبدا، وظلت تعمل عملها فى جسمه حتى استطاع الجسم أن يقاوم المرض وينتصر عليه فيما يشبه المعجزة.

كان هذا المريض يبتسم دائما، بينما كان من يراه من عارفيه ينصرفون عنه وليس فى عيونهم غير الدموع. كان يتألم من المرض، ولكنه لم يعرف الغضب أو اليأس أو التوتر أو الإشفاق على نفسه والبكاء على مصيره.

كان لسان حاله وهو فى محنة المرض يقول كما كان الشاعر العراقى الكبير "بدر شاكر السياب" يقول مخاطبا ربه وهو فى محنة مرض مشابه:

لك الحمد مهما استطال البلاء

ومهما استبد الآلم

لك الحمد، إن الرزايا عطاء

وإن المصيبات بعض الكرم

أو يقول على لسان الشاعر "السياب" أيضا وهو يخاطب ربه فى محنة مرضه:

لك الحمد، إن الرزايا ندى

وإن الجراح هدايا الحبيب

أضم إلى الصدر باقاتها
هداياك فى خافقى لا تغيب
هداياك مقبولة هاتها

تلك كانت نفسية ذلك المريض صاحب "النفس الراضية" على الرغم من يأس الأطباء والناس من شفائه. لكن معجزة الشفاء وقعت، ونجا المريض الذى صبر على المرض بنفس صافية وإرادة لا تعرف اليأس وخرج إلى الحياة والعمل بعد أن ظل يخوض معركته مع الموت لمدة ثلاثين سنة متصلة.

ولا يبقى فى ذهنى كلما تذكرت قصة هذا المريض سوى ما أسميته باسم "النفس الراضية" ، فقد كان هذا الإنسان دائما راضيا حتى فى أشد لحظات المحنة، مما جعل هذه النفس بعيدة عن التوتر والغضب والمرارة، برغم ما كان صاحبها يعانيه من ويلات المرض وانصراف أقرب الناس عنه حتى لم يبق إلى جانبه سوى أمه.

على أن "النفس الراضية" ليس معناها النفس السلبية المستسلمة المستكينة، بل إنه ليس فى الدنيا أقوى ولا أشد صلابة من أصحاب النفوس الراضية بالمعنى الإنسانى الدقيق لكلمة "الرضا"، فهذا "الرضا" الحقيقى يجعل متاعب الحياة هينة، ويحدد مطالب الإنسان فلا يشتط ولا يبتعد عن كل ما هو كريم عفيف، ولا يطلب من الدنيا ما يبدو صعب التحقيق، ولا ينظر إلى ما فى أيدى الآخرين أو يسعى للقتال من أجل الحصول عليه لنفسه.

وأتوقف هنا أمام تجربة مؤثرة جميلة كتبها أديب كبير من أدباء الجيل الماضى هو "محمد فريد أبو حديد" وهى تجربة إنسانية بديعة تساعدنا على معرفة معنى "الرضا" الكريم وآثاره الإيجابية الواسعة على نفوس أصحابه. يقول "أبو حديد" وهو يسرد بعض ذكرياته:

"كنت أول ولد يعيش لأبوى، ولم يرزقا ولدا أخر إلا بعد أن صرت صبيا يافعا. وقد داخلنى من معاملتهما الكريمة شعور بأننى عضو مهم فى الأسرة، وأننى شريك فى تحمل مسئولياتها، وكنت المح فى حياة أسرتى صورة غامضة، جعلتنى أعرف أن هناك فرقا فى أسلوب الحياة فى بيتنا وأسلوب الحياة فى بيوت أعمامى وأخوالى، كما كنت المح أن والدى كان يعانى أزمة شديدة، ويجاهد فى مواجهتها جهادا عنيفا. وفى يوم من الأيام تحدثت إلى أبى فى حماسة الطفولة عما رأيته عند أبناء عمومتى من اللعب وألوان المتعة. ورأيته يصغى إلى فى شئ يشبه الدهشة والحزن، وما كدت أفرغ من حديثى حتى وجدته يمسح رأسى وهو صامت، وأحسست أنه كان شديد التأثر، وسألنى فى رفق: "أأنت حزين لأنى لا أهدى إليك مثل هذه الأشياء؟". وشعرت عند ذلك بشئ لا أستطيع وصفه بلغة الكبار.. كان مزيجا من الأسف والاحترام. وقلت فى حماسة: "أبدا". ولأول مرة فى حياتى أخذت أراجع نفسى فى قيمة الزخارف التى تفرق بين أسلوب حياتى، وأسلوب حياة الآخرين، وأعتز بالحالة التى أنا فيها. وأظن أنى مدين لتلك اللحظة بأننى صرت فيما بعد أميل إلى التقليل من قيمة المظاهر والمتع الكمالية".

تلك هى "النفس الراضية" التى اهتدى إليها الكاتب الكبير "محمد فريد أبو حديد" منذ بدايات حياته، وذلك عندما أحس بحزن والده لأنه لم يكن قادرا على أن يشترى له مثل الذى عند أبناء عمه من "اللعب" المختلفة، فرأى بقلب الصبى الحساس أن حزن والده، لضيق ذات اليد، أعز عليه كثيرا من تلك "اللعب" التى لا يملكها، فقرر أن يرضى بالاستغناء عنها، وتعودت نفسه منذ تلك اللحظة على ألا يتعلق بالكماليات والزخارف، وألا يتحسر على شئ لا يملكه هو ويملكه غيره.

على أن "النفس الراضية" لابد أن تكون كريمة محبة للعدالة رافضة لأى شئ يمس احترامها لذاتها. فما دام الإنسان قد تعود على الاكتفاء والاستغناء عما لا يملكه حتى لو كان غاليا وثمينا، فهو لابد أن يكون حريصا على كرامته. ولا يحب لهذه الكرامة أن تتعرض لأى خدش. وعن هذا المعنى يروى "أبو حديد" من ذكرياته هذه القصة فيقول:

"كان لى ابن عم يكبرنى ببضع سنوات، وهو عزيز عند أمى كأنه ولدها.. وكانت تمازحنى أحيانا قائلة: "إنه أحب إلى منك، لأنى رأيته وأحببته قبلك". وكانت أمى قد نذرت لابن عمى عندما كان فى السابعة وكنت طفلا رضيعا، أننى إذا كبرت وبلغت سن السابعة مثله جعلتنى له خادما أسوق له حماره. فلما بلغت السابعة أرادت أمى أن توفى بنذرها، فدعت أبن عمى وأعدت له دابة ليركبها وحزمتنى كخادم وأعطتنى عصا وأمرتنى بأن أسوق له الدابة أو الحمار. وأطعتها كما تعودت أن أطيعها لكنى بكيت بكاء مرا بعد

ذلك طيلة يومى برغم اعتذار أمى ومواساة أبى، وبغير أن أحس وجدت نفسى أفكر: هل أنا أقل شأنا من ابن عمى؟.. وعلى أى أساس يقوم تفضيل بعض الناس على بعض؟.. وأعتقد أن الأسئلة التى بدأت أوجهها إلى نفسى عند ذلك هى التى فتحت لى بابا واسعا لأسئلة كثيرة أخرى عن الناس وعن الحياة".

ثم يروى "أبو حديد" تجربة أخرى خرج منها بفلسفة عامة هى ما يمكن أن نسميها باسم فلسفة "النفس الراضية". يقول "أبو حديد":

"نحن نمر فى الحياة تأدية لواجب الوجود.. فلا ينبغى أن نجعل وجودنا شديد التعقيد بالخروج عن اتجاهاتنا الإنسانية التى تفضى إلى السعادة، وهى فى متناول أيدى البشر إذا شاءوا. وهى فى داخلهم لو تجردوا من الأنانية والحرص والظلم، واتجهوا إلى التعاطف والتعاون والخير والرحمة. وكان لهذه الفلسفة أثر حاسم فى توجيه مسلكى مع نفسى ومع الناس.. فأنا أؤمن بأن أفضل الناس هو أجدرهم بالإكبار، وأن أقواهم هو الذى يمد يده إلى الغير بالمساعدة، وأن أقلهم قدرا هو الأنانى الذى يزاحم لكى يخطف ما ليس من حقه، وأما أحقرهم فهو الذى يعتدى على الآخرين. وقد أخذت نفسى بفلسفتى أخذا صارما، فأذكر أننى عندما تخرجت فى مدرسة المعلمين العليا سنة (١٩١٤) حصلت على بعثة إلى إنجلترا. وكانت البعثة عند ذلك هى السبيل الوحيد إلى الرقى فى وظائف التعليم.. ولكننى رفضت تلك البعثة دون تردد، لأن قبولها ينطوى على أنانية، إذ كان والدى شيخا كبيرا، وكان سفرى يعرض

أسرتى للحرج. ورضيت بأن أشق طريقى فى الحياة دون سند من الغير. وكنت سعيدا أن أكون والدا لأخوتى عندما توفى والدي. وقد كانت هذه الفلسفة نعمة كبرى عندى، لأنها حررتنى من قيود تستعبد الكثيرين من الناس. وجدت فيها حريتى من الشعور بأنى لست مدينا لأحد بغير الصداقة الخالصة. ووجدت فيها حريتى من الرغبات والأطماع الجامحة التى تضلل العواطف، ووجدت فيها حريتى من المخاوف التى تبعد الناس عن طريق الحق. ولا أبالغ إذا قلت أن هذه الفلسفة وهبت لى السعادة الممكنة على هذه الأرض، لأنها وهبت لى التحرر من نفسى، وجعلت لى فى أعماقى صديقا وفيا.. وهو ضميرى الذى لم يخذلنى فى يوم من الأيام مع كثرة الشدائد التى اعترضت سبيلى".

تلك هى فلسفة "النفس الراضية" كما عبر عنها الأديب الكبير "محمد فريد أبو حديد" بصورة واضحة نبيلة. وليس من السهل تحقيق هذه الفلسفة الإنسانية برغم بساطتها. فالوصول إلى الصفاء والنفس الراضية يحتاج إلى مجاهدة ومثابرة وصبر وقدرة على التخلص من روح المنافسة الضارة والصراع العنيف والتزاحم على امتلاك أشياء يمكن أن تتحقق السعادة دونها، فالسعادة فى آخر الأمر هى التى يستطيع الإنسان أن يحصل عليها بانتصاره على نفسه وتدريب إرادته على ألا يطلب ما ليس من حقه وأن يتمسك بالمكاسب التى يحصل عليها بجهده وحده، وليس بمد يده إلى الآخرين، أو الاعتداء عليهم، أو الطمع فيما يملكون، أو التهاون فى الكرامة مهما كانت الأرباح العائدة على الإنسان من وراء هذا التهاون.

فلسفة النفوس الراضية فلسفة صعبة، والتدريب عليها شاق، ولكنها فى آخر الأمر هى التى تقود إلى السعادة الحقيقية، وهى سعادة الرضا وراحة الضمير.

وقفة أمام النهر

كثيرا ما تبدو السعادة التى نحلم بها جميعا نوعا من السراب الذى نجرى وراءه ولا نحصل منه على شئ. ومع ذلك فسوف تظل السعادة هدفا للإنسان يسعى إلى تحقيقه حتى لو لم ينجح فى ذلك، وربما يبدأ الشعور بالسعادة من مجرد البحث عنها، فالبحث عن السعادة هو نوع من الأحلام الهادئة التى يحتفظ بها الإنسان فى قلبه وعقله، وهذه الأحلام بالسعادة التى نتمناها لأنفسنا هى فى حد ذاتها نوع من السرور والمتعة والإبتهاج بالحياة والأمل فى أن تعطينا هذه الحياة بعض هداياها الجميلة. وسوف نجد الكثيرين من المفكرين والباحثين يؤمنون بأن سعادة الفرد لا يمكن أن تتحقق إلا فى بيئة خالية من المشكلات الصعبة، وفى مجتمع استطاع أن يتخطى التعقيدات التى تفسد حياة المواطنين وتنكد عليهم أيامهم ولياليهم.. وهذه الفكرة صحيحة، فمهما اعتزل

الإنسان.. ومهما حاول أن يعيش "فى حاله" وأن يمشى كما نقول "إلى جانب الحائط" فإن المجتمع العام لابد أن يؤثر فى حياة الفرد على نطاق واسع. والإنسان لا يعيش وحده، والمجتمع السعيد يتيح لأفراده فرصة السعادة، والمجتمع المضطرب الشقى يجرح الناس ويؤذيهم، حتى لو كان بعضهم قد استطاع أن ينجو بنفسه من الطوفان. فالإنسان لا يمكن أن يطمئن على سعادته فى مجتمع شقى، وفى مثل هذا المجتمع فإن الإنسان السعيد لابد أن يعانى الخوف على نفسه.. والخوف يقتل السعادة.

اذكر أننى قرأت مرة عبارة لا أنساها لرجل أجنبى عاش فى مصر فترة طويلة وأحبها، وعندما اضطر إلى أن يتركها كان شديد الأسى والحزن على أيامه المصرية الجميلة. أما العبارة التى عبر فيها عن تجربته فيقول فيها "إن مصر هى أجمل بلد فى العالم بشرط أن تكون غنيا". وقد كان هذا الرجل من الأغنياء طبعا، ولذلك كان من السعداء، وكان يرى أن مصر هى أجمل بلد فى الدنيا.

طيب.. ماذا تفعل الغالبية العظمى من المصريين وهم من الفقراء أو متوسطى الحال؟. إننا لو أخذنا بالشرط الذى اشترطه ذلك الرجل لكى تكون سعيدا، ولكى تعرف أن مصر هى أجمل بلاد العالم، فلن نستطيع أن نحقق شيئا من السعادة ولن نرى شيئا من جمال مصر، لأن الأغنياء لن يزيدوا فى مصر أبدا على نسبه عشرة فى المائة، ويبقى تسعون فى المائة بعيدين عن الغنى والثراء.

ولذلك فإن الشرط الذى وضعه ذلك الرجل الأجنبى لتحقيق السعادة فى مصر شرط مستحيل وغير معقول، وهو شرط غير منطقى، لأن الأغنياء بصورة عامة يستطيعون أن يكونوا سعداء فى أى مكان من العالم، فالثراء يوفر لهم كل ما يريدونه من إمكانيات واسعة.

إذن فعلينا أن نبحث عن شرط آخر غير شرط "الثراء" لتحقيق السعادة أو بعضها على الأقل. فالثراء سوف يظل فى كل المجتمعات نصيبا للأقلية، ولن يكون أبدا من نصيب الأغلبية. وأول ما يمكن أن نهتدى إليه هو أن نتيح لأنفسنا فرصة "للتأمل"، ففى داخل النفس الإنسانية دائما مناطق سحرية وبسيطة نستطيع أن نصل إليها إذا استطعنا أن نتأمل، أى أن نعيش فى لحظة صفاء مع أنفسنا، وأن نجرى حوارا صامتا مع مشاعرنا وأفكارنا، ولابد أن ينتهى بنا ذلك التأمل وذلك الحوار إلى نتائج مثمرة قد لا نحس بها ولا نراها فى زحمة الحياة، وفى ذلك تحقيق لبعض السعادة الهادئة. ومن أجمل لحظات التأمل التى مرت بى وتعلمت منها درسا نافعا فى السعادة البسيطة الحقيقية تلك الكلمات التى كتبها الأديب الكبير الراحل "محمد فريد أبو حديد"، حيث يقول:

"فى يوم من الأيام عندما كنت شابا فى الثامنة عشر من عمرى، خرجت كعادتى إلى جانب نهر النيل لأتنزه وفى ذهنى أسئلة كثيرة: ما هذه الحياة؟ ما معناها وما غايتها؟ وما هؤلاء الناس؟ كيف تكون السعادة؟ وكيف تكون العدالة؟ وهل الحظوظ عادلة؟ وكانت ساعة من أصيل يوم من أيام الصيف وماء النهر الأحمر يتدفق بالفيضان،

ووقفت أنظر إلى الأمواج المضطربة. وسرحت بأفكارى فى أسئلتى الحائرة، فلمحت على وجه النهر عودا يتقاذف به الموج، فشعرت كأن أسئلتى الحائرة كلها تجتمع عند ذلك العود المضطرب، وغبت فى تأملى، وما زلت كذلك حتى صحوت من سرحانى وقد حددت لنفسى فلسفة خاصة كان لها أثر عظيم فى توجيه حياتى: الحياة زائلة والناس يشبهون هذا العود الذى يتقاذف به الموج. وهم يأتون إلى الحياة بغير إرادتهم ويذهبون عنها بغير إرادتهم. ولو جردناهم من مظاهرهم التى يخلقونها بأنفسهم لأنفسهم لعرفنا حقائق أقدارهم، وهذه المظاهر التى يخلقونها لا قيمة لها أمام الحقائق الأبدية. وما دامت الحياة هكذا. فما قيمة الأغراض التى يتطاحن الناس عليها؟.. الناس يتطاحنون ليشقوا، والأمم تتطاحن لتشقى، وسبيل السعادة واضحة إذا فطن البشر إليها. نحن نمر فى هذه الحياة تأدية لواجب الوجود. فلا ينبغى أن نعقد وجودنا بالخروج عن اتجاهاتنا الإنسانية التى تقضى إلى السعادة وهى فى متناول أيدى البشر إذا شاءوا. هى فى داخلهم لو تجردوا من الأنانية والحرص والظلم، واتجهوا إلى التعاطف والتعاون والخير والرحمة والعدالة".

هذه هى لحظة التأمل المشرقة التى عاشها الأديب الإنسان محمد فريد أبو حديد. لقد وقف وقفة صافية أمام النهر، ورأى ذلك العود الذى يتقاذفه الموج، وأدرك فى صفاء وشفافية أن الإنسان مثل هذا العود، ولذلك فإن على الإنسان أن يكون بسيطا ومتواضعا وصادقا مع نفسه، فما دامت حقيقة الحياة الكبرى

واضحة، وهى أننا فى هذه الدنيا عود يتقاذفه الموج.. فلماذا التطاحن والظلم والأنانية المستبدة؟ ولماذا لا يحل محل ذلك كله الحنان واللطف والرحمة والسعى إلى مساعدة الآخرين كلما كان ذلك فى إمكاننا؟.

أظن أن ما قاله الأديب الإنسان "أبو حديد" هو نقطة البدء فى الحصول على السعادة، وهو المفتاح الأساسى لعالم السعادة السحرى. إنه التواضع الصادق، والبساطة الكاملة فى التعامل مع أنفسنا ومع الناس. ولابد أن يكون لكل منا "وقفة أمام النهر"، كما فعل ذلك الأديب الإنسان، وفى وقفتنا هذه سوف ندرك ما أدركه الأديب، ونرى ما رآه... فنحن جميعا أعواد يتقاذفها نهر الحياة.

ولو وقفنا هذه الوقفة، وأمسكنا بمفتاح السر فى السعادة، فسوف نكتشف الكثير مما يمكن أن يريحنا ويرضينا، وهذا الكثير موجود بين أيدينا وإن كنا لا نلتفت إليه. وأهم شئ فى ذلك كله هو ما يمكن أن نسميه باسم "الأعمال البسيطة" التى تعودنا أن ننظر إليها على أنها بلا قيمة ولا أهمية، بينما تؤكد تجارب الحياة الصادقة أن هذه الأعمال البسيطة تحمل لنا إذا أديناها بطيب خاطر كثيرا من البهجة، وتملأ قلوبنا بالنور.

ولنتأمل هنا ما يقوله رجل أمريكى عادى اسمه "أنجرسول" فى مذكراته، وكان هذا الرجل موظفا ناجحا من موظفى السكك الحديدية فى أمريكا.

ماذا يقول لنا هذا الإنسان الطيب الجميل؟. إنه يقول:

"لقد أصبحت أعتقد أنى مدين للحياة بقدر ما هى مدينة لى، ولعل هذا ما يفسر ما أشعر به من غبطة حين أحاول القيام بما يعهد إلى من عمل على خير وجه استطيعه، وحين أمد يد المعونة لغيرى من الناس. وكنت أثناء طفولتى مكلفا بتمهيد الأرض فى الحقول وقد هالنى فى ذلك الوقت أن أقوم بتنظيف هذه ا لحقول تنظيفا كاملا. ولكنى اكتشفت فى غمرة العمل أن الجهد المضنى والمسئولية ينطويان على متعة حقيقية، كما أن القيام بالواجب ليس من قبيل الكدح والشقاء. ولست أعرف السبب الذى من أجله أحب خدمة الناس، ولا أقصد بهذه الخدمة ما تعنيه من تحمل التبعات العائلية أو العمل فى المستشفيات المتنقلة أو المنظمات الدينية فحسب، ولكن تستهوينى أيضا أقل الأعمال قيمة... تلك الأعمال التى لا تبدو ـ فى الظاهر ـ جديرة بما نبذله فيها من وقت.ويقع مكتبى فى ميدان كبير، ولذلك تتاح لى الفرصة من حين إلى حين أن أرشد سائحا أو أزوده بشئ من تاريخ البلاد، وهذه الخدمات ـ على تفاهتها ـ تعود على أصحابها بالخير الكثير. ولقد عادت على أنا نفسى بأعظم خير، بل بأكثر مما أستحق بلا شك".

وقد يبدو لنا أن هذا الرجل الذى يجد سعادته فى أداء الأعمال البسيطة والتى يسميها بالأعمال التافهة... قد يبدو لنا رجلا خالى البال، لم يعرف أى حزن كبير فى حياته. ولكن ذلك غير صحيح فهو يقول فى جزء آخر من مذكراته:

"أنا رجل سعيد الحظ لأنى أحيا حياة كاملة سعيدة فيما أعتقد. نعم، أقول ذلك برغم أنه قد مرت بى فى حياتى صدمتان قاسيتان.

لقد سقطت زوجتى الأولى من قمة الجبل ذات يوم كنا نمارس فيه رياضة الإنزلاق على الجليد فماتت... وكان ذلك بعد ثمانية عشر عاما من حياة زوجية سعيدة. أضف إلى ذلك أن أبنى الوحيد المهندس فى سلاح الصيانة قد قتل فى إيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك فلم يكن من شأن هاتين الفاجعتين أن تفقدانى صوابى، فاستطعت أن أدخل السعادة على نفسى من جديد. ولكنى لا أريد أن يفسر أحد هذا بأنى إنسان جامد العاطفة، فالحقيقة أن هاتين الكارثتين قد أثقلتا كاهلى... ولكنى أحاول دائما جهد الطاقة أن أحيا حياة كاملة، حتى إذا ما ساء حظى لم يكن هناك مبرر للأسف أو اتهام الظروف بأنها المسئولة عما أسرفت فيه أو أضعت من وقت".

وهكذا فإن ذلك الرجل الذى وجد السعادة فى الجهد المستمر وأداء الأعمال البسيطة لم يكن قلبه خاليا من الأحزان، ولكنه كان يعالج أحزانه الكبيرة بقائمة طويلة من الأعمال التى تبدو صغيرة.

وفى تمجيد العمل البسيط وما يبعثه إلى النفس من بهجة ورضا وتعويض عن الأحزان التى لا يمكن أن تخلو منها الحياة، نقرأ هذه السطور من تجربة إنسان آخر اسمه "جون هيوز" ومهنته "سائق تاكسى فى مدينة "نيويورك" حيث يقول:

"حدث ذات مرة أن عثرت على خاتم من الزمرد فى سيارتى، وأذكر فى ذلك اليوم أنى كنت قد حملت فى سيارتى سيدة معها عدد كبير من "اللفائف" وكان على أن أرد لها هذا الخاتم فتتبعتها، وكلفنى

اقتفاء أثرها مجهود يومين حتى عثرت عليها. ولم أجد منها على ذلك أى شكر، ولكنى كنت بعملى هذا أسعد حالا منها".

ثم يقول سائق التاكسى:

"لم تصادفنى خلال السنين الطويلة التى عملت فيها سائقا أى متاعب من جانب الجمهور، ولست أستثنى من ذلك مدمنى الخمر، ذلك لأنى حرصت على أن أكون رقيقا هادئ الأعصاب حتى مع الأشخاص المتعنتين. وكثيرا ما سألنى الناس عما يجود به الركاب من "بقشيس" يضاف إلى الأجرة، فأقول إن الذى أعرفه فى هذا الصدد هو أن كل راكب تقريبا يعطينى شيئا، وأنا أحاول على الدوام أن أكون رقيقا فى معاملة كل إنسان سواء أعطانى هذه الهبة أو لم يعطنى شيئا، وأنا شديد الإيمان بالله، وأحاول دائما أن أكون عضوا صالحا فى المجتمع، وأعامل الناس معاملة طيبة. وقد دأبت على ذلك منذ زمن طويل، ولذلك أجد الحياة كلما تقدم بى العمر تزداد سهولة ويسرا".

ثم يقول هذا السائق صاحب الفلسفة الإنسانية البسيطة الطيبة: "فى اعتقادى أن الأمانة هى خير مواهب الإنسان. إنهم يطلقون عليها فى هذا الأيام أسماء خيالية كالاستقامة والعدالة ونحوهما، ولكن للناس أن يطلقوا عليها ما شاءوا من الأسماء، ولى أنا حق الاعتقاد فى أن "الأمانة" هى الكفيلة بأن تخلق المواطن الصالح، ذلك هو دستورى الذى أتقيد به فى حياتى".

وهكذا... لو وقفنا أمام النهر وتأملنا العود الذى تتقاذفه الأمواج، ولو نظرنا إلى الأعمال البسيطة نظرة اهتمام وأديناها

بإتقان وجدية رغم أنها قد تبدو "تافهة"، وقد يراها البعض عديمة القيمة والأهمية،.. لو فعلنا ذلك كما فعل أصحاب التجارب السابقة من الأديب "أبو حديد" إلى موظف السكة الحديد، إلى سائق التاكسى... لو فعلنا شيئا من ذلك فلعلنا نحصل على مفتاح من المفاتيح السحرية للسعادة..

لعلنا.

"ملحوظة: كل النصوص الواردة فى هذا الفصل هى من كتاب "علمتنى الحياة" الصادر بإشراف الدكتور أحمد أمين فى سلسلة كتاب الهلال ـ أكتوبر ١٩٥٣".

كتابات فى الحقيبة

فى سنة ١٩٢٥ حدثت فى ولاية "تنيسى" الأمريكية محاكمة لأحد المدرسين فى المدارس الابتدائية أسمه "توماس سكويس"، وقد وقعت هذه المحاكمة فى مدينة "دايتون" التى أصبحت مشهورة فى العالم كله بعد أن كانت مقرا للمفاوضات التى انتهت بعقد "اتفاقية دايتون للسلام فى البوسنة"، وفى هذه المدينة نفسها حدثت تلك المحاكمة الغريبة منذ حوالى ثمانين سنة، وبالتحديد سنة ,١٩٢٥ وكان "سكويس"، مدرس الابتدائى البسيط متهما فى هذه القضية بأنه "ملحد" و "زنديق"، وأنه مخالف لمبادئ "الإنجيل"، وذلك لأنه قرأ على تلاميذه، فصلا من كتاب "النشوء والارتقاء" للعالم الإنجليزى داروين "١٨٠٩-١٨٨٢"، صاحب نظرية "التطور" المشهورة. وقد اعتبرت السلطات الرسمية فى تلك المدينة الأمريكية أن ما فعله المدرس "سكويس" مع تلاميذه يستحق

العقاب، لأن قانون ولاية "تنيسى" التى تقع فيها مدينة "دايتون" ينص على أن تدريس ما يخالف "الإنجيل" جريمة تستحق العقاب القانونى.

وكانت نظرية "التطور" من النظريات التى تعتبر مخالفة للإنجيل، والإنجيل ــ كما هو معروف "هو كتاب المسيحيين المقدس، وكلمة "الإنجيل" نفسها يونانية الأصل، ومعناها "الخير أو البشارة أو الفرح". وفى "الإنجيل" أن الله خلق الإنسان من تراب فى ستة أيام، وفى نظرية "التطور" أن الإنسان ظهر بالتدريج فى هذا العالم، وكان فى مرحلة من مراحل تطوره يمشى على أربع، وكان فى هذه المرحلة يشبه "القرد"، ومن هنا جاءت تلك الفكرة الشائعة عن نظرية "التطور" وهى: أن الإنسان أصله قرد.

التناقض إذن ــ من الناحية الشكلية ــ واضح بين الإنجيل ونظرية التطور.

والمدرس الذى قام بتدريس نظرية التطور لتلاميذه الصغار قد خالف قوانين ولايته ومدينته، وهى القوانين التى تمنع الدعوة إلى أى فكرة تختلف مع أفكار الإنجيل.

لذلك حوكم المدرس، وانتهت المحكمة إلى إدانته وقضت بتغريمه مائة دولار.

واشتهرت هذه القضية باسم طريف هو "محاكمة القرد".

وبعد صدور الحكم تقدم المتهم ومحاميه إلى محكمة الاستئناف، وبعد مناقشات طويلة، حكمت المحكمة ببراءة المتهم.

وبذلك انتهت القضية فى المجال القانونى، وانتهى ما أثارته من زوبعة فى عصرها، ولكن القضية لم تصل إلى نفس النهاية بالنسبة لضمير الإنسان، وبالنسبة للمدافعين عن حرية العقل، ولم تنته ـ على وجه الخصوص ـ بالنسبة لهؤلاء الذين يبحثون منذ زمن بعيد عن نقطة الالتقاء والتوفيق بين الدين والعلم، وبين العقيدة والبحث الفكرى الحر، وهو ما يشجعنا عليه الدين إذا فهمناه على حقيقته وجوهره الأصيل، فالله لم يخلق الإنسان لكى يكون خليفته فى الأرض ثم فرض عليه "الغباء"، بل منحه العقل ليستخدمه لا لينكره ويلغيه.

انتهت القضية إذن من الناحية القانونية، ولم تنته بالنسبة للفنان الذى يلتفت لمثل هذه الأحداث، ويمد إليها أصابعه السحرية، ويخرج منها بأفكار إنسانية عامة وأصيلة، يمكن أن تعيش فى أى عصر وفى أى مكان.

وهذا ما فعله الكاتبان الأمريكيان "جيروم لورنس" و "روبرت لى"، وهما كاتبان تعودا على أن يعملا معا فى الكتابة للمسرح، والكتابة للإذاعة والتليفزيون.

التقط الكاتبان الأمريكيان ما حدث فى "محاكمة القرد" أو محاكمة المدرس الذى قرأ على تلاميذه بعض ما كتبه "داروين" حول نظرية التطور، وكتب هذان الكاتبان المبدعان مسرحية اسمها "ميراث الريح". وهى مسرحية من أجمل نماذج الأدب الإنسانى الحر، وقد ترجمها إلى العربية الأستاذ صلاح عز الدين وقدم لها

الأستاذ عبد الحليم البشلاوى. والترجمة والمقدمة ممتازتان بحيث لا نحس معهما بأننا نقرأ عملا مترجما، بل نشعر على العكس بأن الترجمة العربية واضحة وصافية كأنها نص أصلى غير مترجم.

وعنوان المسرحية وهو "ميراث الريح"، مأخوذ من آية فى الإنجيل تقول: "من يكدر بيته يرث الريح" وهى آية جميلة وراقية معناها "أن من يزرع الشر لا يجنى خيرا وإنما يجنى شرا مثله".

وقد ظهرت هذه المسرحية مطبوعة سنة ١٩٥٠، وكان لظهورها فى هذا الوقت بالتحديد مغزى كبير.

ففى الفترة الممتدة من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٤ ظهر فى أمريكا رجل مجنون أو شبه مجنون، كان عضوا فى مجلس الشيوخ الأمريكى "الكونجرس" واسمه جوزيف ريموند مكارثى "١٩٠٨-١٩٥٧"، وقد اشتهر باسمه الأخير وهو "مكارثى"، واشتهرت أفكاره باسم "المكارثية"، وهذه "المكارثية" هى "الإرهاب الفكرى"، فقد شن هذا الشيخ الأمريكى حملة عنيفة على كل الأفكار الحرة فى بلاده واتهمها بأنها أفكار يسارية شيوعية تهدف إلى تدمير المجتمع والقضاء على قيمه وتقاليده. وكان "مكارثى" رجلا ضيق الأفق، صاحب عقل محدود وضمير غير مستقيم. فكان يوجه إتهاماته باليمين والشمال ضد كل من يرى فيه جرأة فكرية أو شجاعة عقلية، والتهمة دائما عنده هى تهمة "اليسار"، واستطاع "مكارثى" أن يوجد حالة من الرعب والفزع فى أمريكا، فأصبح الجميع يخشون من التعرض لاتهاماته التى لا تستند على برهان أو دليل،

وهى اتهامات كانت فى وقتها كفيلة بأن تلقى بمن يتعرض لها إلى السجن والمحاكمة وفقدان العمل والرزق.

وشخصية "مكارثى" تذكرنا بشخصيات كثيرة أخرى مشابهة له فى الشرق والغرب، منها شخصية وزير الحربية الأمريكية الأسبق "جيمس فورستال" الذى دخل فى آخر حياته مستشفى للأمراض العقلية، وكان كلما رأى شخصا سارع بالاختباء تحت السرير قائلا: أمسك شيوعى... الجيش الأحمر قادم لاغتيالى.

أنه جنون الفكرة الواحدة، وجنون العقل الضيق الذى لا يطيق رائحة الفكر الحر، ولا يطيق أن يختلف معه أحد.

فى عصر "مكارثى" هذا ظهرت مسرحية "ميراث الريح" فى كتاب، وخاف المؤلفان الأمريكيان من تقديمها على خشبة المسرح، واكتفيا بطبعها حتى تكون صرخة متواضعة فى وجه مكارثى والمكارثية.

ومسرحية ميراث الريح بسيطة وسهلة ومليئة بالضحكات، وهى تجرى فى قاعة المحكمة، حيث تتم محاكمة المدرس الذى تجرأ على تدريس بعض أجزاء من نظرية التطور لطلابه. وأحداث المسرحية لا تختلف عما حدث عندما وقعت هذه المحاكمة سنة ١٩٢٥.

والبطل الحقيقى فى المسرحية هو "دراموند" المحامى الذى دافع عن المدرس المتهم، وكلمات المحامى فى دفاعه رائعة، والنقطة الأساسية فى هذا الدفاع تقوم على أن العقل هو الموهبة

الكبرى للإنسان، وأن الإنسان لا يتميز عن غيره من الكائنات الأخرى إلا بهذا العقل، فإنكار العقل، وإنكار حريته فى التفكير والبحث والعمل على تحقيق السعادة هو إجرام فى حق السماء والأرض، لأن الله هو الذى منح العقل للإنسان، وإنكار العقل، وليس استخدامه، هو الكفر بنعمة الله.

يقول المحامى فى مسرحية "ميراث الريح":

"لماذا تنكرون القدرة الوحيدة التى ترفع الإنسان فوق كل مخلوقات الأرض وهى: قدرة عقله على التفكير؟. ماذا لدينا من قيمة أخرى؟ الفيل أكبر منا جسما، والحصان أقوى وأسرع، والفراشة أجمل، والبعوضة أخصب إنتاجا، حتى الاسفنجة العادية أطول بقاء منا نحن البشر"(١).

العقل أذن ـ كما يقول المحامى فى المسرحية ـ هو تاج الإنسان، وهو سلاحه الأكبر والأعظم فى مواجهة صعوبات الحياة، وهو وحده الذى يجعل الإنسان أجمل مخلوقات الله وأكثرها روعة.

والذين ينكرون العقل، ويضعون أمامه العقبات والقيود إنما يقتلون الإنسان ويكفرون بنعمة الله.

العقل الحر هو القيادة الوحيدة للإنسانية فى مسيرتها الطويلة العسيرة.

وأخطاء العقل لا خطر منها، لأن العقل قادر على تصحيح أخطائه بنفسه.

وفى مسرحية "ميراث الريح" نجد نماذج طريفة للعقل الغائب العاطل عن العمل، ومنها صورة ذلك ا لرجل "المبروك" الذى يأتى من الجبال يوم "المحاكمة" وهو يحمل سلة مليئة بالكتب" وهو ذو لحية، وشعر أشعث، وملابس مهلهلة رثة، حافى القدمين يتخذ مكانه بين بائعى العصير والسجق، ويعلق لافتة مكتوبا عليها: "أين ستعيش فى الآخرة" ثم ينادى فى صوت مرتفع شديد الخشونة: أشتر نسخة من الإنجيل ترشدك إلى الحياة الأبدية. أشتر نسخة من الإنجيل".

فنحن أذن لسنا وحدنا الذين نعانى من طوفان الكتب التى تحدثنا "عذاب القبر" و "الزواج الصحيح من الجن والعفاريت" وغير ذلك. فقد عانت أمريكا أيضا من مثل هذه الكتب، وعرفت مؤلفات من هذا النوع "السياحى" الذى يحدد للإنسان "خريطة" تمكنه من اختيار المكان المناسب له فى الحياة الآخرة!!.

أما الحملة العنيفة على "حرية العقل والتفكير" فنجدها فى هذا المشهد الطريف من مشاهد مسرحية "ميراث الريح":

"تتدفق الجموع أمام المحكمة وقد ازدادت عددا، وهى تمشى فى موكب بهيج تحمل أعلاما عليها عبارات مثل: هل أنت رجل أم قرد؟ - عدلوا الدستور _ حرموا تدريس داروين _ أنقذوا مدارسنا من الخطيئة _ ليس أجدادى من القرود _ فليسقط داروين _ داروين مخطئ _ فليسقط التطور... ثم يغنى الجميع نشيدا واحد هو: "أعطنى دين ذلك العهد القديم، فهو خير لى وكفاية. كان خيرا

لأبى. كان خيرا لأبى. كان خيرا لأبى "ثلاث مرات". وهو خير لى وكفاية".

ولم يسلم المحامى "دراموند" الذى جاء للدفاع عن المدرس المسكين المتهم بالكفر لأنه قرأ على تلاميذه بعض ما كتبه "دارون"، ...لم يسلم هذا المحامى الشجاع من هجوم المتعصبين عليه. وهذا أحدهم يقول عنه: "ما زلت أستطيع أن أتخيله أمامى إنسانا كئيبا يبرز رأسه كأنها رأس حيوان. إذا نظرت إلى عينيه تعجبت لماذا خلق الله مثل هذا الرجل، وعند ذلك تستطيع أن تعرف أن الله لم يخلقه، وإنما خلقه الشيطان... بل ربما كان هو الشيطان نفسه".

ويقول متعصب آخر ما معناه: "أن آراء داروين سخيفة. وفكرة التطور لا معنى لها". وهناك قسيس معروف اسمه "آرشر" حدد لنا تاريخ قيام الخليقة وساعتها بالضبط وقال أن بدء الخليقة كان سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد. وقد وصل "آرشر" إلى هذا التحديد الدقيق بالمراجعة الحسابية لأعمار الأنبياء كما جاءت فى العهد القديم، والواقع أنه قرر أن الله قد بدأ خلق العالم فى اليوم الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد فى الساعة التاسعة صباحا"!

وقد أعترض المحامى "دراموند" على مثل هذا الكلام واعتبر أن تفسير الكتب المقدسة لا يكون إلا بالنظر إلى روحها العامة، أما النظر إليها نظرة حرفية فهو يسئ إلى الكتب المقدسة، ويؤدى بنا

إلى تناقضات لا مبرر لها، فإذا كان الله ـ كما تقول الكتب المقدسة ـ قد خلق العالم فى ستة أيام. فمن يدرينا أن اليوم من تلك الأيام كان مثل أيامنا نحن، أى أنه أربع وعشرون ساعة ولماذا لا يكون هذا اليوم عاما من أعوامنا أو عشرة أعوام. ومن هنا يكون تحديد موعد بدء الخليقه بالساعة التاسعة صباحا يوم ٢٣ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد أمرا لا يمكن أن يقبله العقل أو يستريح إليه.

وهناك كلمات ممتعة للمحامى "دراموند" تتجه كلها إلى الدفاع عن حرية العقل ورفض التفسير الحرفى للكتب المقدسة، من ذلك قوله "أننى أحاول أن أمنعكم أيها المتعصبون الجهلة من السيطرة على التعليم فى الولايات المتحدة" وقوله "المفروض فى الدين أن يخفف عن الناس، لا أن يرعبهم إلى درجة الموت" وقوله "هل "الجرار" الذى يستخدمه الفلاحون مذنب لأنه لم يرد له ذكر فى الإنجيل؟! وقوله "أن موسى" عليه السلام" لم يستخدم التليفون فهل هذا يجعل التليفون أداة من أدوات الشيطان؟! "وقوله" أن العلم قد أثبت أن عصر بعض الصخور لا يقل عن عشرة ملايين سنة، فكيف يقال أن الكون عمره ستة آلاف سنة؟! "وقوله" أن هناك قداسة فى قدرة الطفل على استيعاب جدول الضرب، وفى تقدم المعرفة البشرية معجزة من أكبر المعجزات"، وفى ذلك كله ما يفوق كل الخرافات التى يرددها المتعصبون.

على أن أجمل وأخطر ما فى مسرحية "ميراث الريح" هو الموقف الأخير للمحامى "دراموند" الذى يخرج من المحكمة بعد

إدانة المدرس المتهم بتدريس "داروين" وتغريمه مائة دولار قبل أن، يحصل المتهم بعد بالبراءة من محكمة الاستئناف.. يعد الحكم الابتدائى بالإدانة يفتح المحامى حقيبته ويضع فيها "الإنجيل وكتاب "النشوء والارتقاء" لداروين"!

هنا الفن. هنا الرسالة. هنا الأغنية الرائعة التى ترسلها المسرحية إلى كل إنسان وكل حضارة وكل مجتمع. الكتاب المقدس وكتاب العلم فى حقيبة واحدة. فهما كتابان لا غنى عنهما، ولا تقدم بدونهما. العقيدة بالقلب، والمعرفة بالعقل، نور الإيمان ونور الفكر الحر الطليق، ولا نجاة للإنسانية من كل الأزمات والمشكلات، ولا نهضة ولا تقدم، ولا راحة بال ولا قدرة على العلم والمعرفة إلا بأن يكون هذان الكتابان فى حقيبة واحدة.. كتاب العلم والمعرفة والكتاب المقدس، أى كتاب العقيدة وكتاب العقل.

ولم يكن ممكنا أن تظهر مسرحية ميراث الريح" على خشبة المسرح عند كتابتها سنة ١٩٥٠، فقد كان عدو الحرية "مكارثى" لها بالمرصاد، ولم تسقط "المكارثية" إلا سنة ١٩٥٤، عندما ثار مجلس الشيوخ الأمريكى على صاحبها "مكارثى" واتهمه بأنه "يمثل سلوكا مخالفا لتقاليد المجلس"، وسقط "مكارثى". وظهرت المسرحية على خشبة المسرح الأمريكى ونجحت نجاحا مدويا.

وقد نجحت المسرحية لأنها تحمل رسالة قوية تقول لنا: لابد من وجود كتابين فى حقيبتنا، فلا غنى للإنسانية عن واحد من هذين الكتابين كتاب الإيمان وكتاب التفكير العلمى الحر.

عندما يأتى الربيع

أظن أنه لم يعد الإنسان فى أيامنا الحالية يشعر بشئ اسمه "جمال الربيع"، ذلك لأن الربيع ليس فيه برد الشتاء ولا حر الصيف. فنحن لا نستعد له ولا نحسب له حسابا، فهو فصل رقيق مهذب يمشى على أطراف أصابعه ولا يصرخ فى وجوهنا بصوت مرتفع، ولكى نعرف أن الربيع قد حل بيننا فإن علينا أن نستخدم حواسنا الداخلية الخفية التى تعيش فى داخلنا، مثل حاسة الذوق الفنى وحاسة الاستمتاع بالجمال، وكثيرا ما ترغمنا الحياة بهمومها ومشاغلها على أن نعطل هذه الحواس الداخلية فينا والتى بدونها لا يمكننا أن نسمع صوت الربيع ولا أن نقرأ لغته الحلوة التى يكتبها على صفحات الطبيعة. فلو نظرنا حولنا فى شهر مارس لوجدنا أن أوراق الأشجار تعود إليها ألوانها الخضراء التى فقدتها فى برد الشتاء، ولو كان من حظنا أن نكون قريبين من حديقة، ولو كانت

صغيرة، فسوف نجد الأزهار قد بدأت تبتسم، وأخذت أوراق الورد تتفتح فى لطف وحياء، وبدأت كل الألوان فى الطبيعة تأخذ زينتها وتلبس أجمل أثوابها، وتخرج علينا بكل قدرتها على الإغراء لتقول إن الربيع قد جاء، لكن هذه السيمفونية الطبيعية الجميلة الهادئة لم تعد تلفت أنظارنا، لأن ضوضاء الحياة ومشاغلها الكثيفة أصبحت تشغلنا عن ذلك، ولهذا فقد أصبح الربيع هو الفصل "اليتيم" الذى يعرض علينا هداياه، فلا نعبأ بها ولا نلتفت إليها.

والربيع يذكرنى بصديق لنا أديب وفنان من المغرب اسمه "الباهى محمد" وقد توفى منذ سنوات قليلة بعد حياة حافلة بالجهاد والكتابة الجميلة والمواقف الإنسانية الرائعة، وكنا نلتقى مع "الباهى محمد" أحيانا فى القاهرة وأحيانا أخرى فى عواصم عربية مختلفة، لأنه كان لا يتوقف عن الرحيل من مكان إلى آخر، وكأنه كان يبحث عن شئ مجهول أو سر خفى، وكان لا يجد ما يبحث عنه، لكنه كان على ثقة بأن هذا الشئ الضائع منه موجود فى مكان ما، وأن مواصلة الجرى وراءه ضرورية، لأن العثور عليه مؤكد، وأظن أن "الباهى محمد" قد مات دون أن يعثر على الشئ الجميل الذى كان يبحث عنه، ولعل هذا الشئ الضائع منه كان موجودا فى قلبه الطيب ونفسه الإنسانية الرائعة، هل كان "الباهى" يبحث عن "الوحدة العربية"؟ هل كان يبحث عن المعانى الحقيقية للإخاء بين الناس وواجبهم فى التعاون مع بعضهم بعضا حتى يكونوا على مستوى الإنسانية الحقيقية كما كان "الباهى محمد" يفهمها ويعشقها ويؤمن بأن الدنيا لا قيمة لها بغير هذه الإنسانية

الحقيقية؟ ذلك سر "الباهى" الذى ذهب معه، لكن الذين عرفوا "الباهى". وأنا منهم. لا ينسونه أبدا، فقد كان محبوبا من الجميع بسبب واحد بسيط هو أنه لم يكن يطلب شيئا من أحد على الإطلاق، وكان يعطى دائما بقدر ما يستطيع، ولم يكن من الأثرياء وكان باستطاعته أن يكون من كبار أصحاب الأموال لو أراد، ولم يحصل فى حياته كلها على منصب كبير، وكان يمكنه أن يكون فى أعلى المناصب لو أراد أيضا، وكان يعيش على الدخل الذى يحصل عليه من كتاباته المشرقة فى الصحف العربية والأجنبية، فقد كان يتقن الفرنسية ويكتب بها، وكان هذا الدخل كافيا لأن يحقق له حياة مليئة بالرخاء، لكنه كان ينفق كل دخله على مطالبه القليلة وعلى الآخرين، فلا يبقى فى يده شئ من هذا الدخل الكبير، لذلك عاش حياته كلها فى فقر وتواضع، ولكنه كان دائما يحمل فى قلبه وسلوكه وملامح وجهه كل كبرياء الأغنياء الذين يملكون أموال الدنيا. فكان يبدو أمامنا فقيرا جدا وغنيا جدا فى وقت واحد.

لماذا أتذكر الباهى محمد وأنا أتحدث عن الربيع؟ إن "الباهى" و "الربيع" عندى وجهان لشئ واحد. فقد كان "الباهى" يعشق الربيع وينتظره من عام إلى عام، وكانت علاقته بالربيع علاقة فريدة، فقد كان مجنونا بالقراءة العلمية الدقيقة عما يحدث للنباتات والأشجار والأزهار فى الربيع، وقد كتب عنه الروائى العربى المعروف "عبد الرحمن منيف" كتابا صغيرا بديعا روى فيه بعض ما عرفه عن "الباهى" بعد صداقته الطويلة معه عندما كانا يعيشان فى باريس فى السبعينات والثمانينات، وكان مما سجله

"عبد الرحمن منيف" فى كتابه أن "الباهى" كان يتابع خطوات الربيع منذ أواخر الشتاء، وكان يبحث عن أثر هذه الخطوات على الأشجار والأزهار فى باريس، وهى مدينة مشهورة بحدائقها الكثيرة والرائعة. كان "الباهى" يقف أمام الأزهار ليلا ثم يعود إليها فى الصباح ليرى ماذا طرأ عليها من التغيير فى أثناء ساعات الليل، ويظل يتابع هذه العملية بصورة دقيقة منتظمة حتى تتفتح كل الأزهار تفتحا كاملا، ويكون قد راقب فى صبر حركة النمو والخروج من الإنكماش، وهى الحركة التى تعيد الحياة إلى الأزهار مع عودة الربيع، وكان "الباهى" يحاول بما يجمعه من معلومات أن يجد صلة بين نمو الأزهار وتفتحها وبين حياة الإنسان، ولعله كان من الذين يؤمنون بفكرة غريبة هى "أن الإنسان زهرة" وأن الإنسان ينبغى أن يكون له ربيع مثل ربيع الأزهار، والمشكلة عنده كانت هى أن الإنسان فى مشاغله لا يدرك ما بينه وبين الأزهار من صلات وثيقة، ولو أدرك هذا المعنى الدقيق الجميل لتفتح قلبه كما تتفتح الأزهار، ولأصبحت الإنسانية كلها أكثر جمالا وأكثر رحمة وحنانا مما هى عليه.

ذلك هو الربيع الذى لم يعد يلفت أنظارنا.

وذلك هو "الباهى محمد" صديق الربيع وعاشقه، والذى مر فى حياة أصحابه وأحبابه كما يمر النسيم، وليس كما تمر العاصفة.

وينقلنا الحديث عن الربيع "اليتيم المظلوم" بين الفصول إلى شاعر إنسانى عالمى متصوف له مكانته فى كل آداب الدنيا، وهو

الشاعر الإيرانى الكبير "مولانا جلال الدين الرومى" وقد عاش هذا الشاعر العظيم بين سنة ١٢٠٧ وسنة ١٢٧٣، وحياة هذا الشاعر العظيم مليئة بالأحداث الرائعة المثيرة، وعلى الرغم من أنه إيرانى فهو من أصل عربى، لأنه من أحفاد "أبى بكر الصديق"، ومن أشهر أعمال هذا الشاعر الجبار ديوانه الشعرى العظيم الذى سماه باسم "مثنوى"، وكلمة مثنوى باللغة الفارسية تعنى "شكلا" من أشكال القصيدة الشعرية تكون فيه القصيدة من "بحر" أو "نغم" واحد، ويكون لكل بيت فى القصيدة قافية يتفق فيها الشطر الأول من البيت مع الشطر الثانى منه.

وفى إحدى القصص الشعرية فى هذا الديوان النادر يحدثنا "مولانا جلال الدين الرومى" عن الربيع فيقول:

"عندما يأتى الربيع تخضر الأرض وتتفتح الزهور والأوراق، ولكن الحجارة لا تتفتح فى أى ربيع".

ثم يقدم مولانا جلال الدين حكمته لكل إنسان فيقول: "كن ترابا ولا تكن حجرا، وذلك حتى يمكنك أن تبلغ مقاما عالياً".

فالتراب فى تواضعه وبساطته هو الذى منه تنبت الأزهار ويستطيع الربيع أن ينفخ فيه من روحه، أما الأحجار فتبقى على ما هى عليه من الجمود، ولا تحس بروح الربيع على الإطلاق، وحكمة "مولانا جلال الدين" هنا تدعونا إلى البساطة والتواضع وعدم السقوط فى الجمود والقيود وتعطيل مشاعرنا الداخلية وأذواقنا الروحية، فالتجميد والتعطيل يجعلان منا حجارة لا تحس بما

يفيض به الربيع على الدنيا من ألوان الجمال والبهجة والسعادة، وفى رأى "مولانا جلال الدين" أنه لا يتحقق لنا الإزدهار والإخضرار إلا إذا تخلصنا من التباهى والتظاهر واستعراض ما لدينا من صفات حتى لو كانت هذه الصفات طيبة، فالتباهى والتظاهر والاستعراض تخلق فينا حاجزا يمنعنا من الاتصال بالجمال الموجود فى الطبيعة وفى حياتنا ونفوسنا، وهذه الطريقة فى السلوك، تحرمنا من الحرية وتحبسنا فى أقفاص لا نستطيع الفرار منها أبدا.

على أن المتعة فى قصيدة "مولانا جلال الدين الرومى" ليست فقط فى الحكمة الأخيرة التى تدعونا إلى عدم التباهى والاستعراض والتظاهر، ولكن المتعة فى هذه القصيدة تنبع أيضا من القصة التى يرويها "مولانا جلال الدين".

تقول القصة الشعرية، وترجمتها من الفارسية إلى العربية هى للأستاذين "محمد حسن الأعظمى" و "الصاوى على شعلان":

"كان أحد كبار التجار يملك ببغاء نادرة الحسن جميلة المنظر، واعتزم التاجر على أن يقوم برحلة إلى الهند، فسأل كل من فى داره عما يجب أن يحضره له عند عودته من التحف والهدايا، فطلب منه كل أفراد المنزل ما يرغب فى الحصول عليه من الأشياء النفيسة، وسأل التاجر الببغاء عما تحب أن يحضره إليها مما تحتويه بلاد الهند من خيرات وأشياء طيبة، قالت الببغاء: إن لى ـ يا سيدى ـ مطلبا واحدا، وهو أن تحمل سلامى إلى "ببغاوات" الهند، وتبلغهن

أننى أعانى من الأشواق الحارة والآلام المضنية، وأن عندى حنينا شديدا إلى رؤيتهن، غير أنهن طليقات وأحرار، وأنا هنا سجين فى القيد والقفص، فوعدها التاجر بإبلاغ رسالتها، ولما انتهى من أعماله فى الهند ذهب إلى أحد الغابات ونظر إلى "الببغاوات" وأوقف جواده وأبلغ رسالة "ببغائه" الجميلة، وسمعت إحداهن الرسالة، فحدث لها الذعر والاضطراب، وهوت صريعة على الأرض، فوقف التاجر أمام المشهد حزينا متأثرا يتهم نفسه بأنه كان هو السبب فيما وقع لها، وظن أنها قضت نحبها حزنا، وقد تكون بينها وبين "ببغائه" قرابة، فلهذا لم تستطع صبرا على الحياة بعد هذه الرسالة، وحين عاد من رحلته إلى منزله وفى يديه الهدايا التى طلبها أهله، سألته الببغاء عما إذا كان قد أبلغ رسالتها إلى بنات جنسها، فتحدث إليها بالقصة التى وقعت أمامه. وما كادت الببغاء تسمع منه ذلك حتى هوت على الأرض بين الحياة والموت، فوجم التاجر وامتلأ قلبه بالهم وشق ثيابه واجهش بالبكاء، ومد يده إلى القفص وفتح بابه وألقى بالببغاء خارج القفص فدبت فيها الحياة وحركت جناحيها وانطلقت مسرعة إلى الفضاء واستقرت على غصن شجرة عالية، فسألها التاجر قائلا: يا ببغائى المحبوبة، ماذا فهمت من الرسالة الصامتة التى حملتها إليك معى من ببغاوات الهند؟ قالت: نصحتنى الرسالة بأن ابتعد عن الكلمات والنغمات السحرية الجذابة، لأن كل مصائبى وما نالنى من السجن والقيد إنما كان سببه هو إظهارى لهذا كله، وقد نصحتنى الرسالة بأن أتحلى بمنظر الموت حتى أدرك الحياة والنجاة من القفص".

وينهى "مولانا جلال الدين" قصيدته القصصية بالعبارات التى يمدح فيها الربيع والتى أشرنا إليها فى البداية، ولا بأس من تكرارها حتى ندرك بعض معانى هذه القصة حيث يقول الشاعر "عندما يأتى الربيع، تخضر الأرض وتتفتح الأوراق، ولكن الحجر لا يخضر ولا يتفتح فى أى ربيع، فكن ترابا، ولا تكن حجرا، لتبلغ مقاما عاليا".

فالربيع عند "مولانا جلال الدين" هو رمز جميل للتواضع وحرية النفس والطبيعة، ولا يمكن للربيع أن يتفتح فى عيوننا ويلفت أنظارنا ويبهج قلوبنا، إذا كنا أحجارا لا تشعر ولا تحس ولا تتأثر بقوة الحياة، وكل الصفات الطيبة فى الإنسان لا يصح أن تكون موضعا للتباهى والاستعراض ففى ذلك ما قد يؤدى إلى الدخول فى أقفاص ليس فيها منفذ للحرية والإنطلاق، لأن الذين يتباهون ويتظاهرون بما لديهم من صفات طيبة يقعون فى الغزو، ويصبحون صيدا سهلا لكل صياد، ويتحول التباهى والتظاهر إلى عائق يمنع الإنسان من الرؤية الصحيحة لكل ما هو جميل فى داخله أو فى الطبيعة. والغرور بما يملكه الإنسان من ميزات يؤدى به إلى التجمد، فيصبح حجرا لا يعرف الإخضرار، حتى لو جاء الربيع، بينما السيطرة على النفس والخلاص من التظاهر والتباهى، يجعلان الحياة مثل "التراب" المتواضع البسيط لكنه فى الوقت نفسه هو الأقدر على أن ينبت الأزهار والثمار، وكل جمال فى الحياة والإنسان يخلو من التباهى يكون جمالا أبقى وأنضر، والمرأة الجميلة تزداد جمالا لو أنها كانت بسيطة غير متباهية بجمالها

وغيـر حـريصـة على أن تلفت الأنظار إلى هذا الجـمـال، والكلمـة العـذبة الجـمـيلة إذا كـانت بسـيطة خـاليـة من التشـدق والعنف والزخـرفة يكون تأثيـرها على النفوس أقوى وأقدر على الاسـتمـرار، والزهـرة فى الربيع لا تصـرخ وهـى تتفتح وتكشـف فى هـدوء وبسـاطة عن جمالها يومـا بعد يوم، وقد تكون الحكمة هـى أن يخفى الإنسان بعض مـا لديه من قوة الحياة، كما تظاهرت الببغـاء بالموت، ففتح صـاحبهـا لهـا القفص، فاسـتعـادت قوتها وطـارت إلى غصن شـجـرة عـالية، وتنفسـت نسيم الحرية، وانطلقت إلى فضاء الله الواسع، بعد أن كانت سجينة ومقيدة، ولأن الشاعر العظيم "مولانا جلال الدين" شـاعر صوفى، فهو فى قصيدته البسيطة يلمس كثيرا من المعـانى الكبيـرة، وكثيـرا نقف حـائرين أمام هـذه المعانى ونحاول تحديدها بدقة فلا نسـتطيع أن نصل فيهـا إلى قول نهائى أو تفسيـر أخيـر، وقـد يكون من مـعـانيـهـا وأفكارها البـعـيـدة أن الأمم والشـعـوب لا تستطيع أن تتحـرر من قيودها إلا إذا أخفت أسـرارها عـمن يريدون بهـا الشـر، وإلا إذا تظـاهرت بالمـوت، وخـاصـة عندمـا يحيط بهـا الأعـداء فى لحظة من لحظـات التـاريخ، وفى هـذه اللحظة يعـجـز الصيـاد عن وضعها فى القـفص وتقييدها بأسـوار من الحديد، وهنا تدب فيـهـا القـوة والحيـوية وتطيـر بجناحين جبـارين وتسـتقـر فوق شـجـرة غـالية، أى تـرتفـع وتتـحـرر. والنفوس الكبيـرة تفـعل ذلك أيضـا، فتكمـن وتهـدأ وتخـفـى سـرهـا إلى الحـد الذى يتصـور الذين يريدون تقييـدهـا أنهـا على حافـة النهـاية، وفى هـذه اللحظة تنتفض وتتحـرر وتصعد إلى الفضاء العـالى. و "الربيع" فى هـذه القصيدة هو أسلوب

فى مواجهة الحياة وفى التعبير عن النمو والازدهار، لأن الربيع يتسلل بجماله إلى الطبيعة وهو لا يقدم أسراره إلا فى هدوء وبساطة، والربيع دائما يعطى نشوته قطرة قطرة، ولا يعطيها مرة واحدة، ولا ينفجر أبدا كأنه بركان.

قصيدة "التاجر والببغاء" لمولانا جلال الدين قصيدة بسيطة وناعمة، لكنها عامرة بالمعانى العجيبة، وهى قصيدة تجعلنا حائرين أمام معانيها العديدة، لكننا ــ على الأقل ــ نخرج منها بأن التباهى والتظاهر شر يضر بأصحابه، وأن الوداعة والبساطة خير ونعمة ونخرج منها أيضا بأن الربيع يحتاج إلى التفات وانتباه، وعلينا أن نتعلم منه، فالربيع الجميل لا يعطى أسراره وجماله وأزهاره للحجارة، والحجارة جامدة ومفتونة بنفسها، لكن الربيع عندما يأتى يمس "التراب" بيده الساحرة، لأن التراب لا يتباهى ولا يعرف الغرور، وكثيرا ما تدوسه الأقدام، ومع ذلك فالتراب المتواضع الذى لا يتباهى بشئ هو وحده الذى ينبت الأزهار.

فكن ترابا سهلا متواضعا بعيدا عن التعالى والتظاهر والغرور، وعندما يأتى الربيع فإنه سوف ينبت فى أرضك أجمل الأزهار، وسوف يعطيك الكثير من قوة الحياة وما فيها من نشوة وابتهاج.

شجاعة السعادة

هل السعادة بحاجة إلى الشجاعة؟ إن الإنسان السعيد يبدو راضيا عن نفسه وعن حظه فى الحياة.. فالسعادة التى يشعر بها تكون نابعة من قلة مشاكله، وتوفيقه فى عمله وفى علاقاته الإنسانية الخاصة والعامة. ولابد أن تكون هذه السعادة نابعة أيضا من الصحة والعافية واستقرار الأوضاع الاقتصادية للإنسان، ولكن كيف تتوفر كل هذه الظروف مع بعضها البعض دون أى نقص أو خلل فى حياة الناس؟. إن "النقص" هو من طبيعة الحياة الإنسانية، إذا نظرنا إليها بأمانة وصدق نظرة واقعية، فالذى يحصل على المال قد لا تتوفر له الصحة، والذى يحظى بالحب والنجاح العائلى قد يخونه الحظ فى عمله.. وهكذا.. فالحياة لا تعطى كل شئ لكل إنسان فى كل وقت.

والثابت فى حياة البشر أن المتاعب والمصاعب والمنغصات هى دائما أكثر من مظاهر النجاح والتوفيق، ولكن التوازن يتحقق للناس من خلال كفاحهم وإرادتهم القوية وعرقهم وجهدهم الدائم فى التغلب على ما يواجههم من آلام.. وليس هناك مبالغة إذا قلنا أن التاريخ الإنسانى يتلخص فى جملة واحدة هى: الكفاح المستمر ضد الألم. وما من إنسان مهما بلغت قوته ومكانته فى هذه الدنيا إلا وقد تعرض للألم. ومن المعروف أن الذين وصلوا إلى أعلى درجات القوة والسلطة والمجد، من القياصرة والأباطرة والقادة الفاتحين، من أمثال الاسكندر وقيصر ونابليون وخالد بن الوليد.. هؤلاء جميعا ـ رغم نجاحهم الهائل ـ قد عرفوا من ألوان الألم ما لم يعرفه البشر العاديون، وتعرضوا لأحزان دقيقة جارحة، ولكنهم احتملوها وصبروا عليها، كما أنهم قد تعودوا على الاحتمال والصبر فى أعنف المعارك وأكثرها قسوة.. وهذا هو ما جعل شاعرنا العربى العظيم أبو الطيب المتنبى يقول:

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب

فكل بعيد الهم فيها معذب

والهم هنا معناه: الهمة، والمعنى العام لهذا البيت الجميل واضح وبسيط،، فالشاعر يقول لنا: إن هذه الحياة الدنيا ملعونة، لأن كل صاحب همة عالية وطموح كبير فيها، هو إنسان معذب بهمته وطموحه، ولذلك فهذه الدنيا ليست ـ ولن تكون ـ مكانا للاستقرار بالنسبة لأى "راكب" يريد النزول إلى أرض مريحة سعيدة.

ونعود إلى عنوان هذا الفصل.. وهو "شجاعة الشجاعة"، فالعنوان ليس من عندى، ولكنه عنوان لكتاب جميل من تأليف الكاتبة الأمريكية الكبيرة "دوروثى طومسون" وقد ترجمته إلى العربية ترجمة راقية دقيقة السيدة تماضر توفيق الاعلامية المعروفة والتى كانت رئيسة للتليفزيون المصرى فى السبعينات من القرن الماضى. وأنا أعتمد هنا على الترجمة العربية لهذا الكتاب.

ولعل من المفيد قبل أن ندخل فى صلب موضوعنا أن نشير إلى شخصية "دوروثى طومسون" ببعض الإشارات.. فقد كانت فى الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين أشهر كاتبة فى أمريكا، وهى زوجه للكاتب الروائى الأمريكى المعروف سنكلير لويس "١٨٨٥-١٩٥١ "الحاصل على جائزة نوبل سنة ١٩٣٠، وله العديد من الروايات المهمة منها "الشارع الرئيسى" وهى مترجمة إلى العربية، ومترجمها ـ فيما أذكر ـ هو الدكتور عز الدين إسماعيل.

كان الأمريكان يقولون عن "دوروثى طومسون" إنها "ضمير أمريكا" وذلك لأنها كاتبة أمينة جريئة، لم تتوقف أبدا عن تنبيه مجتمعها إلى أخطائه وعيوبه. وكانت تفعل ذلك دون عنف أو وحشية أو قسوة، بل كانت تفعله بلطف وحنان ونية حسنة واضحة للجميع، مما جعل صوتها مسموعا وجعل نقدها للإنسان الأمريكى مقبولا وقادرا على التأثير فى العقول والقلوب، فالدعوة الجميلة إذا انطلقت على لسان حاقد مسموم فقدت سحرها وتأثيرها حتى لو كان صاحبها على حق، وهذا هو المعنى الرائع الذى نجده فى

القرآن الكريم عندما يقول عن النبى العظيم محمد صلى الله عليه وسلم: "ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك".. فكل "فظ" "غليظ القلب" لن يجد أحدا يستمع إليه، ولن يجد قلبا يتعاطف معه، حتى لو كان ما يقوله هو خلاصة الصواب والحكمة. والأفكار الجميلة والنبيلة لابد لها من أخلاق فى مثل جمالها ونبلها، حتى تستطيع هذه الأفكار أن تعيش وتنتصر.

كانت "دوروثى طومسون" جميلة ونبيلة فى نقدها العنيف للشخصية الأمريكية، ولذلك أحبها الناس وأنصتوا إليها وهى توجه إليهم النقد وتكشف عيوبهم بوضوح، وأطلق عليها الناس باقتناع ومحبة اسم "ضمير أمريكا"، وما أروع أن يصبح الكاتب "ضميرا لأمته" وهذا هو ما وصلت إليه "دوروثى طومسون".

ولنا نحن العرب مع "دوروثى طومسون" قصة مهمة، فقد كان أول لمعان لهذه الكاتبة الكبيرة فى الأربعينات من القرن العشرين، وفى هذه الفترة بالتحديد بدأ الصراع بين العرب وإسرائيل يأخذ شكله العلنى الظاهر، وخاصة بعد إعلان قيام إسرائيل فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨، وما تلا ذلك من حروب بين العرب واليهود، وكانت "أمريكا" تؤيد إسرائيل على طول الخط غير عابئة أو ملتفتة إلى المصالح العربية، ومن المعروف أن رئيس أمريكا فى ذلك الوقت كان "هارى ترومان" وهو صاحب أول وأسوأ قرار فى تاريخ البشرية بتفجير القنبلة الذرية فوق مدينة "هيروشيما" اليابانية فى ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥، وكان من نتيجة ذلك مقتل حوالى مائة ألف

إنسان وإصابة عدد مماثل بجروح خطيرة مع دمار مدينة عامرة عن آخرها، ولم تستطع هذه المدينة أن تبدأ إعادة التعمير فيها إلا بعد خمس سنوات أى فى سنة ١٩٥٠، وكان الرئيس الأمريكى "ترومان" نفسه هو الذى أعترف بإسرائيل بعد "دقيقة واحدة" من إعلان قيامها، ويقال بعد عشر دقائق وهو الذى أخذ موقفا متشددا من العرب، فلم يستمع إلى صراخهم، ولم يقدر مشاكلهم ومعاناتهم بأى صورة من الصور.

فى هذا المناخ الصعب المعادى للعرب فى أمريكا، وقفت الكاتبة "دوروثى طومسون" تدافع عن العرب وتلفت النظر إلى مأساتهم، وتطالب الأمريكان باتخاذ موقف متوازن بين "العرب" و"اليهود" وأنشأت لذلك جمعية أسمتها "أصدقاء الشرق الأوسط" وكانت رئيسة لهذه الجمعية، وظلت الكاتبة الكبيرة من خلال هذه الجمعية تعلن صداقتها للعرب وتأييدها لهم، ولم تكن "الثروة العربية البترولية" قد ظهرت بقوة حتى ذلك الحين، فكان العرب جميعا فى تلك المرحلة: فقراء ومظلومين فى نفس الوقت.

ونعود إلى "شجاعة السعادة" وهو التعبير الذى اختارته "دوروثى طومسون" عنوانا لكتابها، ونتساءل: ماذا تعنى الكاتبة بهذا التعبير؟

لقد اختارت الكاتبة هذا العنوان الجميل من عبارة قرأتها لكاتب إنجليزى غير مشهور اسمه "بيتركينل" وهو كما تقدمه إلينا "دوروثى طومسون": "كاتب يكتب عن الكتاب أنفسهم، ويكتب عنهم بعطف

وبصيرة، كما أنه كاتب ممتع ومحب للكتابة، وقد كرس حياته لإظهار الكتاب المجيدين الذين فاتتهم ـ لسبب أو لآخر- عربة الشهرة وأصبحوا الآن فى طى النسيان".

وقد عثرت الكاتبة على عبارة "شجاعة السعادة" فى كتاب لهذا الكاتب الإنجليزى عنوانه "التفضيل العجيب" وعنوان هذا الكتاب هو نفسه عنوان ظريف له قصة، فهو مقتبس من شخصية "مستر هيرست" فى رواية "الكبرياء والتعصب" للكاتبة الإنجليزية "جين أوستن" (١٧٧٥-١٨١٧) وقد عبر "مستر هيرست" هذا عن دهشته عندما رفضت إحدى السيدات خلال إحدى الحفلات أن تشترك فى اللعب قائلة: أنها تفضل الجلوس إلى كتابها، فسألها "مستر هيرست": أتفضلين الكتاب على لعب الورق؟ إن هذا أمر عجيب!

فالتفضيل العجيب أذن هو: تفضيل قراءة الكتب على لعب الورق..

ثم تقودنا الكاتبة الأمريكية إلى قصة عثورها على عبارة "شجاعة السعادة" فتقول أن أول مقالة فى كتاب "التفضيل العجيب" كانت عن "جوزيف جوبير"، ثم تقول: "وهنا يجدر بى أن أعترف أنى لم أسمع بهذا الكاتب من قبل، وحتى إذا كنت سمعت، فقد نسيت الاسم، وكنت سأنسى بلا جدال هذا الكاتب الفرنسى الذى عاش خلال الثورة الفرنسية وإمبراطورية نابليون، وكتب كثيرا، ولكنه لم يكن راضيا عن كتاباته، حتى أنه قلما أنهى شيئا بداه، ولم ينشر له حرف واحد خلال حياته، لهذا كنت سأنساه مرة ثانية ما

لم أقرأ له فى كتاب "التفضيل العجيب" ما كتبه هذا الكاتب إلى حبيبته الأبدية التى لم تبادله حبا بحب، فقد قال لها فى رسالته تلك: يجب أن يتعلم الإنسان حب الحياة، ويكفينى أن أقول لك أننى لا أستطيع أن أعجب بك وأقدرك كما أريد إلا إذا شاهدت منك أكبر وأجمل مظاهر الشجاعة.. الشجاعة من أجل أن تكونى سعيدة".

ثم تقول "دوروثى طومسون":

"عند هذه الكلمة يحق لى أن أترك "جوبير" ومحبوبته التى لم تظل وفية لعهده، بل وقعت فى غرام صديقه ومنافسه "شاتوبريان"، لأتأمل تعبيره العجيب الفذ وهو "الشجاعة لتسعدى" أو "الشجاعة من أجل أن تكونى سعيدة"، فلم يحدث من قبل أن طافت بذهنى فكرة أن الشخص ليسعد يجب أن تكون عنده الشجاعة الكافية، أو أن السعادة من مظاهر الشجاعة".

ثم تقول الكاتبة الأمريكية أنها تنبهت إلى معنى جديد وصحيح للشجاعة، بعد أن قرأت عبارة الكاتب الفرنسى "جوبير" فى رسالته إلى حبيبته التى لم تبادله الحب، وفضلت عليه أحد أصدقائه المنافسين له، وأسمها "بولين دى بوفونت".

تقول "دوروثى طومسون":

"إن الكاتب الفرنسى جوبير، الذى وصفه مؤرخوه بأنه روح إنسانية نادرة، لم يقف فى وجه الخطر، ولم يظهر أجمل أنواع الشجاعة التى يتغنى بها الناس، كما أننا لا نستطيع اتهام السيدة التى كتب

"جوبير" يؤنبها بأنها تفتقر إلى الشجاعة، فهذه السيدة كانت "شجاعة" بالمعنى التقليدى للكلمة، وليس بالمعنى الذى يقصده حبيبها "جوبير" فهى سيدة ولدت فى بيئة ارستقراطية من الطبقة الحاكمة فى فرنسا، وكانت قد فقدت بعد الثورة الفرنسية "١٧٨٩" عائلتها وأصدقاءها وبيتها، فقد قتل أبوها فى إحدى مذابح الثورة، وهى المذبحة المعروفة باسم "مذبحة سبتمبر" كما أعدمت أمها قبل ذلك على حد المقصلة المعروفة باسم "الجيلوتين"، وكذا شقيقها. وعندما قابلها "جوبير" لأول مرة، كانت تجلس وحيدة يائسة أمام كوخ أحد الفلاحين، وقد منعتها ارستقراطية مولدها وصفاتها الطبيعية من شكوى بؤسها وأحزانها، فلم تتذمر من حالها، بل سلكت سلوكا آخر مليئا بالشجاعة والصمود وكظم الغيظ والألم. ولكن كل هذه الصفات ليست من مرادفات الشجاعة. وإن كانت من علاماتها، فالسيدة، كما رأينا من الرسالة التى كتبها "جوبير" إليها قد فقدت إيمانها بالحياة، ولمْ تعد تحب الحياة وإذا كان وجهها يحمل مظاهر الشجاعة، فإن ذلك لا يعنى شيئا، ولذا وجد صديقها أن لزاما عليه أن يلهمها ويعيد إليها حب الحياة. ويبث فيها الشجاعة الحقيقية".

فالشجاعة إذن ليست هى مجرد التغلب على الخطر والبؤس والخوف والظلم، بل إن الشجاعة تكمن فى محاولة الإنسان أن يؤكد لنفسه أن الحياة رغم ما فيها من آلام وأوجاع، هى حلوة وتستحق أن نحياها، وأن كل شئ فيها له مغزى، حتى لو كان هذا المغزى

غائبا عن فهمنا، وأن هناك دائما "غدا" سوف يأتى بعد اليوم الذى نعيش فيه، وهذه العقيدة نجدها فى كثير من الأحياء جزءا.

"وقد عبر "جوبير" عن الشجاعة من أجل السعادة، أو شجاعة السعادة، بأنها أجمل مظاهر هذه الفضيلة الكبرى وهى فضيلة "حب الحياة"، والواقع أن هذه الفضيلة تجعل ممن يتحلى بها جميلا ورائعا، وهى فضيلة تساعد الإنسان على المرح والفرح، ولا تجعله يتطلب أو يحتاج إلى الشفقة من الآخرين".

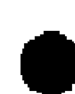
ثم تقودنا "دوروثى طومسون" إلى تحديد أكثر دقة لمعنى الشجاعة فى هذا الفهم الجديد لها، فتقول إنها الشجاعة النابعة من القلب، وليس من "العقل أو العضلات" وأنها تعنى الروح فى اسمى مظاهرها، وكلمة "الشجاعة" فى اللغة الفرنسية مستمدة من كلمة "كور" أى "القلب". ثم تستعير الكاتبة قولين حكيمين لبعض المفكرين الفلاسفة، وفى القول الأول نقرأ أن "الاعتدال وحضور البديهة حين الخطر يعتبران من أعلى مظاهر الشجاعة، وفى القول الثانى نقرأ دعاء أحد المفكرين لله وهو يصلى بأن يمنحه "الهدوء حتى يتذكر، والشجاعة حتى ينسى".. لأن الإنسان لا يمكنه "أن يسعد إذا كان لا يزال يحمل فى قلبه ضغينة أو حقدا أو إساءة، وأجمل مظاهر الشجاعة يتطلب التسامح حتى ننسى ذلك كله".

ثم تقول الكاتبة الأمريكية: ما هى السعادة؟.. مما لا شك فيه أنها ليست السرور، وأن بدا أن بعض الناس يظنون ذلك.. ولا يسعنى إلا أن أعتقد أن السعادة إنما هى شعور بالعرفان للحياة

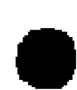
وتجاه الحياة لا يهدأ ولا يخبو حتى فى أحلك الظروف، لأنه فى الواقع لا توجد ظروف يمكن أن تمحو تماما أو تقف حائلا دون الاعتراف بجمال الحياة وجمال ما فيها من ذكريات، فالسعادة أذن تبدو تعبيرا صادقا عن العقيدة التى تفرض على الإنسان واجب التفاؤل والبهجة.. والمرح".

ثم تقول الكاتبة:

"ومن منا لا يرى حوله أشخاصا يمارسون هذا النوع من الشجاعة.. شجاعة السعادة؟.. أنه نوع نراه فى الأفراد البسطاء ذوى الموارد الضئيلة، أكثر مما نراه فى الطبقات المتعلمة الغنية المعقدة، وكثيرا ما نتساءل كيف يتحمل هؤلاء البسطاء أحوالهم ومصائبهم وخيبة آمالهم وعدم استقرارهم الاقتصادى، ونحن كثيرا ما نرى فى العائلات التى يحب أفرادها بعضهم بعضا، قدرة تفوق كل هذه الآلام، وتمتص كل ما يصيبها من فشل أو خيبة أمل، كما نراهم لا يفقدون الأمل أبدا، وهناك أرواح جميلة تقبل السعادة النابعة من أشياء بسيطة مثل سطوع الشمس، أو لأن جارا لها قال كلمة ود وترحيب بها، أو لأنها سمعت الضحكة البريئة التى يطلقها طفل من الأطفال.. كل هؤلاء الناس لا يظهرون أمامنا بمظهر الأبطال، وقد يتهمهم البعض بأنهم دائما مرحون لا يلقون بالا إلى متاعب الدنيا وآلامها.. ولكنهم فى الواقع هم الذين يعطون طعما ومذاقا للمجتمع البشرى وكلنا نشعر بذلك حتى دون أن نفهمه".



تلك هى فكرة الكاتبة الأمريكية عن "شجاعة السعادة" فالسعادة لا يمكن أن تتحقق للإنسان بالحظ والصدفة، إذ لابد من العمل والإرادة القوية والصبر الشديد على متاعب الحياة ومنغصاتها، حتى نحصل على السعادة. والسعادة فى جوهرها هى المحافظة فى نفوسنا على الشعور الصادق المتوهج بمحبة الحياة، ما دمنا نبذل جهدنا إلى أقصاه، وقد تأتى النتائج بعد ذلك بغير ما نريد ونتمنى، ولكن لا يد لنا فى ذلك ولا لوم علينا، وهنا تظهر الفكرة الأساسية من وراء هذه العبارة الجميلة وهى "شجاعة السعادة"، فما يصيبنا فى هذه الدنيا بعد أن نبذل كل جهدنا، ونستخدم كل إرادتنا، ونتخلص من التشاؤم الذى يقعدنا عن التقدم والنهوض والصبر على المتاعب.. ما يصيبنا بعد ذلك كله لا يجوز أبدا أن يفقدنا إحساسنا بجمال الحياة وبهجتها حتى فى أبسط مظاهرها وأقلها شأنا.



وما زلت أذكر هنا حديثا دار بينى وبين المفكر الكبير الراحل جمال حمدان صاحب كتاب "شخصية مصر"، وكنت قد استطعت ــ بصعوبة شديدة ــ أن أحصل منه على إذن بزيارته فى بيته "بالدقى"، وهو البيت الذى مات فيه محترقا، وكان عند وفاته فى الخامسة والستين.. سألت جمال حمدان فى هذا اللقاء عن سر عزلته واعتكافه بعيدا عن الناس، فقال لى فى سرعة وفى غير تردد: أسمع.. انا وأنت الآن نجلس فى هذا الصالون المتواضع،

نحتسى الشاى ونتبادل أحاديثا هادئة.. وأنا أشعر بالسعادة وأرجو أن تكون أنت أيضا سعيدا بذلك.. ماذا يمكن أن يحصل عليه "مليونير" مثل "روكفلر" من السعادة أكثر مما نحصل عليه أنا وأنت الآن؟.. أن إقصى معنى للسعادة الحقيقية عند هذا المليونير هو أن يجلس فى حديقة بيته على كرسى بسيط مريح مع شخص يحبه ويتفاهم معه وهما يحتسبان أكواب الشاى كما نفعل الآن.

فالسعادة عند جمال حمدان هى شعور نابع من النفس دون أى تعقيد، وصاحب الإمكانيات المادية الكبيرة والعلاقات الاجتماعية الواسعة سوف يبحث لنفسه دائما عن لحظة حقيقية وبسيطة تعطيه هذه السعادة بعيدا عن كل المظاهر البراقة المتوفرة له.

وفكرة جمال حمدان عن السعادة قريبة جدا من فكرة الكاتبة الأمريكية، فالسعادة تحتاج إلى شجاعة فى البحث عنها، وإلى شجاعه فى اتخاذ القرارات المناسبة التى لا تسبب لنا الشقاء أو القلق أو الاضطراب، وأهم من ذلك كله، أن "شجاعة السعادة" تستطيع أن تمنحنا "بصيرة قوية" نرى بها جمال الحياة فى أبسط الأشياء، وفى أقل مظاهرها بريقا، وهذا هو وحده ما يجعلنا نتحمل الآلام ونصبر عليها، ما دمنا قد اجتهدنا وبذلنا أفضل ما لدينا ولم يكن لنا يد فيما قد أصابنا، وبذلك تتحقق لنا "شجاعة السعادة".

ولابد أن ينتبه الإنسان إلى أن "شجاعة السعادة" لا تعنى بأى صورة من الصور أن نكون كسالى وخاملين، بل لابد أن نكون جادين نشيطين فى معركة الحياة، وأن نكون قادرين على أن نزيل أى غبار

أو صدأ يصيب مشاعرنا وإحساسنا بالجمال، فشجاعة السعادة تعنى التنبه، وأداء ما علينا من واجبات، مثلما تعنى الصبر والقدرة على الاحتمال.



ولعل الكاتبة الأمريكية الكبيرة تكون قد أقنعتنا بأن "السعادة" تحتاج إلى "الشجاعة" أو على الأصح فأن السعادة فى جوهرها شجاعة، ولا يمكن أن يحصل على السعادة شخص مذعور، دائم القلق والخوف، غير راض عن شئ، وغر مقتنع بشئ، يمتلئ قلبه بالحقد والتطلع إلى ما فى أيدى الآخرين، ولا يكف عن "الحسرة" على نفسه لأنه أقل من غيره، والسعداء هم الشجعان، والذين يدركون أن لكل إنسان فى هذه الدنيا دورا يؤديه، وكل دور فى الحياة له قيمته وأهميته، حتى لو كان دوراً بسيطاً وبعيداً عن كل الأضواء.

امرأة لا تعرف البكاء

أسهل شئ فى هذه الدنيا هو أن يبكى الإنسان كلما واجهته مشكلة صعبة، والبكاء مريح ولا شك، لأنه يخفف كثيرا من النيران التى تشتعل فى النفوس عند الغضب أو اليأس أو عند الاصطدام بأمر لا حيلة لنا أمامه، وفى هذه الحدود المعنوية فإن البكاء مفيد، ولكن البكاء بعد أن يعطينا راحة مؤقته محدودة يبدو عديم الفائدة فى معارك الحياة الحقيقية، فليس من المفيد أن نستمر فى البكاء عندما نتألم، ولكن المفيد حقا هو أن نفكر ونجتهد حتى نتوصل إلى شئ نتمسك به ويساعدنا على مواصلة الحياة رغم المتاعب والمنغصات. أما الذين يواصلون البكاء بصورة مستمرة فإنهم لن يجدوا حلا حقيقيا لما يعانون منه، بل إنهم على العكس سوف يضيفون جديدا إلى حجم مشاكلهم ويضاعفون هذه المشاكل. وليس مطلوبا من الإنسان أن يتوقف عن البكاء. فالبكاء حالة

إنسانية طبيعية.. وما دامت الحياة لا تخلو من الآلام فمن المنطقى أيضا أنها لن تخلو من البكاء. ولكن المطلوب من الإنسان هو أن يسيطر على دموعه. وأن يبنى لها سدا عاليا يمنعها من الفيضان المستمر وما يترتب عليه من فوضى واضطراب.

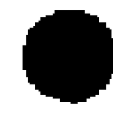
والذين تعودوا على البكاء الدائم والشكوى المستمرة قد يثيرون تعاطف الناس لبعض الوقت. ولكن الناس ـ فى العادة – ينظرون إلى الباكين الشاكين على أنهم ضعفاء، وسرعان ما ينصرفون عنهم ويتركونهم يغرقون وحدهم فى دموعهم. وهذا الأمر ليس صحيحا بالنسبة للأفراد وحدهم، ولكنه صحيح أيضا بالنسبة للجماعات والشعوب، ولو ألقينا نظرة سريعة على تاريخ الإنسانية، لما وجدنا شعبا واحدا استطاع أن يحقق أهدافه ويحمى مصالحه ويصون نفسه بالشكوى والبكاء. فالألمان عندما انهارت بلادهم وأصابها الدمار الشامل فى الحرب العالمية الثانية أحسوا بالحزن وذرفوا دموعا غزيرة، ولكنهم أوقفوا ذلك بسرعة، لأنهم كانوا يدركون أن منطق الحياة لا يسمح بالاستمرار فى إظهار الضعف والاستسلام للأحزان، فقاموا من تحت أنقاض الدمار الهائل الذى أصابهم ليعيدوا بناء حياتهم من جديد، ومسحوا دموعهم. وبدلا منها بدأ العرق يسيل من جباههم، وأخذوا يعملون طيلة الليل والنهار، والآن وبعد ما يقرب من ستين سنة مما أصابهم أصبحوا من أقوى شعوب أوروبا، بل من أقوى شعوب العالم، وأصبح متوسط الدخل الفردى فى ألمانيا أعلى منه فى البلاد التى انتصرت فى الحرب على الألمان مثل إنجلترا وفرنسا. والنموذج الآخر، وهو نموذج شائع

ومعروف، وهو نموذج اليابان. فقد ضربتها أمريكا بقنبلتين ذريتين فى أغسطس سنة ١٩٤٥، وأصابت القنبلتان مدينتين كبيرتين هما: هيروشيما فى ٦ أغسطس، ونجازاكى فى ٩ أغسطس من ذلك العام، وراح ضحية القنبلتين فى لحظات مائة ألف فى هيروشيما وأربعون ألفا على الأقل فى نجازاكى، وتعرضت المدينتان لدمار غير محدود. وتصور الناس أن القيامة فيهما قد قامت، وأن العالم قد وصل إلى لحظة النهاية، ومع هذه الأهوال فقد أفاقت اليابان من أحزانها، وعبرت بحر الدموع، وخرجت إلى شاطئ العمل المنتظم والجهاد المستمر، وبعد ما يقرب من ستين سنة مرت على مأساة القنبلتين الذريتين أصبحت اليابان الآن أغنى بلد فى العالم وأصبح الدخل الفردى فيها حوالى ٢٧ ألف دولار فى العام، هو أعلى دخل فردى فى بلاد الدنيا جميعا بما فى ذلك أمريكا نفسها.

فالقاعدة السليمة فى حياة الإنسانية، ليست هى مواجهة المشاكل باليأس والدموع، ولكن القاعدة الأكثر صوابا ونجاحا هى مواجهة التحدى بالعمل والجهد والصبر على الشدائد حتى تنتهى وتزول.

ومن الأفكار الشائعة، والتى تحتاج إلى مراجعة وإعادة نظر، أن دموع المرأة أقرب من دموع الرجل، وهذا صحيح، ولكن ذلك ليس دليلا على ضعف المرأة وعدم قدرتها على التحمل، فالمرأة لديها كل الإمكانيات على احتمال الآلام مثلها مثل الرجل، وربما كانت قدرة المرأة على ذلك أكبر، لأنها تعرف آلام الولادة التى لا يعرفها

الرجال والذين نشأوا نشأتهم الأولى فى الريف المصرى مثلى يعرفون نماذج كثيرة من النساء اللواتى تحملن مشقات فى الحياة بصورة ينوء باحتمالها أشجع الرجال، وأنا أعرف امرأة من هؤلاء، كانت تمت لى بصلة القرابة، مات زوجها العامل وهى فى عز شبابها، ولم يترك لها مالا ولا حتى معاشا، لأنه مات فى الأربعينات من القرن الماضى قبل أن نعرف نظام التأمينات، وكانت هذه المرأة جميلة وذكية رغم أنها كانت أمية، وقد تقدم العديدون للزواج منها ولكنها رفضت ذلك، لأنها كانت أما لثلاثة أطفال، وقد أصرت على تعليم أبنائها حتى النهاية، وجلست وراء ماكينة "الخياطة" ما يزيد على ربع قرن كامل، وكانت تعمل طيلة النهار وساعات طويلة من الليل، واستطاعت فى النهاية أن تحقق ما أرادت، فتعلم أبناؤها حتى أتموا تعليمهم الجامعى، ونجحوا فى حياتهم وتجاوزوا نتائج المأساة التى كانت تهددهم بالخطر، وهى مأساة الموت المبكر للأب. وقد عاشت هذه السيدة حتى بلغت الثمانين، وكنت كلما جلست إليها أشعر دائما بأنها مرفوعة الرأس، وبأنها لم تستسلم أبدا لليأس، ورغم أنها لم تقرأ كتابا فى حياتها إلا أننى وأنا أتحدث معها كنت أشعر أن لديها زادا وفيرا ورائعا من ثقافة الحياة، فكنت أستمتع بالحديث معها وأستفيد من حكمتها فائدة كبيرة، وكأنها متخرجة من لندن أو باريس.



تحدثنا الكاتبة الأمريكية "دوروثى طومسون" فى كتابها شجاعة السعادة "ترجمة السيدة تماضر توفيق" عن صديقة نمساوية لها

وتقول عن هذه الصديقة إنها لم تكن تعرف الدموع "لأنها كانت تملك أجمل مظاهر الشجاعة، فقد كانت ترقد على فراش المرض فى سويسرا عندما ذهبت لزيارتها، وهى سيدة معروفة فى أوروبا كلها بأياديها البيضاء، فقد كانت أول من عمل بعد الحرب العالمية الأولى فى مساعدة الأطفال النمساويين والألمان من ضحايا الحرب بنقلهم إلى البلاد المحايدة كالسويد والنرويج وسويسرا حيث تبنتهم العائلات المختلفة ومنحتهم الحب والغذاء والكساء، كما عملت على إيواء اللاجئين بما تملك من مال، وبما استطاعت أن تجمعه من أموال الآخرين. وعندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية ودخل هتلر النمسا كانت هذه السيدة فى كوبنهاجن بالدانمارك، حيث أجريت لها عملية استئصال للسرطان الذى أصابها فى ثديها، وتم إبلاغها بأن هتلر قد صادر كل أملاكها فى النمسا، وأنها لا تستطيع العودة إلى بلدها، ولكنها تحاملت على نفسها وغادرت فراش المرض وجرحها لم يلتئم بعد وذهبت إلى باريس لتساعد اللاجئين النازحين إليها من النمسا. ولكن المرض لم يرحمها وامتد إلى عظامها فأصبحت أقرب إلى الموت منها إلى الحياة. وعندما جلست بجانبها انتظرت أن أرى امرأة باكية مشفقة على نفسها ملأتها المرارة بعدما قامت به من الأعمال المجيدة على مدى نصف قرن. وأخبرنى أصدقاؤها أنها لا تعلم ما بها، وأن طبيبها أخبرها أن مرضها ليس سرطانا ولكنه التهاب فى المفاصل، وبمجرد أن تركنى هؤلاء الأصدقاء وحيدة معها أيقنت أنها هى الأخرى تخدعهم حتى لا تفسد عليهم خدعتهم، وقد

تركتهم يظنون أنها لا تعلم شيئا عن مرضها الخطير، وقد نظرت إلى هذه الصديقة وقالت لى: إننى أعلم أننى فى عداد الموتى، وأنى لن أراك ثانية بعد أن تغادرى هذا المكان، ولكنى أشكرك على مجيئك لزيارتى".

ثم تقول الكاتبة الأمريكية:

"كنت منذ أن عرفت هذه المرأة أعرف أنها سيدة ذكية مليئة بالعطف والنشاط إلى أبعد الحدود، ولكن المرأة التى جلست إلى جانبها وحادثتها فى الفترات القليلة التى كانت تفيق فيها من تأثير المخدر كانت "قديسة". لم أر جلالا ورهبة وجمالا كما رأيت ذلك كله فى وجه هذه المرأة وهى على أبواب النهاية. وكنت أنوى بزيارتى لها أن أواسيها بقدر ما أستطيع على أنى كنت فى الوقت ذاته ـ وكانت الحرب العالمية الثانية لا تزال مشتعلة ـ أحس بمرارة شديدة لأنى كنت أحب ألمانيا، ثم إنى كرهت ألمانيا بعد أن تغير وجهها بالعدوان الوحشى على الآخرين، ولكن هذه السيدة حاولت أن تزيل مرارتى... مرة بالتأنيب، ومرة أخرى بالمرح، ولم يبد على وجهها بادرة واحدة للغضب، بل قالت: لقد فقدت ألمانيا عقلها، وقد حدث هذا من قبل. إنها نوبة من نوبات الجنون الألمانى سوف تنقضى.ولكن عليك ألا تسلمى نفسك لشعور الكراهية، لأنه إذا كره الجميع فسوف تزداد الكوارث ولن تنتهى. ولابد أن يكون هناك مجموعة لا تعرف الكراهية بل تكافح ضدها، لأن الكراهية تحول دون إعادة الأمور إلى طبيعتها، والأمور يجب أن تعود إلى طبيعتها، والناس يتغيرون، وأنا أؤكد لك أنهم يتغيرون. حاربى

النازية وكافحيها، ولكن لا تتخلى عن الأمل، ولا تكرهى الألمان. ووجدت أن كل ما مر بهذه المرأة أو ببلدها لم يهز عقيدتها الإنسانية، ولا إيمانها بشعوب البشرية جمعاء..".

وتخرج الكاتبة الأمريكية بعد ذلك من هذه القصة الإنسانية الواقعية بحكمة عامة فتقول: "إنى أورد قصة هذه المرأة كمثال نادر للشجاعة والقدرة على السعادة. وأنا واثقة أنه لا يوجد كثيرون من أمثالها. وقد يكون من السهل أن يتكلم الإنسان وهو يواجه الموت كما تكلمت هذه السيدة، ولكن ليس من السهل أن يتكلم بنفس الطريقة وهو يمر بالحياة ومراحلها المختلفة، فالإنسان أشجع فى وجه المصائب، ولكنه كثيرا ما يفقد شجاعته عندما يواجه خيبة أمل طفيفة فى الحياة. ولكن من منا لا يرى أمامه أشخاصا يواجهون هذا النوع من الشجاعة، وهو نوع نراه فى الأفراد البسطاء ذوى الموارد الضئيلة، أكثر مما نراه فى الطبقات المتعلمة الغنية المعقدة المتمدنية. وكثيرا ما نتساءل: كيف يتحمل هؤلاء البسطاء أحوالهم ومصائبهم وعدم استقرارهم الاقتصادى؟، أو كيف يتحمل شخص أن يرى أمامه إبنا مشوها أو معتوها؟، وكيف يتحمل البعض سوء حظهم وخيبة آمالهم وضياع مساعيهم فى الحياة؟. إننا نرى أمثال هؤلاء ونرى أنهم لا يفقدون الأمل أبدا. وهناك أرواح تقبل السعادة لأسباب بسيطة مثل: أن تكون الشمس ساطعة، أو أن تسمع كلمة ترحيب بها من جار لها، أو لأنها سمعت الضحكة البريئة التى يطلقها أحد الأطفال".

تلك هى الصورة الحية التى ترسمها الكاتبة الأمريكية "دوروثى طومسون" فى كتابها "شجاعة السعادة" لصديقتها التى لم تعرف البكاء فى أشد المصائب والمحن، وأخطرها جميعا محنة المرض الذى حاصرها ولم تستطع أن تنجو منه، ولكنها مع ذلك حافظت بإرادتها على روحها المعنوية، وعلى إيمانها بالأمل فى مستقبل الإنسان والحياة، ولم تتوقف عن بذل جهدها لمساعدة الآخرين كلما كانت قادرة على ذلك، ورفضت السماح لشعور الكراهية أن يسيطر عليها، فالكراهية مرض مدمر للنفس ومدمر للحياة. وأجمل ما فى هذه المرأة أنها رفضت أن تغرق فى بحر من الدموع، رغم أن كل الظروف من حولها كانت تبرر لها ذلك وتغريها بأن تبكى ولا تكف عن البكاء ولكنها بدلا من ذلك أخذت تعمل وتقاوم وتبعث الأمل والإيمان بالحياة فى كل من يعيشون حولها. وظلت على هذه الحالة المعنوية العالية حتى النهاية.

إن الذى تمتلئ نفسه بالكراهية سوف يعيش فى ظلام دائم ولن يرى فى نفسه أو فى حياته شعاعا واحدا من النور.

والذى يستسهل البكاء كلما واجهته محنة أو خاب أمله فى شئ فسوف يغرق فى بحر دموعه ولن يصل إلى شاطئ النجاة.

أما الذين يصبرون ويتدربون على الأمل والعمل والتحكم فى دموعهم واحتمال خسائرهم التى ليس لهم فيها يد ولا حيلة، فهم وحدهم الذين سوف تمتلئ حياتهم بالنور، وهم وحدهم الذين سوف يشعرون بسعادة حقيقية نابعة من أنفسهم، وهم القادرون ــ فى

رضـاء تام ــ على الاستغناء عما لا يحتاجون إليه ولا يقدرون عليه، كل ذلك دون أن يصيبهم ندم أو حسرة أو إشفاق على النفس.

العزف على الناى

من العيوب الظاهرة للحضارة الحديثة أنها شغلت الإنسان، وجعلت البرنامج اليومى للفرد مشحونا بدرجة لا تتيح له فرصة ولو محدودة للتفكير والتأمل. فأين هو وقت الفراغ الذى يتيح لنا مثل هذه الفرصة؟ الكل يجرى وراء رزقه، أو يحمل فى عقله وقلبه همومه الخاصة، أو هموم عائلته وأهله والقريبين منه، وقد زادت مطالب الحياة واتسعت وأصبح ما كان يكفى الإنسان فى الماضى شهرين أو ثلاثة أشهر لا يكاد يكفى الفرد فى يوم واحد، وكان فى حياة كل إنسان من الناحية المعنوية متسع لغيره، فكان الإنسان يعطى وقتا مناسبا لأهله وأصدقائه، وكثيرا ما كان الناس يتبادلون المساعدات دون عناء أو تعب، لكننا لو تساءلنا الآن هل يستطيع الإنسان فى حضارتنا الحديثة أن يجد فى حياته مساحة كافية يعطيها للآخرين! لكانت الإجابة سلبية، لأن ازدحام برنامج الحياة

الإنسانية بالمشاغل والهموم قد قضى على هذه المساحة الضرورية للحياة الإنسانية.

فى العصر الذى تجرى الأيام كأنها صاروخ يعبر الفضاء فى دقائق معدودات، وقد أصبح الإنسان يشعر بقدر كبير من الإحساس بأنه وحيد، وهو يحاول دائما أن يبتعد عن الآخرين ويحمى نفسه من الاصطدام بهم والصراع معهم، وقليلا ما يسمح الإنسان لنفسه بأن يعقد علاقات حميمة مع غيره، لأن مثل هذه العلاقات الحميمة هى مسئولية صعبة وعسيرة قد لا يتحملها الإنسان، وقد لا يجد لديه من الوقت والجهد ما يساعده على إقامة مثل هذه العلاقة الخالصة من أى نفع أو مصلحة.

والغريب أن الطب الحديث قد حقق تقدما كبيرا لم تعرفه البشرية من قبل، وأدى ذلك إلى أن يصبح متوسط عمر الإنسان أعلى مما كان عليه فى أى عصر سابق، وهناك دلائل قوية على أن متوسط عمر الإنسان فى زيادة مستمرة، فمن الثابت الآن أن متوسط عمر الإنسان سوف يصل إلى مائة سنة أو أكثر خلال السنوات الخمسين المقبلة. ومع هذا التقدم المثير فى متوسط العمر الإنسانى فإن ذلك لم يجعل الناس يحسون بقيمة ما تحقق من نجاح فى إطالة العمر. فهناك إحساس عام بأن الأيام تجرى بسرعة شديدة، ولعل الإنسان فى تاريخه كله لم يشعر بأن الحياة قصيرة جدا كما يشعر بذلك الآن بعد أن تحققت الوسائل القادرة على إطالة عمر الإنسان عما كان عليه فى أى عصر سابق، وهذا التناقض هو سبب للقلق الكبير الذى يملأ الحياة الحديثة. على أن

هذه الحضارة الإنسانية لديها فضيلة أساسية هى فضيلة الصراحة والاعتراف بالحقائق وعدم إخفائها، لذلك فهناك اعتراف عالمى بظاهرة "القلق" وما يترتب عليها من نتائج سلبية وإنحرافات متعددة فى سلوك الإنسان، وفى مجتمع مثل المجتمع الأمريكى أصبح "الطب النفسى" فى مقدمة فروع الطب المختلفة، بعد أن كان "الطب النفسى" فرعا من فروع علم نظرى هو "علم النفس"، فلقد اختلف وضع الطب النفسى الآن تماما، وأصبح "الطبيب النفسى" ضرورة أساسية، وأصبحت كل أسرة أمريكية تعتبر اللجوء إلى الطبيب النفسى أمرا طبيعيا إذا ما تعرض أحد أفراد الأسرة لمشكلة تسبب له الارتباك والقلق، وأصبح وجود الطبيب النفسى ضروريا فى الجيش وأجهزة الشرطة وكل المؤسسات التى يعمل بها عدد كبير من الأفراد.

وليس من المبالغة أن نقول إن "الطبيب النفسى" هو الطبيب رقم واحد فى المجتمع الأمريكى الآن، ولعل ذلك هو السائد فى المجتمعات الغربية المتقدمة جميعا فى الوقت الحاضر، وازدهار الطب النفسى بهذه الصورة الكبيرة هو دليل قوى على اعتراف الحضارة الحديثة بأن القلق وما ينتج عنه من اكتئاب وأمراض نفسية وعضوية كثيرة، هو مرض العصر الأول والأخطر قبل الإيدز والسرطان وغيرهما من الأمراض المستعصية.

ومن الناحية العملية نستطيع أن نقول إن الطب النفسى هو تطور إيجابى ومحتوم لما كان سائدا فى العصور الماضية من

شعوذة وسحر ودجل وتنجيم وغير ذلك. فالإنسان القديم كان يتعرض للقلق أيضا، لكن بنسبة أقل بكثير مما يتعرض له الإنسان فى العصر الحاضر.

وفى الماضى كان السحر والشعوذة وما يشبههما هو الحل، أما الآن وبعد التقدم العلمى الإيجابى الكبير فقد أصبح "الطب النفسى" هو سيد الموقف، فالطب النفسى يعتبر القلق والاكتئاب والاضطراب والخوف من الحياة والناس وغير ذلك من الظواهر كلها أمور لها أسبابها الدقيقة فى جسم الإنسان وأحوال حياته، وأن السيطرة على هذه الظواهر السلبية بالعلم، أى بالطب النفسى أصبحت من الأمور الممكنة.

ولا يستطيع أى إنسان مهما كانت حياته مستقرة أن ينكر أنه يتعرض لموجات من القلق والإكتئاب، ولكن البعض يعالجون أنفسهم بأنفسهم، فهم يبذلون جهدا لكى يكونوا "أطباء نفسيين" لأشخاصهم، ومن ينجح فى علاج نفسه وتهدئة قلقه واكتئابه، يكون قد حقق شيئا مهما فى حياته ونجا من الوقوع فى حفرة اليأس والإحباط، ولكن الذين يستطيعون أن يكونوا "أطباء أنفسهم" هم فى النهاية نسبة محدودة من الذين يعانون من مرض العصر وهو "القلق" بمظاهره المختلفة، من الأرق وقلة النوم إلى الاكتئاب والعجز عن إقامة علاقات سليمة مع الآخرين، إلى الشعور بالإحباط وعدم القدرة على تحقيق ما كان يطمح الإنسان إلى تحقيقه فى حياته.



أذكر فى هذا المجال أننى التقيت فى مناسبة عامة منذ سنوات بسيدة فاضلة لم تصل إلى الأربعين. وكانت هذه السيدة فى مظهرها أنيقة رشيقة وعلى قدر كبير من الجمال وصحة الجسم، وعرفت من حديثها أنها مستقرة فى حياتها العائلية، فهى متزوجة وأم، وكان أبوها من رجال الحياة العامة البارزين، وهى تعمل فى وظيفة محترمة، وعندها اهتمام جيد بالثقافة العامة، مما أوحى لى بأن شخصيتها متكاملة، وأنها لا تشكو من شئ. ولكننى فوجئت بهذه السيدة تقول لى فى حياء شديد: هل تعلم أننى أعانى من اكتئاب "مزمن" وأننى أتردد بانتظام على "الطبيب النفسى" وأتناول دواء يوميا مستمرا لعلاج الاكتئاب، وأننى أعيش فى هذه الحالة منذ سنوات، وأظن أننى سأظل كذلك إلى النهاية؟!

لم يكن فى حياة هذه السيدة ما تشكو منه فى الظاهر، لكنه مرض العصر، وهو القلق، وهذا المرض لا تفلت منه حتى "النفوس السليمة"، فقد أصبح فى انتشاره مثل "الزكام" الذى يمكن أن يتعرض له الجميع، حتى أصحاب الأجسام القوية الصحيحة.

كيف يتصرف الإنسان فى هذه "الدوامة العصرية" وكيف ينجو منها؟ كيف يحقق الإنسان لنفسه ذلك بالسعادة، فبدون هذا القدر ــ ولو كان قليلا ــ لا يمكن أن تستقيم الحياة.

هناك عبارة جميلة لمفكر عالمى لا أذكر اسمه، ولكننى أحفظ فى ذاكرتى كلماته، حيث يقول هذا المفكر: "إن السعادة شئ يحتاج إلى التدريب والمران.. كالعزف على الناى".

كلمات جميلة وصادقة: فالسعادة والخلاص من القلق لا يهبطان على الإنسان من المجهول، بل هما شئ يحتاج إلى التدريب والمران مثل العزف على الناى، لا يمكن لأحد أن يتقنه إلا إذا تدرب عليه وأجرى تمرينات متصلة تمكنه فى النهاية من إتقان العزف على الناى.

ومعنى ذلك أن السعادة هى قرار يتخذه الإنسان بنفسه. ويجتهد فى تحقيقه ويدرب عليه نفسه باستمرار.

ونخرج من هذا الحديث النظرى لنقف أمام تجربتين إنسانيتين، أعتقد أن فيهما كثيرا مما يمكن أن يضع أيدينا على هذا المعنى الجميل، وهو أن السعادة تحتاج إلى التدريب والمران والإرادة مثل العزف على الناى. فالإنسان يستطيع السيطرة على الأزمات التى يتعرض لها لو استخدم إرادته، ثم انتبه بعد ذلك وخاصة فى المواقف الصعبة إلى لغة القلب.

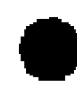
التجربة الأولى يرويها "لويس هوسكنز"، وهو أستاذ جامعى أمريكى تطوع للعمل فى الصين بين سنة ١٩٤٥ و ١٩٤٨، وكان ذلك فى فترة الحرب الأهلية بين الشيوعيين وأعدائهم من أنصار "شيانج كاى شيك". وكان "هوسكنز" يدير إحدى المستشفيات المتنقلة التى تعالج المصابين من الجانبين، وقد اعترف الجانبان بشرعية هذا العمل، لأنه عمل إنسانى بعيد عن السياسة. ولكن هذا الرجل النبيل وقع يوما فى مأزق كاد يقضى على حياته. وقد نجا من هذا المأزق بطريقة عجيبة، حيث يقول كما جاء فى كتاب (علمتنى الحياة) سلسلة كتاب الهلال. أكتوبر ١٩٥٢:

"حدثت لى فى عملى بالصين مغامرة عجيبة، ونجوت منها بأعجوبة أيضا، فقد كان يتعين علينا فى وحدتنا الصحية أن نفاوض السلطات الشيوعية لتوفير أسباب العلاج فى المنطقة التى تدور فيها رحى الحرب. وهنا وصلنا إلى منطقة متنازع عليها. وإذا بجندى شيوعى يقبض على وعلى عضو صينى يعمل معى فى الوحدة الصحية. كان هذا الجندى صبيا لم يتجاوز الرابعة عشرة، وكنت حينئذ على بينة من الفوارق التى تفصل بينى وبين هذا الجندى، وهى فوارق فى القومية والجنس واللغة، بالإضافة إلى فوارق أخرى غير طبيعية، هى وليدة الحرب السياسية والنفسية، وهى حرب تخلق الكراهية والريبة والخوف فى النفوس. لقد كنت بالنسبة لهذا الجندى الشاب شخصا أمريكيا يمثل الدولة التى أقتنع الجندى بأنها عدو وطنه، ومع أنى لم أ كن مسلحا فى ذلك الوقت، إلا أنى كنت معرضا لمجرد أننى أمريكى للاتهام بالخديعة والكذب والتآمر".

"طال الحديث بيننا برهة من الزمن، وأخيرا سمح الجندى الشيوعى لزميلى الصينى بالعودة إلى وحدتنا الصحية، ولكنه قبض علىّ وحدى كأسير، ومرت بينى وبين هذا الجندى الصينى فترة عشرين دقيقة، وهو هائج مستعد بسلاحه لإطلاق الرصاص على صدرى فى أى لحظة. وحاولت من جانبى أن أنفذ إلى أعماق روحه الطيبة وإلى منابع الخير فى هذه النفس، متوسلا إلى ذلك بسلطان المودة والصداقة، وبينما أنا أتحدث إليه وأنا فى حالة جزع بالغ باللغة الصينية، حديثا يتناول شتى الموضوعات اليومية، ومستهدفا

إقناعه بحسن نيتى ورغبتى فى مساعدة شعبه، إذا بى أهتدى إلى طريقة استطعت بها تحطيم الحواجز القائمة فيما بيننا وإستدرار عواطفه الطبيعية وروحه الإنسانية. فقد أطلعته على صورة ابنتى الطفلة، واستدرجته من ذلك لسؤاله عن عائلته، فقال إن له أختا طفلة فى منزله وأخا أكبر منه يعمل كذلك جنديا فى الجيش. وهنا، وعلى غير قصد منه فيما أعتقد، تخلى عن بندقيته، وسرعان ما أفهمته بلغتى الصينية الركيكة مهمة الوحدة الطبية التى أعمل فيها، وأنها جاءت إلى الصين يحدوها الأمل فى أن تنشئ صداقة _ لا علاقة لها بالسياسة _ مع شعب الصين، وذلك بما نقوم به من خدمات صحية. وهنا تلاشت من نفسه ما كنت أ حس به من مشاعر الريبة والشك والبغضاء. واستطعت ابتداء من هذه اللحظة أن أسيطر على العنصر الإنسانى فيه، وأن أثير فى جانبه الروحانى الاستجابة الكاملة لعواطفى نحوه، وحين وصل بقية أعضاء الوحدة الصحية التى أعمل بها، وافق الجندى الصينى على أن يقودنا إلى المركز الرئيسى، حتى نستطيع القيام بما جئنا لإنجازه".

ثم يختم الكاتب الأمريكى مغامرته أو تجربته الواقعية بقوله: "وأنا إنما أروى لك هذه القصة تبيانا لما أؤمن به من ثقة فى الله، ومن وجود صلة خفية تربط بين البشر جميعا، وهى صلة لابد منها لتحقيق المودة والتفاهم بين الناس".



تجربة إنسانية أخرى من الصين أيضا ترويها السيدة "إيفا ساكل" وهى أمريكية من أصل "تشيكى". وكانت أستاذة للغات

الأجنبية فى مدينة "شنغهاى" الصينية فى أثناء الحرب العالمية الثانية، وتقول عن تجربتها الإنسانية الفريدة فى كتاب "علمتنى الحياة؟!" أيضا:

"سنة ١٩٥١ اكتشف الأطباء فى "شنغهاى" أننى مصابة بمرض السكر، على الرغم من أننى لم أكن حينذاك قد جاوزت العشرين من عمرى، ولقد كان هذا النبأ صدمة مروعة، لأنه لا شفاء من مرض السكر وإن كانت السيطرة عليه ميسورة بدواء الأنسولين"، وعلى الرغم من أن هذا الدواء لم يكن يصنع فى الصين، فقد كان من السهل استيراد كميات كبيرة منه من الخارج، وأعاننى ذلك على أن أواصل حياتى العادية فى جو من السعادة. ثم اشتعلت الحرب بين اليابان وأمريكا وأحتل اليابانيون المدينة التى أعمل بها، أى "شنغهاى"، وانقطع استيراد الأنسولين. ولم يمض إلا القليل من الوقت حتى أصبح الموجود منه غير كاف للمصابين بمرض السكر، ولقد كنت اتبع نظاما فى الطعام يكاد يكون هو الجوع والحرمان، لكى أهبط بحاجتى من الأنسولين إلى أدنى قدر مستطاع. غير أن مواردى القليلة من الأنسولين سرعان ما تلاشت. ولقد مات بالفعل كثيرون من مرضى السكر، وأصبحت الحال باعثة على اليأس. ولكننى طوال هذه المحنة لم أتوقف قط عن الإيمان بأننى – بمعونة الله وبمحبة زوجى وعنايته ـ سوف تكتب لى الحياة. وهكذا واصلت التدريس بالمدارس الصينية، وامتلأت شجاعة بفضل إيمانى وبفضل الجهد المتصل الذى بذله زوجى فى سبيل بدء إنتاج الأنسولين فى تلك البلاد، فقد جئ ببنكرياس "الثور" وبدأت

محاولة إنتاج الأنسولين فى معمل صغير، ولن أنسى اليوم الذى أعطانى فيه زوجى حقنه من الأنسولين الجديد، الذى نجح فى تجربتنا له عندما تم حقن الأرانب به. ولقد أسفر حقنى به عن نجاح كبير، وفى وسعكم أن تتصوروا مبلغ سعادتى وراحة بالى بعد هذا النجاح".

ثم تنهى السيدة "إيفا ساكل" تجربتها بقولها: "وفوق إيمانى بالله، فقد استمددت أعظم قوة لى من تلك المحبة العظيمة، وذلك الفهم الكامل، مما كان قائما بينى وبين زوجى، ويلى ذلك العطف والمعونة اللذان لقيتهما من الأصدقاء الكثيرين من الجنسيات المختلفة، ومن بينهم بعض المدنيين اليابانيين الذين عاونونا على الرغم من أن بلادهم كانت حينذاك فى حرب معنا، كلما وجدوا المعونة مستطاعة".

هاتان تجربتان إنسانيتان تؤكدان أننا فى "عصر القلق" الذى نعيش فيه نستطيع أن نحقق السعادة أو بعضها على الأقل فى حياتنا، بشرط أن نقتنع بأن السعادة شئ يحتاج إلى التدريب والمران.. مثل العزف على الناى!

أشرب الشاي وتحدث عن حبك الأول

كن "جون روكفلر" الإبن "١٨٧٤-١٩٦٠" من أغنى أغنياء أمريكا والعالم كله. وقد ورث الثراء عن أبيه الذى كان اسمه "جون روكفلر" الأول، وكان الأب الذى أسس هذه الأسرة من رجال الأعمال المشتغلين بصناعة البترول، وقد نجح فى ذلك حتى أصبح المسيطر الأول فى أمريكا على صناعة التكرير. ومثل كبار الرأسماليين العقلاء الذين تدفقت الثروة بين أيديهم، فإن "روكفلر" الأب كان يحس أن ثروته يجب أن يكون فيها جزء منها يعود على الناس بالخير، وإلا أصبح موضع غضب وحقد شديدين من المواطنين، فما دام هناك فائض فى الثراء العريض الذى ينمو بسرعة شديدة من تدفق الأرباح الهائلة فى صناعة البترول، فلابد من تخصيص جزء من هذه الثروة للمصلحة العامة، من أجل منفعة المواطنين الذين لا يملكون شيئا، وذلك بالإضافة إلى ما يدفعه من

ضـرائب للدولـة، ومـا يتـيـحـه من فـرص عـمل ورزق لـلآلاف من العاملين فى مؤسسته.

والضـرائب وفرص العمل لا تكفيان وحدهما لتقديم وجه إنسانى للثروة الكبيرة فى مجتمع فيه ملايين من الفقراء الذين يسعون وراء رزقهم كل يوم فيحصلون عليه بالجهد والمشقة والعناء. ولذلك أنشـأ روكفلر الأب "جامعة شيكاغو" سنة ١٨٩٠، وهى من أكبر الجامعات الأمريكية، وأكبر الجامعات فى العالم، كذلك أنشأ مع ابنه "مؤسسة روكفلر" التى تقدم عددا من المنح التعليمية لمساعدة الأجيال الجديدة من المتفوقين غير القادرين على مواصلة تعليمهم. وبذلك اكتسبت ثروة "روكفلر" الأب وجها إنسانيا مقبولا من الناس. وبهذا الأسلوب يتصرف الأثرياء العقلاء، والرأسماليون الذين لديهم حكمة وبعد نظر والانسانية. فليس من الأمان لك أن تكون بالغ الثراء وحدك فى مجتمع فيه ملايين من الفقراء وغير القادرين. لأن هذا الوضع لابد أن يشعل الغضب والثورات والأحقاد بين الناس والطبقات، أما إذا اكتسب الثراء وجها إنسانيا، وحرص على معاونة الناس معاونة جدية، فهنا فقط تهدأ النفوس، ويدعو الجميع لصاحب الثروة أن يزداد ثراء ما دام يحرص على تقديم خير واضح وملموس لغيره.

وقد عاش "روكفلر" الأب حتى وصل إلى الثامنة والتسعين من عمره، فهو من مواليد ١٨٣٩ وقد توفى سنة ١٩٣٧ , وخلفه أبنه الذى عاش حتى السادسة والثمانين، وكان هذا الابن يسمى باسم

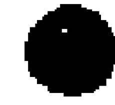
"ملك البترول" فى أمريكا، وقد واصل الابن سياسة أبيه فى محاولة توفير وجه إنسانى للثراء الذى يعيش فيه، وذلك بتدعيم بعض الخدمات، وتقديم المعونات المنظمة وخاصة فى مجال التعليم.

طبعا أنا لا أعرف كثيرا عن أمور المال والاقتصاد ومعلوماتى فى هذا المجال محدودة جدا، ولكن الذى لفت نظرى إلى أسرة "روكفلر" هو ما قرأته ذات مرة على لسان "روكفلر الابن" صاحب هذا الثراء العريض، والوريث لثراء عريض آخر عن أبيه، فقد سأل "روكفلر" صديقا له عن معنى "السعادة" كما يتصورها هذا الصديق، ولما لم يجد عند صديقه إجابة شافية قال لصديقه:.. تصور.. إننى رغم كل ما أملكه أرى أن السعادة كل السعادة، فى بعض اللحظات البسيطة.. مثل هذه اللحظة التى نجلس فيها الآن معا فى استرخاء، نتبادل الحديث الهادئ، ونشرب الشاى!"

كل هذه الملايين بل المليارات، وكل هذه القصور والسيارات والطائرات، وكل هذا الجيش من الخدم والمساعدين، لم يجد فيها "روكفلر" المعنى الدقيق للسعادة، ووجد هذا المعنى فى جلسة استرخاء مع صديق له، وهما يشربان الشاى ويتبادلان الأحاديث فى مودة وبساطة ويسر!

وقبل أن أترك "روكفلر الابن" لتاريخه وثرائه ومعنى السعادة الذى يرضاه، أذكر له كلمة أخرى عجيبة، فقد قال مرة: "إن كل ممتع فى هذه الحياة مضر". وقال هذه العبارة وهو يعلق على طعام مقدم إليه أعده طباخ ماهر بما يجعله ممتعا جدا، ولكنه يبدو ثقيلا

على المعدة فكان "روكفلر" يرفض تناول مثل هذا الطعام الممتع الثقيل، ويكتفى بطعام يسير خفيف "مسلوق"، ولعل هذا هو السر فى أنه عاش حياة طويلة "٨٦ سنة"، ولعله هو السر أيضا فى أن أباه عاش عمرا أطول هو ٩٨ سنة! فقد تعود على رفض "الممتع المضر"، والحرص على بساطة العيش والطعام ونظام الحياة، مما أتاح للابن والأب عمرا طويلا، لأنهما لم يندفعا وراء "الممتع المضر"، رغم أنهما كانا يملكان من ألوان المتعة ما يفوق الخيال.. ولكن مقاومة المتعة تحقق متعة أكبر، هى حياة طويلة خالية من منغصات المرض والألم وانهيار الجسم قبل الأوان.



على أن هذه النظرة الوديعة الهائلة إلى الحياة والتى يمثلها "روكفلر" الابن وأبوه، ليست هى النظرة الوحيدة لمعنى الحياة والسعادة عند كل الناس فى كل مكان. فقد تحقق لآل روكفلر ثراء غير عادى مع نجاح فى أمور الدنيا لم توفر للكثيرين، وكانا يعيشان فى أمريكا، وهى بلاد أنعم الله عليها بالإمكانيات الوفيرة فأمريكا تمثل ٥% من سكان العالم ولكنها تحظى وحدها بنسبة ٤٣% من ثروة العالم كله، مما أتاح الكثير من فرص الحياة الناجحة للملايين، حتى من بين هؤلاء الذين لا يملكون شيئا من ذلك الثراء التاريخى الاستثنائى الذى حققه آل روكفلر.

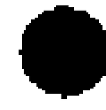
فماذا يحدث مثلا لو كان الإنسان يعيش فى الهند، حيث كان الاستعمار يمتص ما فى البلاد من خيرات ويستخدم قدرات البشر

ليعملوا من أجله بأرخص الأجور، وحيث كان الفقر ينشر ظله الثقيل على أنحاء الأرض ويضم إلى مملكته القاسية ملايين البشر؟! ماذا يفعل الإنسان فى الهند أو فى غيرها من بلاد الفقراء؟! كيف يحصل مثل هذا الإنسان على السعادة فى مثل هذه الظروف؟! وكيف يتخلص من مطاردة المصاعب والمصائب له، وهى أمور لم يصادفها روكفلر وأمثاله؟!

هناك قصيدة لشاعر هندى فقير، عاش بين الفقراء، وانتظم فى صفوف الثوار ضد الاستعمار، وضد استغلال الإنسان، وأصبح شاعرا معروفا فى بلاده.. ولكنه اضطر إلى الهجرة منها ليعيش فى أوروبا، بعد أن تعرض للمطاردة بسبب نزعته الثورية، وهذا الشاعر اسمه "أمارجيت شندان"، وفى قصيدته التى أشير إليها، والتى جعل عنوانها "من ذا الذى لا يريد؟!"، وفى هذه القصيدة نجد أن الفنان الثورى الفقير، يلتقى مع المليونير "روكفلر" عند نقطة واحدة هى "سعادة شرب الشاى مع صديق أو حبيب! يمكن "مما يعنى أنه فى نهاية المطاف يمكن أن يلتقى الأثرياء والفقراء، والكبار والصغار، والذين أنعمت عليهم الحياة فى سخاء، والذين كانت الحياة عليهم قاسية وغير رحيمة.. يمكن لهؤلاء جميعا أن يلتقوا عند إحساس بالسعادة فى شئ بسيط، وفى هذه القصيدة نجد هو شراب الشاى مع صديق فى لحظة هدوء.

وهذا ما يقوله لنا الشاعر الهندى "شندان" فى قصيدته الجميلة، وهو يبدأ قصيدته بوضع يده على معنى السعادة فى شرب

الشاى مع صديق او حبيب. أى أن السعادة عنده كما هى عند المليونير روكفلر تولد فى "جلسة الشاى" هذه، ولا فرق بعد ذلك فى أن يشرب الإنسان الشاى فى حديقة قصر كبير، أو على باب كوخ فقير.. فالشاى هو الشاى، والأصحاب والأحباب، هم الأصحاب والأحباب، والسعادة فى الحالتين هى السعادة!



على أن شاعرنا الهندى "شندان" ينطلق من البحث عن السعادة فى شرب الشاى، إلى تعميق معنى السعادة من خلال حياته الصعبة وتجاربه القاسية، فيجد أفاقا أخرى للسعادة، منها أن نتحدث مع أصحابنا – ونحن نشرب الشاى عن "حبنا الأول". و "الحب الأول" ليس هو "الأول" بمعنى أنه جاء فى تاريخ حياتنا قبل غيره من العواطف، ولكن الحب الأول هو الحب الحقيقى، حتى لو كان ترتيبه الرابع أو الخامسّ فكثيرا ما يشتبه علينا الحب، ونظن أن ما نشعر به هو حب حقيقى، ولكن سرعان ما نكتشف أننا كنا نعيش فى وهم، ونجرى وراء سراب عاطفى.. وعندما نلتقى بالحب الحقيقى بعد الوهم والسراب فهذا هو الحب الأول والباقى لنا، وهو الذى يصبح جزءاً لا يتجزأ من قلوبنا فالحب الحقيقى هو الحب الكامل والسعيد، والمقدر له أن يبقى ويعيش.

والفرق بين المليونير "روكفلر" والشاعر "شندان" يأتى بعد أن يتفقا على السعادة النابعة من شرب الشاى واللقاء مع الأصدقاء، فالمليونير تخلص من هموم الحياة الصغيرة، ورأى كل ما فى الدنيا من أفراح، ومرت أمام عينيه ألوان من المتعة الفاتنة.

واكتشف فى آخر الأمر أن السعادة هى فى شرب الشاى فى جلسة استرخاء مع صديق. أما الشاعر الهندى فهو فى حال أخرى! إنه يحمل هموم نفسه ويحمل هموم إخوانه فى الوطن وفى الإنسانية، وليس فى يديه من المال أو من إمكانيات الحياة غير هذه الأداة السحرية التى هى ثروته الوحيدة، وأعنى بها شاعريته وقدراته التى أنعم الله بها عليه فى كتابة القصائد الجميلة.. وبهذه القصائد ـ التى هى مصباح فى يديه يخوض به ظلام الحياة ـ أخذ الشاعر "شندان" يبحث عن المزيد من معنى السعادة، ويضع يديه على دائرة للسعادة أوسع وأكبر. وإن كانت هذه الدائرة السعيدة تبدأ ـ كما بدأت عند المليونير الأمريكى- بشرب الشاى مع الأصحاب والأحباب!

وقصيدة "شندان" التى أتحدث عنها هى من ترجمة الأديب طلعت الشايب فى كتاب صغير، ورائع جمع فيه نصوصا شعرية متعددة، لشعراء يبحثون عن السعادة من خلال حياتهم الصعبة القاسية.. لأنهم فقراء، وليسوا من أصحاب الملايين مثل "روكفلر" وأبيه! وبعض هذه النصوص الشعرية فى هذا الكتاب الصغير مترجم وبعضها مختار من قصائد عربية، والكتاب اسمه "أصوات الضمير ـ قصائد للإنسان والحرية" من منشورات "دار سما للنشر والتوزيع".

قصيدة الشاعر الهندى "شندان" تقول:

"من ذا الذى لا يريد

أن يجلس بصحبة أحبابه

يحتسى الشاى، ويقرأ القصائد

ويفكر فى تحويل الشعر إلى حياة

وتحويل الحياة إلى قصيدة؟!

من ذا الذى لا يريد أن يشرب

أعشابا عطرية

من يد فتاة جميلة

ويتحدث فى استرخاء

عن حبه الأول

عن ألوانه المفضلة

أو عن تلك الحقيقة البسيطة

التى تقول:

إنه حتى عيون الخاطئات تعرف الدموع

وتلك الدموع هى صورة من الحروف الناعمة تخطها الأنامل المرتعشة على وجه الأرض؟!

من ذا الذى لا يريد أن يطلق النار على تلك الساعات

التى تحمل بعض معانى الخذلان والخسارة؟!

من ذا الذى لا يريد

أن يقوم مرة أخرى

بتقليب مياه الحياة الراكدة

وتحويلها إلى موج متلاطم؟!

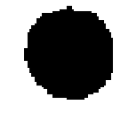
من ذا الذى لا يريد؟!

الشاعر "شندان" يبدأ بحثه عن السعادة من شرب الشاى والحديث مع الأصحاب، وشرب الأعشاب العطرية من يد فتاة جميلة، عاملة وبسيطة. ثم "يتوغل" بحثا عن السعادة بعد ذلك فى تحريك المياه الراكدة، وفى التعاطف مع الدموع.. حتى لو كانت دموع الخاطئات! إن الشاعر هنا يبحث عن السعادة فى شغف وقلق، ويتوسع فى بحثه ويتلفت حوله، لعله يلتقط معنى السعادة فى صور أخرى غير شرب الشاى والحديث ـ فى استرخاء ـ عن الحب الأول.

ولعلنا نلاحظ فى هذه القصيدة الجميلة معنى بديعا، هو أن القصيدة من أولها إلى أخرها هى قصيدة "مائية" إذا صح التعبير والماء هو أصل الحياة.. فنحن نجد الماء فى القصيدة يتلون بألوان الحياة ومواقفها العديدة المختلفة، فالماء فى الشاى، وفى مشروب الأعشاب العطرية، وفى الدموع، وفى مياه الحياة الراكدة، وفى موج البحر المتلاطم، والقصيدة تعرض لنا صورا متنوعة رائعة من الحياة، ولكن المادة الأصلية التى تربط بين أجزاء هذه الصور كلها

هى الماء، الذى تتشكل منه أحوال الحياة وتجارب الإنسان وعواطفه.. فالقصيدة "مائية" نسبة إلى الماء بهذا المعنى الجميل!

وهكذا نجد أن سعادة الشاعر، أو السعادة التى يبحث عنها الشاعر "شندان" تتفق مع معنى السعادة التى يعترف بها المليونير "روكفلر" فى نقطة البدء، أو فى شرب الشاى، فى لحظة استرخاء مع الأصدقاء والأحباب، وبعد نقطة البداية هذه يختلف الشاعر والمليونير فى سباق الحياة، وأهم اختلاف هو أن "شرب الشاى مع الأصدقاء والأحباب" هو نقطة البداية فى السباق عند الشاعر. أما شرب الشاى عند المليونير فهو نقطة النهاية فى هذا السباق.



على أن كتاب "أصوات الضمير" بقصائده العديدة ـ التى اختارها أو ترجمها الأديب طلعت الشايب، بذوقه المرهف وإحساسه الإنسانى العميق ـ يبحر بنا فى محيط الحياة بحثا عن معاني السعادة المختلفة، بالإضافة إلى السعادة الكبرى التى يمكن أن نجدها فى شرب الشاى فى استرخاء مع الأصحاب والحديث عن الحب الأول. ولكن المعنى العام فى قصائد هذا الكتاب هو أن السعادة ممكنة، إذا عرفنا أن السعادة فى البساطة، وفى الالتفات إلى ما حولنا من ثراء الحياة التى نراها ولكننا كثيرا ما نهملها ونلقى بها وراء ظهورنا. ومن أجمل هذه القصائد قصيدة عنوانها "الشمس" للشاعر البولندى "شيسلات ميلوش" المولود سنة ١٩١١، والحائز على جائزة نوبل سنة ١٩٨٠، والذى هاجر من بلاده "بولندا"

سنة ١٩٥١ ليعيش فى باريس فترة، ثم انتقل بعد ذلك ليعمل فى جامعة كاليفورنيا فى أمريكا. فى قصيدة "الشمس" هذه يلتفت الشاعر "ميلوش" إلى ثروة فى الحياة يملكها جميع الناس .. المليونير منهم والفقير، وهذه الثروة هى "الشمس" حيث يقول الشاعر فى قصيدته:

"كل الألوان تنبع من الشمس

ليس لها لون واحد، فكل الألوان فيها

الأرض قصيدة

لكن الشمس هى الفنان فى الأعالى!

ومن يريد أن يكون العالم بين يديه ملونا

فلينظر إلى الشمس حتى لا يفقد الذاكرة

وحتى لا يتبقى فى عيونه إلا الدموع الحارقة

وللركيع بعد ذلك

ولينحنى بجبهته إلى العشب

وينظر إلى الضوء المنعكس فى الأرض

وهناك

سوف يجد كل ما ضاع منه:

النجمة والوردة والغروب والفجر!".

فى هذه القصيدة البسيطة الجميلة يقودنا الشاعر إلى معنى بعيد للسعادة، هو تلك "الوحدة" القائمة بين الإنسان والأرض والشمس. وفى هذه الوحدة تلعب الشمس دور "المايسترو"، لأنها هى التى تجمع كل الألوان، فهى تعزف على هذه الألوان المتعددة، كما يعزف الموسيقار على أوتاره.. وهى توزع الألوان فى فن وسخاء وصنعة عالية وذكاء، فتعطينا النجمة والوردة والغروب وإشراق الصباح. فما أبدع اللوحة التى ترسمها الشمس على الأرض، وفى قلب الإنسان، وأمام عينه! ومن يلتفت إلى هذه اللوحة المتنوعة المتجددة، يزداد قوة، ويمتلئ شعورا بنعمة الحياة، ويحس بالسعادة التى لا تكلفه شيئا سوى أن يرى "الشمس" ويفهمها، ويتابع لوحتها الفنية الرائعة بألوانها الساحرة المتعددة، والتى تنشرها وتوزعها على الوجود كله!

هذا معنى آخر للسعادة، يضاف إلى معنى السعادة الكائنة فى شرب الشاى مع الأصحاب والحديث عن الحب الأول. إنها سعادة الالتفات إلى جمال الوجود، وإلى الشمس "الفنانة" وهى توزع الألوان، وتساعد بدفئها على إعطاء قوة الحياة لكل ما هو جميل، من الوردة إلى الغروب وألوان الفجر الجديد الذى يشرق علينا كل صباح.

هذه كلها ألوان من السعادة الهادئة الوديعة، وليس فيها لون الفواجع والآلام الدامية. لكن هناك سعادة أخرى، ربما كانت سعادة

مخيفة، إذ صح أن يجتمع "الخوف" مع "السعادة" فى وقت واحد، فليس فى هذا النوع من السعادة سهولة "شرب الشاى مع الأصحاب"، وليس فيها حديث عن "الحب الأول"، وليس فيها تأملات فيما تبدعه الشمس من ألوان على لوحة الأرض أو فى السماء والفضاء، فكثيرا ما يتعرض الناس لمحنة من المحن، وقد تكون هذه المحنة فوق احتمال الإنسان العادى.. فهل تكون السعادة ممكنة فى مثل هذه الأحوال الصعبة؟!

يقول لنا الشعراء: إن السعادة ممكنة حتى فى هذه اللحظات! وهى سعادة الرضا بما أصابك، وبما كتبه الله عليك، وما أخفاه لوح القدر عنك ولك. ويمكن للإنسان فى هذه اللحظات أن يشعر بنوع من السعادة الغريبة، ربما كانت هى سعادة الخلاص من الألم باحتماله والصبر عليه من أجل هدف كبير.

وهذه سعادة صعبة ومريرة، إن جاز أن نصف السعادة بالصعوبة والمرارة، وهى صعود من المعانى البسيطة للسعادة إلى معانيها العالية.

وهنا نلتقى بقصيدة مؤثرة جدا هى أيضا من اختيار طلعت الشايب وترجمته فى كتابة "أصوات الضمير"، وهى للشاعرة اليونانية "ريتا باباسشى والتى يقول عنها: "إنها عملت فى بداية حياتها معلمة للأطفال فى مدرسة أنشأتها، ولها كتاب عنوانه "ألف فتاة مقتولة" تتحدث فيه عن دور نساء اليونان فى المقاومة ضد الاحتلال النازى فى الحرب العالمية الثانية، حيث تم إعدام

السجينات بعد أن رفضن توقيع بيان ندم واعتذار. ومعظم قصائد "ريتا باباس" تدور حول ما كتبته هؤلاء النساء أو قلنه قبل تنفيذ الإعدام فيهن".

أما قصيدة هذه الشاعرة "باباسشى" فعنوانها "دثرونى"، وهى على لسان فتاة فى اللحظات القليلة السابقة على قيام الجنود بإعدامها عن طريق إطلاق النار عليها.

تقول الشاعره فى قصيدتها المؤثرة:

"صوبوا رصاصكم على قلبى

فقد أعاننى قلبى بإخلاص حتى الآن

ولكى أجعل هذا القلب سهلا أمام رصاصكم وضعت قطعة من القماش الأسود فى وسط صدرى.. تماما

لا أعرف كيف سوف تكون نيرانكم

- أيها الجنود الشبان البؤساء-

لقد أيقظوكم فى الفجر من أجلى

وأنا لم أمسك فى حياتى بندقية

ولا أعرف كيف أمسك بها!

أرى عيونكم مفتوحة

وأيديكم تريد أن تلمسنى

قبل الضغط على الزناد

أفهم ذلك!

ربما أنكم ما زلتم تحتفظون

بأسماء التدليل فى طفولتكم

ومن يدرى؟!

ربما نكون قد لعبنا معا فى الشارع

فى يوم من الأيام!

فارحمونى من برد هذا الصباح

ها أنا ذا عارية

فدثرونى بنيرانكم

ابتسموا أيها الأولاد

غطوا جسدى بنظراتكم

فلم يسبق أن غطانى حبيب حتى فى الأحلام!".

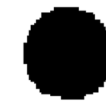
إن أبدع ما فى هذه القصيدة هو روح السلام والرضا التى تملأ نفس هذه "الشهيدة"، التى ليس بينها وبين الإعدام بإطلاق الرصاص عليها سوى لحظات. وبدلا من الارتجاف والذعر فإنها تشعر بالعطف الشديد على الجنود الشبان ـ من أهل وطنها ـ وهم يستعدون لإطلاق النار عليها، تنفيذا للأوامر الصادرة إليهم. فقد قرأت هذه "الشهيدة" ما فى عيون الجنود القاتلين وما فى نفوسهم.. فهم مرغمون على ما يفعلون لأنهم خاضعون لأوامر

جبارة لا تعرف الرحمة، تأمر بالقتل عقابا لهذه الشهيدة على أنها لم تجد ما تندم عليه أو تعتذر عنه ولم تكتب ندمها واعتذارها إلى المحتلين لبلدها. ولأنها رفضت الاعتذار.. حكموا عليها بالإعدام!

وهى تداعب قاتليها. بل تكاد تغازلهم.. وتشير إلى الأسماء التى كانت أمهاتهم تدللهم بها، بل وتتصور أنهم كانوا يلعبون معها فى يوم من الأيام، وهم الآن يصوبون البنادق إلى صدرها، وقد وضعت شريطا أسود فوق القلب مباشرة، حتى لا يخطئوا التصويب عليه، وهى لا تنسى فى هذه اللحظة أن تقدم تحية وفاء إلى قلبها الذى عاونها فى كل حياتها بإخلاص وصدق، فهى لا تنساه فى هذه اللحظة الأخيره من عمرها.. وكيف تنسى قلبا لها مخلصا كل هذا الإخلاص؟ وهى تتذكر حياتها الصعبة بعد أن أصبحت جزءا من المقاومة ضد النازية.. فقد شغلها اشتراكها فى المقاومة عن أن يكون لها حبيب يغطيها بحنانه، ولطفه، ومحبته الغامرة. وهى لم تعرف هذا الحبيب حتى فى الأحلام.. ولذلك فهى تطلب من الجنود المقبلين على إعدامها أن يغطوا جسمها بنظراتهم قبل إطلاق الرصاص، لعل هذه النظرات تعوضها عن أحلام الحب التى ضاعت منها فى غمرة المقاومة والنضال!

هذه فتاة تفكر فى الحياة، وتتذكر بعض الخواطر السعيدة، وبينها وبين الموت لحظات. فهى فتاة تحاول أن تكون سعيدة فى اللحظة الباقية الأخيرة، فتتذكر القلب، والحب، واللعب فى الشوارع، والأمنية التى لم تتحقق.. وهى أن يغطيها حبيب، ولو فى

الأحلام. وينساب فى نفسها تيار من العطف والحنان على القاتلين الشبان، الذين تلقوا أمرا بإعدامها، وعليهم - مرغمين ـ أن ينفذوه.. ذلك كله هو ما أسميه باسم السعادة الصعبة والمريرة، لأنها سعادة التضحية بالنفس من أجل شئ تؤمن به، وترى أنها فى إيمانها على صواب.



تلك كلها ألوان عديدة من السعادة ونماذج من الباحثين عن هذه السعادة وبعض هذه الألوان هادئ بسيط مثل شرب الشاى مع الأصدقاء والحديث عن الحب الأول، ومثل تأمل الشمس، وما تنثره على الدنيا من الألوان.. وبعض هذه السعادة فيه حزن وأسى مثل سعادة تلك الفتاة، وهى تتذكر "فتافيت" الحياة قبل إعدامها بلحظات، وكل سعادتها مستمدة من أنها أخلصت لقلبها، وأخلص لها هذا القلب.

يكاد الإنسان يشعر بعد هذه الرحلة القصيرة مع معانى السعادة، أن السعادة فى الدنيا، عند المليونير، والفقير، وعند الثائر، وعند الإنسان البعيد عن ا لمشاكل، والصراعات.. هذه الألوان من السعادة هى فى النهاية "قرار شخصى" يأخذه الإنسان بنفسه لنفسه، ولا ينتظر من أحد أن يفرضه عليه أو يقدمه إليه.. فلو كان الإنسان راضيا عما يفعله، منتبها إلى الوجود من حوله وما فيه من حركات وأحوال ولو كان يصحو فى الصباح ويقول لنفسه: لماذا لا أكون سعيدا بإرادتى، حتى لو كانت هناك صعوبات،

وتعقيدات!.. لو فعل الإنسان ذلك، مع الرضا، والاقتناع، وبذل كل جهد مستطاع، فربما وجد السعادة بين يديه فى هذه الحياة القصيرة المحدودة.. وأبسط ألوان السعادة، وأقربها إلى اليد، هى أن تشرب الشاى فى استرخاء وهدوء مع صديق لك، وأن تتحدث عن الحب الأول، وأن تتخذ قرارا بأن تكون سعيدا، حتى لو كانت هناك منغصات ومخاطر.. فالسعادة فى هذه الحالة هى القدرة على الصبر والاحتمال.

والخلاصة: أن السعادة ممكنة لو أن الإنسان اتخذ القرار بالبحث عنها دون انتظار.. والسعادة قد تكون فى الأشياء البسيطة التى نملكها جميعا، وقد تكون فى أشياء أخرى صعبة عسيرة.. المهم أن نبحث ونجتهد، ونحاول الكشف عن الجميل والطيب فى كل ما يصادفنا من أمور الحياة!

أحلام نبيلة

لست من الذين يؤمنون بأن "الموهبة" مهما كان شأنها يمكن أن تكون "رخصة" تعطى صاحبها الحق فى أن يخطئ ويسئ إلى الناس كما يشاء. فالموهبة تجعل مسئولية صاحبها عن تصرفاته أكبر من غيره. وإذا كان الإنسان العادى مسئولا عن نفسه وعائلته الخاصة، فصاحب الموهبة مسئول عن العائلة الإنسانية كلها. وعندما نفكر فى أمور الحياة بشئ من العمق، فسوف نتوصل إلى نتيجة واحدة هى أن الحياة صعبة على الجميع، وأن فيها من الدموع بقدر ما فيها من الابتسامات، وربما كانت الدموع أكثر من الابتسامات بكثير، والإنسان يعتمد فى مواجهة آلام الحياة على وسائل متعددة منها الفن والفكر. ومن هنا تنشأ مسئولية أصحاب المواهب، إذ أن رسالتهم فى الحياة هى المساعدة والمساندة والمواساة لكل القلوب المتألمة الجريحة، عن طريق الفن والفكر.

ولذلك فليس من المقبول أن يكون صاحب الموهبة نذلا وأنانيا ومفتقرا فى تعامله مع الناس إلى الصدق والأمانة.

على أن الحياة لا تقدم إلينا فى كل الأحوال ما نحلم به، فكثيرا ما نجد بين أصحاب المواهب من يتصرفون بصورة سيئة ولا يعبأون بالحاق الأذى بمن يتعاملون معهم أو يحيطون بهم، ولكننا نجد فى نفس الوقت موهوبين كبارا أدركوا مسئوليتهم وارتفعوا بأنفسهم عن الصغائر وأحسنوا إلى الإنسانية إحسانا جميلا، ولم يشعروا بالغرور أو التعالى على الناس فى يوم من الأيام.

وأول الذين يخطرون على البال كلما فكرت فى أصحاب المواهب الإنسانية العالية هو أديب روسيا العظيم أنطون تشيكوف (١٨٦٠-١٩٠٤) فهذا الفنان المبدع الجميل، لم يكن مقتنعا بأن الكتابة وحدها كانت كافية للتأثير على المجتمع وتحسين أحوال الناس، بل كان دائما يراوده الحنين إلى عمل شئ آخر غير الأدب، ورغم أنه كان يملك قلما يقطر لطفا وحنانا وعذوبة وموسيقى، وكان يكفيه أن يقدم قصصه ومسرحياته الرائعة لكى تكون علاجا نافعا لآلام الإنسان، ولكنه كان يبحث عن شئ أخر له نفع مباشر وتأثير واقعى ملموس، ولأنه كان طبيبا فقد كان يجد فى الطب أحيانا ما يحقق رغبته العميقة فى خدمة الناس، حيث تعود أن يذهب إلى القرى الروسية المختلفة ويشارك فى علاج الفلاحين، وفى الاحتفال بالذكرى الأربعين لوفاة "تشيكوف" سنة ١٩٤٤ وقف فلاح عجوز من الذين عاصروا "تشيكوف" يقول: "أننى أعتبر نفسي

أنا وزملائى أبناء قرية "مكلوفو" مسئولين عن مرض "تشيكوف" وموته المبكر، ذلك أننا طالما أزعجناه بشئوننا ومطالبنا وأمراضنا وجميع التفاصيل المرهقة فى حياة القرية".

على أن "تشكيوف" كان قد بلور فى ذهنه فكرة أخرى بالإضافة إلى الاهتمام بالطب والعلاج وهذه الفكرة تكاد تكون أهم أفكاره خارج النطاق الأدبى تلك هى فكرته عن "المدرسين"، فقد كان مؤمنا بأهمية "المدرسين" وقيمتهم وضرورة رعايتهم ماديا ومعنويا إلى أبعد حد، وكان يؤمن "بالمدرس" ويرى فيه شعاع الضوء الذى يبدد الظلام فى حياة بلاده، ولكن "تشيكوف" لم يكن من الأثرياء، ولم تمكنه حياته القصيرة التى انتهت بموته فى الرابعة والأربعين بمرض السل الذى لم يكن له علاج فى ذلك الوقت، أن يحصل لنفسه على ثروة مادية كان قادرا على أن يحصل عليها عن طريق أدبه الرائع الجميل، ولذلك ظلت أفكار "تشيكوف" عن "المدرسين" مجرد أحلام يفضى بها إلى أصدقائه فى أحاديثه الخاصة، ولكنها تدلنا فى النهاية على ما فى قلب هذا الفنان العبقرى من الإيمان الكامل العميق بمهنة التدريس والإيمان بدور "المدرس" فى بناء نهضة كبيرة وحضارة إنسانية قائمة على أسس صحيحة إذا ما توفر للمدرس عناية به تحميه من الانحراف والانهيار.

قال "تشيكوف" لأحد أصدقائه: "لو أننى أملك مالا كثيرا لكنت بنيت مصحة لمعلمى القرية المرضى، بناء مليئا بالنور، مضيئا جدا له نوافذ كبيرة وأسقف عالية، وكنت أقيم مكتبة فيه، وأجمع كل

أنواع الآلات الموسيقية وكنت أبنى خلية نحل، وأزرع بستان خضروات، كنت أنظم محاضرات عن الهندسة الزراعية، أعلم الظواهر الجوية.. وهكذا فالمعلمون ينبغى لهم أن يعرفوا كل شئ.. كل شئ..".

ثم يقول "تشيكوف" لصديقه:

"هل يعتريك الملل من إصغائك لإحلامى؟ أنا أحب الكلام فى هذا الموضوع وأتمنى لو أنك تشاركنى فى الإحساس بحاجتنا الماسة إلى "معلمين طيبين" أذكياء متصلين، فنحن فى بلادنا يجب أن نوجد ظروفا استثنائية للمعلمين، وفى أقصر وقت ممكن ما دمنا ندرك أنه ما لم يحظ الناس بتعليم شامل فإن الدولة سوف تنهار، كما ينهار منزل مبنى بطوب لم يحترق بما فيه الكفاية، ولابد للمعلم من أن يكون ممثلا فنانا، وأن يحب عمله بحرارة، ومعلمونا عمال جفر، أنصاف متعلمين، يرحلون إلى القرية ويعلمون الأطفال فى غير إقبال وكأنهم راحلون إلى المنفى. أنهم يتضورون جوعا، وتدوسهم الأقدام، والواجب هو أن يكون المعلم هو الرجل الأول فى القرية، وأن يكون قادرا على الإجابة عن جميع الأسئلة التى يوجهها الفلاحون، وينبغى أن يكون أهلا للاحترام، فلا يجرؤ أى كائن على أن "يشخط" فيه أو يصيح فى وجهه ليحطم كبرياءه كما يفعل كل شخص فى ريفنا: شرطى القرية وصاحب الدكان الثرى، والقسيس، وناظر المدرسة، وذلك الموظف الذى يسمونه "مفتش المدرسة". ومن الحمق أن ندفع راتبا شحيحا زهيدا لرجل تقع عليه مهمة تعليم الناس... تعليم الناس... تصوروا!!"

بهذه الروح كان "تشيكوف" يتكلم عن المدرسين فى ذلك الوقت البعيد من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، نصوص هذه العبارات الإنسانية تقرؤها فى فصل بديع عن "تشيكوف" كتبه "مكسيم جوركى" وترجمه إلى العربية الكاتب الفنان الفريد فرج فى كتاب يحمل عنوان "صور أدبية".

كان "تشيكوف" يدرك بطبيعته الواعية النبيلة تلك الهوة الواسعة بين ما يكتبه هو وأمثاله من كبار الكتاب وبين واقع بلاده فى عصره، ذلك الواقع الذى كانت تسحقه حقيقة مؤلمة هى "الأمية" فالأمية كانت فى ذلك الوقت سائدة فى "الريف الروسى" أى أن ما كان يكتبه الأدباء مهما كانت قيمته لا تقرؤه العيون المعذبة للفلاحين المرهقين الضائعين، وهذا وضع مثير للألم فى قلب فنان إنسانى مثل تشيكوف، دامت الكلمات الجميلة بينها وبين الشعب سور عظيم من الجهل والمرض والتعاسة.

وهكذا شغلت هذه الفكرة نفس "تشيكوف" بل هزته وأثارته، ولم يكن يملك سوى أن يحلم ويتمنى ويتابع أخبار المدرسين ويسهم بقدرته المالية المحدودة فى إنشاء المدارس، وهو أخيرا لا يمل من الإفضاء بأحلامه وأمانيه إلى أصدقائه أو هو يفضى بها إلى الذين يقرأون أدبه فيكتب عن المدرسين ومشاكلهم وما أكثر ما كتبه عنهم فى أدبه كله.

ومن هذا النوع الإنسانى أيضا كان الروائى الروسى العظيم "تولستوى" فى المرحلة الأخيرة من حياته.

كان "تولستوى" فى أواخر حياته يحمل الفأس ويعمل مع الفلاحين، وكان يضع فى درج مكتبه حذاءه الخاص ليصلحه بيديه ويجد سعادة كبرى فى هذا العمل المتواضع.

وتوج مواقفه كلها بمحاولة التنازل عن ممتلكاته الزراعية الواسعة للفلاحين، ولكن زوجته حالت بينه وبين الاستمرار فى هذا التصرف، فلم يستطع أن ينفذ خطته الكبرى فى التنازل الكامل عن أملاكه، ولم يكن "تولستوى" حتى سن الستين أكثر من "كونت" غنى من كبار أغنياء روسيا والعالم، كما كان فى نفس الوقت أديبا مشهورا برواياته الرائعة وعلى رأسها رواية "الحرب والسلام" وقد ملأت شهرته العالم كله، وكان يكسب الكثير من وراء أدبه العظيم.

وفى الستين أعترته أزمة روحية عنيفة وبدأ فى قيمة الأدب وجدواه، وأخذ يحن حنينا كبيرا إلى عمل أشياء أخرى غير الكتابة.. أشياء يكون لها أثر مباشر على الحياة، وكان يرى أنه قد آن للإنسانية أن تمجد العمل اليدوى وتعرف قيمته، وكان يرى فقد عاش المجتمع الإنسانى قرونا طويلة يحتقر العمل اليدوى ويرفع العمل الذهنى فوقه عشرات المرات، وكان الذين يقومون بالعمل اليدوى هم رقيق العالم القديم، وهم أيضا رقيق العالم الحديث، أى الفلاحون والعمال وغيرهم من الذين يعملون عملا يدويا فى كل مكان، أما السادة المتعطلون والذين يعيشون فى فراغ، فهم وحدهم الذى يستمتعون بالعمل الذهنى ويستفيدون بكل ميزاته الاجتماعية.

ويقول "تولستوى"وكان ذلك فى أواخر القرن التاسع عشر: "أن العيب الرئيسى فى مجتمعنا أنه لا يزال مجتمعا يحتقر العمل اليدوى، ولقد استفاد المجتمع من عمل الطبقات الفقيرة التى أصبحت تتكون من عبيد كعبيد العالم القديم، ولم يكن هناك من يقوم برد الجميل لهذه الطبقات البائسة. ثم يقول "تولستوى" أننى لا أعترف أبدا بصدق العقائد الدينية أو الفلسفية من شخص يكلف خادمه القيام بأعمال مخزية". وهكذا ينادى "تولستوى" باحترام العمل اليدوى ورد الجميل إليه ويبلغ به الإحساس بما يتعرض له العمل اليدوى من ظلم وأمتهان إلى القول أن أى عمل يدوى هو أكثر نفعا وفائدة وأهمية للإنسانية من مسرحيات شكسبير وموسيقى بيتهوفن وقد قال "تولستوى" فى هذا المجال عبارة تصدمنا كثيرا عندما صرخ، وقال: "أن أى جزمجى" أفضل من شكسبير" ثم امتدت الحماسة والمبالغة "بتولستوى" إلى حد إصدار كتاب عنوانه "ما العمل؟" يهاجم فيه شكسبير وبيتهوفن وغيرهما قائلا أن أى عمل يدوى هو عنده أفضل من الأعمال الفنية التى قدمها هؤلاء العباقرة.

والحكمة الكبرى من وراء هذه المواقف كلها هى أن أمثال هؤلاء الأدباء الكبار كانت تشغلهم فكرة تغيير الحياة والمساهمة الفعالة فى القضاء على عذاب الجنس البشرى فى كل صوره وألوانه وبمقياس هذه الفكرة المخلصة كان هؤلاء الأدباء يشعرون بأن الأدب وحده، مهما كان جميلا ورائعا فإنه لا يكفى لتغيير حياة الناس، وتخفيف مشاكلهم، ومعاونتهم على تحقيق قدر أكبر من

السعادة وكان هؤلاء الأدباء الكبار لا يجدون راحة لضميرهم إلا بأن يحلموا أحلاما نبيلة وأن يرتبطوا بأعمال وأحلام أخرى خارج نطاق الأدب، حتى لو كانت هذه الأعمال والآلام بسيطة ومحدودة والمهم فى ذلك أنه يكشف عن رغبة عميقة فى خدمة الإنسانية لا فى استغلالها.

وهكذا فسوف نجد فى تاريخ الأدب العالمى نماذج من هذا الطراز الإنسانى، فليس كل العباقرة، من ذلك النوع الذى يشعر أن الإنسانية يجب أن تكون فى خدمتهم، وأن العبقرية التى يتمتعون بها تتيح لهم أن يفعلوا ما يشاءون دون أن يحاسبهم أو يلومهم أحد. ولا شك أن الدنيا كلها قد سئمت من الفكرة التى تقول أن "العبقرية" هى الشذوذ والارتفاع فوق أى حسابات أخلاقية، وأن العبقرى له من الحقوق ما يبيح له أن ينتهك حياة الآخرين، وأن يدوسهم بالأقدام فى طريقة إلى المجد والثراء والأضواء. وعلى العكس من ذلك فإن صاحب الموهبة مطالب قبل غيره بأن يكون أكثر إنسانية وأصدق فهما لآلام الآخرين وأعمق مساهمة فى خدمة عصره وخدمة البشر الذين يعيشون معه وبدون هذه النظرة الإيجابية وهذه الأحلام النبيلة، تصبح العبقرية شرا وعبئا على الإنسانية وعلينا أن نتأمل بصدق كلمات تشيكوف عندما يقول "لو أن كل إنسان فى هذا العالم يصنع ما فى قدرته أن يصنعه فوق الأرض، فأى عالم جميل يصبح عالمنا الذى نعيش فيه".

ولعلنا نتأمل أيضا ما يقوله "جوركى" عن تشيكوف: "لم التق برجل مثله يحس بأهمية العمل كأساس للثقافة، فقد كان يحب

البناء وزراعة الحدائق وتزيين الأرض، ويحس بشاعرية العمل، ويرقب دائما نمو الأعشاب وأشجار الفاكهة التى زرعها بنفسه".

وهكذا ينبغى أن يكون العبقرى الحقيقى الذى تحتاج إليه الإنسانية وتنتفع به محبا للعمل، مليئا بالحنان القوى قادرا على أن يمد يديه للمشاركة فى إنقاذ الإنسان من آلامه ومتاعبه، ساعيا بكل ما يملك من قدرات استثنائية إلى أن يجعل الحياة أجمل والإنسان أكثر سعادة.

للحب حدود

منذ سنوات بعيدة تعرفت على سيدة عربية كانت وما زالت تسهم فى الحياة الأدبية، بالكتابة أحياناً، وبالمشاركة فى المؤتمرات والندوات والمهرجانات فى كثير من الأحيان، وكان لقائى الأول مع هذه السيدة سنة ١٩٦٣، فى مناسبة ثقافية لا أذكرها تماما، وإن كنت أذكر التاريخ. وتكررت لقاءاتى معها بعد ذلك فى القاهرة والعواصم العربية الأخرى، فى مناسبات أدبية مختلفة، وكانت هذه السيدة تتمتع بجمال لا بأس به، أى أنها لم تكن صارخة الجمال، فجمالها من النوع الهادئ المعتدل، ولكنها كانت مشهورة بالأناقة الشديدة، فهى امرأة ميسورة الحال، ولديها دائما من الوقت والفراغ ما يساعدها على الاهتمام بنفسها وأناقتها، وقد لفت نظرى من اللحظة الأولى فى هذه السيدة أنها من النوع الذى يتقن المجاملة أشد الإتقان، فهى تجامل الجميع،

وتتحدث فى لطف شديد ورقة بالغة مع كل من تلقاه، وكانت قدرتها على المجاملة غير محدودة، فلسانها يقطر عسلا، وكلماتها ناعمة، وحماسها للمجاملة معروف للجميع.

ورغم أننى أميل دائما إلى التعامل مع الناس على أساس حسن الظن، والأخذ بما هو ظاهر أمامى، والحرص على استبعاد الشكوك وألوان الارتياب التى قد يحدثنى بها قلبى، ما دمت لا أملك دليلا على صحة الشك والارتياب.. رغم هذا كله فقد كان إحساسى الأول الثابت منذ أن تعرفت على هذه السيدة هو أنها امرأة كاذبة، وأن المجاملات الكثيرة وعذوبة الحديث والنعومة الظاهرة فى شخصيتها تخفى جميعها شيئا أخر هو الاضطراب الداخلى والقسوة والكراهية العميقة للحياة والناس.. ولم أستطع أن أتغلب على هذا الإحساس الذى امتلأت به نفسى دون أى دليل ظاهر على ما فيه من صدق وصواب. ولذلك حرصت باستمرار على أن أكون متحفظا مع هذه السيدة، بصورة لم أتعود عليها مع أحد. وكنت مندهشا بينى وبين نفسى من موقفى. ولم أجد له نوعا من التفسير الواضح، وبعد تفكير طويل، تمكنت من أن أضع يدى على سبب نفورى من هذه السيدة، وكان السبب فى كلمة واحدة هو: المبالغة.

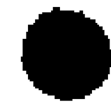
فالمبالغة فى حالة هذه السيدة، وفى كل الحالات المشابهة، هى دليل على "الكذب"، وهو ليس كذبا سهلا بسيطا، ولكنه كذب شديد التعقيد، لأن الذين يبالغون إنما يكذبون على أنفسهم وعلى الآخرين

أيضـا، والذين يبـالغـون يحـاولون أن يتـغلبـوا على شئ فى داخلهم يعذبهم ويعانون منه، وهم يحاولون أن يظهروا أمام الناس بغير ما يشعرون به، ويخافون من اكتشاف حقيقتهم أمام الناس فيبالغون ويبالغون، لعل هذه المبالغة الشديدة تقنع الناس بأنهم صادقون.

والغريب أننى بعد سنوات طويلة تأكدت أن إحساسى تجاه هذه السيدة لم يكن بعيدا عن الصواب. وعرفت بعض الأحداث التى وقعت لها وأثبتت صحة نظرتى الأولى إليها، فقد أحبها رجل كان فنانا موهوبا، وبعد سنوات من المعاناة معها انتحر وفارق الحياة. ثم تزوجت من رجل فاضل رآها فى ضوء شخصيتها الخارجية الناعمة وأقتنع بما تظهره من لطف ورقة وعذوبة، ولكن هذا الزواج لم يدم سوى مدة قصيرة، وهرب الزوج، وأنهى تجربته مع هذه السيدة بالطلاق، ثم وقع فى حبها أديب عربى آخر، ليس من بلد هذه السيدة، وظل يمطرها برسائل مشرقة جميلة، فعاملته بمنتهى القسوة، ولم ترد على أى رسالة من رسائله، ولم تحاول أن توقف هذا الأديب بمصارحته بأنها لا تحمل فى قلبها حبا له، وأنها لم تتجاوب معه أبدا .. وتركته حائرا مشتعلا يعيش فى عذاب، كأنه يجرى وراء سراب، ولا يتعامل مع إنسانه لها قلب ولديها حرية التعبير عن نفسها كما تشاء.

والمشكلة هنا كلها تتركز فى المبالغة، فالمبالغة فى معنى من معانيها هى كذب وضعف وتشويه لكل العواطف الحقيقية فى حياة الإنسان، والمحبون الصادقون لا يمكنهم أن يقبلوا المبالغة أو

يتحملوها أو ينساقوا وراءها. والصدق فى العاطفة ليس بحاجة إلى المبالغة، ولا يتفق معها فى شئ على الإطلاق. الحب الصادق لإنسان أو لقضية من القضايا أو لوطن من الأوطان لا يجوز أبدا أن يلجأ إلى المبالغة، لأن المبالغة هى ستار كثيف من الدخان أو الضباب، وهو ستار يخفى ما وراءه من فراغ واضطراب.



يروى الزعيم الهندى الكبير "نهرو" فى قصة حياته حادثة كانت موضع تأمله الطويل، فقد أنشأ بعض الطلاب الهنود فى لندن فى أوائل العشرين جمعية لهم، كان من أعضائها "نهرو"، وكان عدد من هؤلاء الطلاب يناقشون السياسة الهندية بشكل بالغ التطرف، وكانوا دائما متحمسين يعبرون عن أنفسهم بصوت مرتفع. أما "نهرو" فقد كان قليلا ما يتكلم فى هذه الجمعية، ولذلك كان الطلاب المتحمسون يوجهوا إليه اللوم دائما بسبب صمته وما يبدو عليه من انعدام الحماس ورفض الخطابة المتشنجة، رغم ما هو معروف عنه من أنه مثقف وأديب قادر على التعبير عن نفسه بأجمل الكلمات.

ومرت الأيام، وعاد هؤلاء الطلاب ومعهم "نهرو" إلى الهند، فاكتشف "نهرو" شيئا عجيبا حيث يقول: "...لقد وجدت هؤلاء الذين كانوا متحمسين متطرفين فى لندن قد أصبحوا موظفين فى إدارة الانتداب الإنجليزية فى الهند، ولم يلعبوا فى الحركات السياسية الوطنية أى دور فعال. أين راح سخطهم على الإنجليز أين

ذهب حماسهم العنيف؟.. كل هذا قد تبدد على المكاتب الفاخرة التى أعدها لهم الإنجليز فى الهند".

والذى لم يقله "نهرو"، أنه وهو الصامت الذى لم يكن يتكلم كثيرا فى لندن، قد دخل معركة الهند بكل قوته بعد عودته من الدراسة فى إنجلترا، وتعرض للسجن والأذى سنوات طويلة، وكان نهرو فى طليعة حركة الاستقلال الكبرى، والتى كان قلبها هو غاندى، أما عقلها المفكر فهو "نهرو".. حيث كان نهرو يشارك فيها ويقودها ويضع حياته كلها فى خدمة انتصارها الكامل.

فالمتحمسون الصاخبون الذين كانوا يضربون الموائد بأيديهم.. كانوا هم فى الحقيقة أقل الناس عاطفة نحو الهند، كانوا مثل الطبل، يرتفع صوته، وهو من الداخل أجوف، أما "نهرو" فقد يحمل كان لبلاده عاطفة عميقة ومسئولة، وبسبب عمق هذه العاطفة فإنها كانت بسيطة لا تلجأ إلى الزخارف والمبالغات، وقد ظلت هذه العاطفة كامنة هادئة تنتظر الفرصة المناسبة لتظهر بقوتها الحقيقية فى الظروف القاسية والتجارب الكبيرة. أما العاطفة التى كان يعبر عنها هؤلاء الطلاب الهنود المتشنجون المتحمسون المسارعون إلى اتهام الآخرين، فقد كانت فى الحقيقة صورة من "حب النفس" ومحاولة إظهارها بأحسن مظهر، وقد اتخذت هذه العاطفة صورة جذابة هى حب الوطن... وكل محاولتهم العاطفية المتحمسة كان دافعها هو التظاهر، وإظهار تفوقهم أمام الآخرين. لقد كان هؤلاء الصائحون المتشنجون يريدون أن يكونوا أصحاب

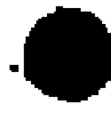
مظهر له تأثير وسحر حتى يعلو بذلك شأنهم، وترتفع أهميتهم الشخصية، وعندما جاءت التجربة الحقيقية فى الهند نفسها انكشف أمرهم أمام الجميع.

وهذا هو شأن كل عاطفة زائفة وغير ناضجة. أما العاطفة الناضجة الصادقة، فإنها تتحرر من العناصر الدخيلة المفتعلة، حتى تصبح عاطفة قوية سليمة قابلة للاستمرار والبقاء وحتى تعبر عن نفسها تعبيرا مناسبا.

وأرقى مقياس للعاطفة الصادقة هو ضبط النفس، حتى لا ينساق الإنسان وراء أوهامه ومشاعرة الأولية التى ينقصها النضج والتجربة. وحتى لو كانت هذه المشاعر عنيفة، فمن الأفضل أن يكون لها "لجام" يحد منها ويصفيها من الشوائب، ويقودها نحو هدف واضح وصحيح، بدلا من أن تكون جامحة عديمة الاتجاه تجرى فى أى طريق.

والاستسلام للعاطفة الزائفة _ كما يقول علماء النفس يترك فى نفوسنا انطباعات مزورة عن الأشياء الخارجية، كما أن الاستسلام للتزييف العاطفى هو نوع من خداع النفس، وهو إحدى درجات الضعف العاطفى. فصاحب العاطفة القوية الثابتة التى لا يصيبها تبدل وتغير سريعان ولا يلجأ أبدا إلى المبالغات أو يهتم بها، وإنما يفعل ذلك صاحب العاطفة المزيفة المشكوك فيها، فهو يلجأ إلى الزخارف والمبالغات والمظاهر الكثيرة التى تخلو من البساطة والوداعة. والبساطة والوداعة هما فى آخر الأمر علامتان للعاطفة الصادقة الناضجة.

هذا هو السبب الذى يجعلنا نرى هؤلاء الذين يعلنون عواطفهم بعنف ومبالغة، وهم يسلكون سلوكا مناقضا لعواطفهم الظاهرة التى أعلنوها من قبل، وذلك عندما يتعرضون لأول اختبار حقيقى عميق لتلك العواطف الزائفة.



وعلى أى حال فإن أمر العاطفة الكاذبة الزائفة مفهوم، ولكن هناك عواطف أخرى تقوم _ فى الأصل - على الصدق، ورغم ذلك فإنها تسقط فى المبالغة الشديدة، فتتحول بذلك من عاطفة نافعة إلى عاطفة ضارة مؤذية، يضيع ما فيها من صدق تحت تأثير المبالغة الشديدة، وقد كان من أجمل ما قرأت حول هذا المعنى قصيدة للشاعرة الفلسطينية "سلمى الخضراء"، وهى شاعرة عربيه كبيرة معروفة فى الخمسينات والستينات من القرن العشرين، ولكنها هجرت الشعر، بل هجرت العالم العربى كله، وتقيم الآن فى أمريكا حيث تعمل في بعض المؤسسات العلمية، ولا أعلم شيئا عن الظروف التى دفعتها إلى الهجرة من العالم العربى وقصيدة "سلمى الخضراء" عنوانها "عطاء"، وفى بداية هذه القصيدة البديعة تقول الشاعرة:

أنت معطاء

ولكن خفف الإغداق عنى

إنما يرهقنى غمر العطاء

إن بعض الجود ظلم وتجنى

وقيود وديون وعناء

إن بعض الجود أستار كثيفة

أسدلت تحجب عن أعيننا

كنز الضياء

وخبايا الأنفس السود العنيفة

إن بعض الجود زلفى ورياء

ثم تقول الشاعرة بعد ذلك:

أنت إن أعطيتنى ما أتمنى

تحرم القلب أفانين التمنى

وبماذا أتغنى

إن أنا نلت المحال؟

وردة الحب الرهيفه

إنما يتلفها فيض المياه

فأسقها من رائق المزن

رذاذات خفيفة

إن توخيت لها طيب الحياة

واهونى ما شئت أحلاما

ووجدا وآلم

إنما إياك.. لا تغدق سدى

إنما لا تتوله

فأنا قد أتأ له

تلك هى بعض مقاطع قصيدة "عطاء" العذبة، وفيها تقول الشاعرة إن الحب الذى يقوم على المبالغة هو "حب قاتل"، حتى لو كان فى أساسه حبا صادقاً، فإنه يفقد قيمته بالمبالغة والزخرف والإلحاح الشديد.

وهذا نموذج آخر..

ففى رواية "الساعة الخامسة والعشرون" للكاتب الرومانى "قسطنطين جيورجيو" وهى إحدى الروائع الأدبية التى تصور بصدق وعمق مأسى الحرب العالمية الثانية فى أوروبا ... فى هذه الرواية تفتح الصفحة الأولى فنجد البطل وهو يتهيأ لسفر بعيد، ورحلة طويلة، ويخفق قلب حبيبته البسيطة التى تشعر نحوه بعاطفة عميقة وصادقة، وهى تعلم أنها لا تستطيع تغيير قرار سفر حبيبها بعيدا عنها، رغم أن حياتها بدونه لا معنى لها ولا طعم، فحبيبها بالنسبة لها هو جمال الدنيا وعذوبة الحياة وروعة الطبيعة. وترجو الفتاة حبيبها أن ينتظر لحظات قليلة، فهى تريد أن تتحدث معه فى أمر مهم قبل أن "يرحل" وبعد تردد يستجيب حبيبها، ويجلس مع

حبيبته فوق العشب، ثم يسترخى قليلا ويستعد لسماع الكلمات المهمة التى تريد الحبيبة أن تهمس بها فى أذنه.. فما هو الشئ الذى تريد أن تقوله؟.. إنها تبتسم فى وداعة ثم تقول وهى تعبث بشعر رأسه:

"إن السماء صافية والنجوم جميلة...!"

وتواصل حديثا قصيرا من هذا النوع. لم تقل له إنها تحبه، ولم تتحدث عن رحلته الطويلة المقبلة، ولم تطلب منه أن يعدل عن هذه الرحلة، ولم تذرف دمعة.

كل ما قالته هو كلمات بسيطة مبعثرة أرادت بها أن تقضى مع حبيبها لحظة... ومن خلال هذه الكلمات البسيطة نشعر كم كانت تحبه بدون أن تقول كلمة حب واحدة.

إن أقصى ما كانت تتمناه هى أن تقضى مع حبيبها لحظة إضافية.. فهذه اللحظة التى لا أهمية لها من الناحية الزمنية، لها أهمية كبيرة من الناحية النفسية.

إنها لحظة ثمينة غالية ملأتها الحبيبة بعبارات مثل: السماء صافية والنجوم جميلة. ويرحل الحبيب بعدها، وتشعر الفتاة كأنها حققت شيئا له قيمة.

تلك هى العاطفة الصادقة.. تعبر عن نفسها دون صخب أو ضجيج وبأبسط الصور والكلمات وبعيدا عن كل المبالغات.

كان الكاتب الأمريكى "ثورو" يقول: اختصر.. اختصر.. فالإنسان يجب أن يعيش حياة بسيطة وعالية الهدف فى الوقت نفسه" وما

يدعـو إليـه "ثورو" من "الاختصار" فى التعبير عن النفس، وتصوير مشاعرها الحقيقية، والابتعاد عن المبالغات فى كل شئ... هذه الدعوة هى مفتاح من المفاتيح الأساسية للحياة السليمة الخالية من الافتعال والكذب، وعندما تقول الفتاة المحبة للإنسان الذى يعيش فى قلبها: إن السماء صافية والنجوم جميلة... فهذه الكلمات أقرب فى التعبير عن العاطفة الصادقة من كل أنهار الدموع، وسيل الكلمات المزخرفة المليئة بالمبالغات الكاذبة.

لماذا لا أصفق..؟

فى مقال قديم طريف للدكتور زكى نجيب محمود، يروى لنا المفكر الكبير الراحل كيف استطاع أن يتحكم فى حياته، وأن يقوم بتغيير شخصيته تغييرا كاملا عاد عليه بالنفع والنجاح ، حيث يقول: "كنت فى شبابى حاد الانفعال قوى العاطفة، خصوصا إذا كان فى الأمر اختلاف على رأى، فمهما كان الموضوع الذى يدور حوله الجدل، فقد كنت أدافع عن فكرتى فيه بحرارة ملتهبة مشتعلة، كأن الحياة كلها ترتكز على صواب فكرتى. وكنت شديد الحزن إذا خسرت فى اللعب، شديد الفرح إذا فزت فيه، وكانت عروقى تغلى بدمائها أياما طويلة إذا ما غضبت لاهانة لحقتنى ولم أستطع ردها، كما كان دمى يوشك أن يتجمد كلما أصابتنى خيبة فى رجاء كنت أرجوه" . هذا ما كان عليه "الشاب" زكى نجيب محمود فى بداية حياته، ولكنه تنبه إلى أن موقفه العاطفى المشتعل من

الحياة يسئ إليه ويؤذيه، وهو موقف يؤدى إلى تعطيل قدرته على التفكير الصحيح، ولذلك دفع نفسه دفعا إلى مرحلة جديدة فى حياته لم يخرج عليها حتى النهاية.

هذه المرحلة الجديدة يصورها الدكتور زكى نجيب بقوله: "لقد علمتنى الحياة برودة العواطف. وعلمتنى أن العاطفة الحادة معناها عجز فى قوة التفكير. فعندما يتضح الأمر الذى بين يديك وضوحا يزول معه الشك والغموض، فأنك سوف ترى أن عاطفتك قد أصابها البرود أزاء هذا الأمر، ولذلك لا تشتعل العواطف بين المختلفين على نظريات العلوم. وإنما تشتعل إذا كان موضع الخلاف فى الرأى موضوعا غامضا مبهم المعالم كالمذاهب السياسية وغيرها".

ثم يقول الدكتور زكى نجيب: "نعم... إن لذة الحياة قد نقصت حين بردت العواطف فى نفسى، لكن آلام الحياة كذلك قد نقصت تبعا لذلك، ولست أتردد فى أن أختار القليل من اللذة والألم معا، على الكثرة منهما معا. فإذا لم تعد لى لذة الحب العنيف الذى يتمتع بها الشباب، فأننى إلى جانب ذلك مستريح البال من أوجاعه وآلامه. ولئن كان الشباب يعرف الحب، فالشيخوخة تعرف كيف تكون الصداقة. وما الصداقة إلا حب هدأت فيه العاطفة، وزالت عنه شرورها. والتزام الواقع فى هدوء بعيدا عن صخب العاطفة وصراخها، هو بعينه ما نسميه بخبرة الحياة. وما أغزر الدماء التى أراقتها حروب العواطف الوطنية والدينية والنزوات الفردية. وكم

كان الناس يكونون سعداء فى فردوس أرضى لو هدأت عواطفهم بين جنوبهم، فلم تدفعهم دفع الضلال الأعمى".

ثم يروى الدكتور زكى نجيب هذه القصة الطويلة البسيطة فيقول: "لقد كنت ذات يوم أنظر مع صديقة لى إلى ألعاب بهلوانية أجاد فيها اللاعبون، حتى إذا ما فرغوا من ألعابهم صفق الناس لهم تصفيقا يمزق الكف. لكنى جلست ساكنا ولم أصفق، فسألتنى صديقتى: لماذا لم تصفق مع الناس؟ فأجبتها قائلا: أنها خبرة السنين..!".

وهكذا استطاع الدكتور زكى نجيب أن يغير من شخصيته، فبعد أن كان رجلا سريع الانفعال مشتعل العاطفة، حاد المشاعر، أصبح إنسانا آخر يسيطر عليه الهدوء والتحكم فى عواطفه، واستخدام عقله قبل أى شئ آخر، وقد اختار الدكتور زكى نجيب أن يسمى المرحلة الجديدة الناضجة فى حياته باسم "البرود العاطفى".. وأظن أنه كان يقصد بذلك "ضبط النفس"، إذ أن "ضبط النفس" هو الفضيلة الحقيقية التى يحتاج إليها الإنسان، أما "البرود العاطفى" فهو صفة سلبية ليس من المفيد أن يلتزم بها أحد. ولو كنت مكان الدكتور زكى نجيب عندما شاهد البهلوانات يقدمون أعمالا مثيرة للإعجاب لصفقت لهم كما صفق الناس، إذ أن إظهار الإعجاب بالتصفيق لمن يستحقون ذلك هو أمر طيب وضرورى، لأنه جزء من فضيلة "التشجيع" الكريمة، وهى فضيلة تحتاج الحياة إليها، ويحتاج إليها الإنسان. على أن الحكمة الأساسية والصادقة

فى تجربة زكى نجيب محمود تتفق تماما مع "ضبط النفس" والتحكم فى العواطف وعدم الاستسلام لها. وضبط النفس لا يتم بدون استخدام العقل، ولا شك أن ا لحضارة الغربية الحديثة التى سيطرت على الدنيا كلها قد قامت على "العقل" قبل أن تقوم على "العاطفة"، وقامت على الاعتراف بالواقع والتفكير الدقيق فيه قبل أن تقوم على "العواطف الغامضة والعنيفة"، بينما تعرضت الحياة فى معظم بلاد الشرق لفترات طويلة متصلة لتأثير العواطف والخيالات والأحلام فأصيبت هذه البلاد فى شرق الأرض للتخلف الذى جعل منها فريسة سهلة للآخرين. وحياة الأفراد مثل حياة الشعوب، فالذين يستسلمون لعواطفهم العنيفة الحادة، ويضعون عقولهم فى المرتبة الثانية يخسرون معركة الحياة، ويتعرضون لكثير من الآلام والمنغصات والمتاعب. والحقيقة أن العقل لا يلغى العاطفة ولكنه يجعلها نقية صافية، ويقودها قيادة سليمة ناجحة.

على أننا مع ذلك كله سوف نجد أن "العقل" ينبغى أن يكون عقلا نشيطا متحمسا، وكلمة "الحماس" هنا تعنى الإرادة وقوة العزيمة والرغبة المستمرة فى النجاح والتقدم، والإصرار على مواجهة آلام الحياة فى صبر وشجاعة، ولذلك فإن بعض المفكرين يعتبرون أن قوة الإنسان تكمن فى كلمة واحدة هى "التحدى". فالتحدى هو الذى يعطينا الإحساس بالحيوية والنشاط والسعادة، وهذا هو ما يدعو إليه الكاتب الأمريكى "جيمز أولمان" فى مقال له عنوانه: "الانتصار.. بالتحدى" حيث يقول": سئل جورج لى ماليرى أعظم متسلقى الجبال من الإنجليز عن السر فى رغبته الملحة وجهاده

القـوى كى يتسلق قـمـة جبل "افـرست"، فلم يكن جـوابه إلا هـاتين الكلمـتـين" .. لأنهـا هناك" .. وتصـور بعض النـاس أن إجـابتـه هذه غامضة، ولكنها فى الحقيقة شديدة الوضوح والدلالة على المعنى الصحيح، فهذه الإجابة تنطوى على بديهية أساسية"، لا بالنسبة له بل لكل إنسان.. ها هو ذا جبل فحاول أن تتسلقه.. ها هو ذا محيط فتقدم لعبوره.. وهذا مـرض مزمن عليك أن تعالجـه. وهذا خطأ يجب عليك أن تقوم بتعديله. أن الأشياء قد تختلف فى مظاهرها السطحية اختلافا كبيرا، ولكنها فى جوهرها متطابقة، ويمكننا فى حديثنا عن معـركة الإنسـان فى الحيـاة أن نحذف هـذه العبـارات المـختلفـة ومـئـات غـيـرها وأن نضـع بدلا منهـا لفظا واحـدا هو: التحدى. أمامك ما يتحداك، وعليك أن تقبل التحدى.. ورد الفعل الذى يثيـره التـحـدى فى النفس هو جـوهـر الطبـيـعـة الإنسـانيـة وينبوعها الصافى. ولا ريب أن رحلة الإنسان تستحق ما ننفقه فيها من جهد، فالحياة عزيزة على الأحياء، وإذا كانت رحلة الإنسـان لا حد لها، فكذلك ا لتحدى والجهاد.. لا حد لهمـا أيضا. ومـا دمنا نقبل التحدى فلن نضيع أبدا، لقد كسب الإنسـان النصـر فى تسلق قمة "افرست" كما انتصرنا ألف مرة غيرها، وبعد ذلك أمامنا قمم جديدة.. أمامنا مـرتفعات وأعمال جديدة.. أمامنا ميادين جديدة للتـحـدى، وسـوف نواجـه هذا التـحـدى بطريقـتنا التى لا تخلو من تخمين وخطأ وعناد، لأن هذه هى طبيعتنا التى فطرنا الله عليها.. ليست القمة بذات بال.. ولكن المهم هو الجهاد للوصول إليها. ليس المهم هو هدف الحياة، ولكن المهم هو الحياة نفسها".

تلك هى كلمات الكاتب الأمريكى "جيمز أولمان"، وهى كلمات جميلة وصحيحة. فالحياة تفرض علينا التحدى المستمر. ومهمتنا الأساسية هى أن نستجيب لهذا التحدى، وأن نبذل جهدنا بقدر ما نستطيع، وأن نغير أنفسنا إذا اكتشفنا فيها أى خطأ، كما أكتشف زكى نجيب أنه مسرف فى عواطفه فقام بتغيير نفسه ليكون خاضعا لقوة عقله.

وهذا الجهد الذى نبذله، حتى ضد أنفسنا أحيانا، هو الذى يعطينا الحيوية والنشاط والسعادة، وإذا لم نحقق الهدف الذى نريده، فسوف يبقى لنا شعورنا بأننا تعبنا واجتهدنا وحاولنا، وسوف يعطينا هذا الشعور كثيرا من الرضا والسعادة، ولذلك فعلينا أن نقول لأنفسنا دائما: "... حاول.. ولا تعترف باليأس"، فاليأس صورة من صور الموت.

وإذا أردنا أن نجمع خيوط الأفكار التى يمكن أن تساعدنا على مواجهة متاعب الحياة ومصاعبها فسوف نجد أمامنا فكرتين أساسيتين، الأولى هى: ضبط النفس والسيطرة على المشاعر الحادة، واستخدام العقل قبل الاستسلام للعاطفة. والثانية هى: فكرة التحدى. والتحدى ليس معناه العناد أو الدخول فى صراعات وتعقيدات شخصية متكررة مع الناس، بل التحدى فى معناه الجميل هو مواجهة المشاكل وعدم الهروب منها، وعلينا بعد ذلك أن نجاهد ونجتهد، وألا ندع الأيام تفر من أيدينا دون أن نعمل، فالإيمان بالعمل هو مصدر كبير للسعادة، وهو الرد الصحيح على التحدى

والذين يعملون بانتظام وصبر هم قليلا ما يعرفون معنى التشاؤم، لأنك وأنت تعمل لا تجد وقتا للتشاؤم، وكلما تقدمت فى العمل، حتى لو كان عملا بسيطا، وجدت نفسك أسعد وأكثر تقبلا للناس والحياة. وليس المهم نوع العمل الذى يقوم به الإنسان، فقد يكون عملا بسيطا متواضعا. والناس فى هذه الدنيا ليسوا جميعا من ذوى المناصب المهمة والمسئوليات الكبيرة اللافتة للنظر. و"العمل" مهما كانت قيمته متواضعة مع الحرص الكامل على الإتقان. فأنه يعطى للإنسان قيمة كبرى، إذا ما تعود الإنسان على احترام عمله وأدائه بصورة جيدة مع الحرص الكامل على الإتقان.

وكل هذه التجارب والكلمات التى أشرت إليها فى هذا الفصل هى من كتاب، جميل قديم عنوانه" علمتنى الحياة "بأقلام مفكرين من الشرق والغرب، وقد أشرف على إصداره الدكتور أحمد أمين، وهو من الكتب التى أضعها قريبة منى دائما.

إذا كنت سعيدا .. فاعترف!

قرأت يوما مقالا جميلا وقصيرا لموسيقار أمريكى معاصر هو "أوسكار هامر شتين" وكان عنوان المقال: "... إننى رجل سعيد". وقد وقفت أمام العنوان فى دهشة، فالسعداء عادة لا يتحدثون عن سعادتهم بصراحة أمام الناس أو فى مقالات أو كتب، وعلى العكس من ذلك فإن الذين لا يشعرون بالسعادة هم أصحاب الصوت الأعلى. الموسيقار الأمريكى نفسه يبدأ مقاله بالحديث عن هذا المعنى فيقول: "أن مذهبى فى الحياة يختلف تماما عن مذاهب كثيرين من الناس، فأننى رجل استقر فى يقينى أننى سعيد، والذى يجعل اعترافى بذلك مخالفا للمألوف هو أن الإنسان السعيد قلما يفضى للآخرين بالحديث عن سعادته، على حين أن الإنسان الشقى كثير التصريح والإفضاء بأمور نفسه، فلن تراه إلا وقد سيطر عليه غرام بأن يعد على الزمان عيوبه. ويبدو أن الأقدار قد منحت كل

من يعانى من الشقاء موهبة يستطيع بها أن يجتذب أكبر عدد من المستمعين".

ثم يقول الموسيقار الأمريكى: ".. لعل من مآسى العصر الحديث أن يجد اليأس كثيرا من الناطقين باسمه، على حين لا يجد الأمل شيئا من ذلك، لأن صوت الأمل ضعيف والناطقون باسمه قليلون".

ويندهش الموسيقار الأمريكى نفسه من اعترافه بأنه "رجل سعيد" ويقول فى ذلك: "كيف تمكنت من الوصول إلى الإحساس بأننى رجل سعيد؟ لقد قضى الموت على كثير ممن أحبهم، وحرمنى من وجودهم، وتعرضت بعض أعمالى التى بذلتها فى اجتهاد شديد وإخلاص كامل للفشل، وكثيرا ما خيبت أنا ظن الناس بى، بل وكثيرا ما خيبت أنا ظنى فى نفسى. وأكثر من هذا فإننى أعلم أن سحابة كثيفة من الصراعات العالمية تنتشر فى السماء، وقد تتفجر هذه الغمامة فتمطر الأرض بوابل من قنابل ذرية تعصف بحياة الملايين وفيها حياتى أيضا".

"ولا شك أننى أستطيع أن أبنى من هذه الدلائل الواضحة سببا قويا أتعلل به إذا ما زعمت أننى غير سعيد على الإطلاق".

ومع ذلك فهذا الرجل الذى يملك قائمة طويلة من الأسباب التى تبتعد به تماما عن "شاطئ السعادة" مصمم تمام التصميم على أن يقول إنه مع ذلك كله "رجل سعيد".

وهو يرى أنه لو اكتفى باستعراض آلامه ومخاوفه فقط، وخرج من ذلك بأنه رجل غير سعيد، فإنما يكون قد رسم صورة "مزيفة

ومخالفة كل المخالفة للصدق" وهى صورة يمكن أن تشبه فى زيفها صورة نرسمها للشجرة كما تبدو فى الشتاء فحسب.. "ولو أننى فعلت شيئا مثل ذلك أكون قد أغفلت عرفانى بكثير من، وجوه النجاح التى لاحت لى فى كثير من لحظات الفشل التى مرت بى. وأكون قد استبعدت تماما إيمانى بأن الخير الكامن فى الإنسان سوف ينتصر فى النهاية على الشر الذى هو منبع للصراعات والحروب.

وهذه الجوانب المضيئة لها فى نفسى نصيب يعدل أو يزيد على جوانب الهم المعتمة".

ويواصل الكاتب الموسيقار تحليل إحساسه بالسعادة، فيقول أن هذا الإحساس مستند على أمرين، الأول هو الاعتراف بأن الحياة قائمة على "صراع بين الخير والشر"، ومن يحاول أن يتجاهل هذا الصراع أو ينكره فإنه سوف يلقى بنفسه فى بحر من الشقاء والتعاسة، فهذا الصراع موجود ومستمر ولا حيلة لنا فيه، وعلينا أن نعترف به ونسلم بوجوده ما دامت الحياة مستمرة ولا يمكننا أن نتصور الحياة قائمة فقط على الفضيلة والجمال والنجاح والضحك وأنها خالية تماما من الرذيلة ولحظات الفشل والبكاء. وأى إنسان ينكر وجود "الصراع بين الخير والشر" وينتظر عالما خاليا من هذا الصراع إنما يورد نفسه موارد التهلكة ويدفع بها إلى أن يعيش فى كآبة موحشة".

وإلى جانب الاعتراف بالصراع بين الخير والشر فهناك فكرة أخرى ساعدت الكاتب الموسيقار على أن يقول عن نفسه أنه "رجل

سعيد"، فهو يؤمن أنه لا يستطيع أن يحقق السعادة لنفسه إلا "إذا استطاع أن يعترف بما فى هذا العالم من وجوه النقص الكامنة فيه، وأن يتقبل هذه الحقيقة رغم أنها شديدة المرارة. فعلى الإنسان أن يعرف ويعترف أنه غير قادر على الكمال، وأن الفنانين من البشر غير قادرين على الكمال، ومن سذاجة الطفولة أن نجعل وجوه النقص فى الحياة سببا فى تقويض أسباب السعادة المتاحة لنا، وسببا فى القضاء على رغبتنا فى أن نواصل رحلتنا فى هذه الدنيا".

ثم يقول الكاتب الموسيقار:

"إن الطبيعة أقدم من الإنسان عمرا، ومع هذا فأنها ما زالت بعيدة عن الكمال، ومواسم الصيف القاسية فى الطبيعة توافينا على موعد لا تخلفه فى الحادى والعشرين من يونيو كل عام[1]. والحشرات والزواحف كثيرا ما تبتعد عن الأهداف النافعة والواضحة للطبيعة، فتقوم بالتهام الاوراق والبراعم التى تكسو بها الطبيعة حقولها وحدائقها بأثواب من الجمال، وعندما يصيب الجفاف الأرض لمدى طويل فإن الطبيعة تبعث إليها بمطر غزير يحيى مواتها.. ولكن كثيرا ما يتحول هذا المطر إلى سيول يبلغ من شدتها أن تضر أكثر مما تنفع، وأن تقتلع من النبات أكثر مما تزرع".
"ومع ذلك فإن الطبيعة ـ على كل حال ـ ماضية على مدى السنين فى طريقها الذى لا يخلو أبدا من وجوه النقص وعلى الرغم مما

---

(١) هذا ما يقوله الكاتب الموسيقار عن موعد بداية الصيف في بلاده. أما في مصر فالصيف القاسي يبدأ من أوائل مايو.

نحصيه على الطبيعة من الذنوب والأخطاء ووجوه النقص فإن معجزة الحياة ما زالت مستمرة".

وهكذا فإن هذا الكاتب الفنان يقول لنا أنه قد حصل على سعادته من اعترافه بوجود صراع مستمر بين الخير والشر، وتسليمه بهذا الأمر دون الشعور بالضيق أو اليأس، وأنه من ناحية أخرى يعترف بالنقص الكامن فى الحياة والإنسان والطبيعة، ورغم هذا النقص فإن الحياة معجزة، وهذه المعجزة مستمرة فى مقاومة الشر والنقصان. ولن تتوقف هذه المعركة التى بدأت حتى قبل ظهور الإنسان على الأرض وينتهى هذا الرجل السعيد بالقول: "إن من الحمق بالنسبة لأى إنسان أن ينكر مثل هذه الحقائق، وأن يتجنب السير فى طريق الحياة وهو يعرف أنه طريق محفوف بالنقصان، وعلى الإنسان أن يحمل أخطاءه ومظاهر نقصانه، وأن يمتطى ظهر تلك العاصفة القاسية المحيرة والجميلة المثيرة فى نفس الوقت، وهى عاصفة الحياة".

وهكذا فإن الرجل قد عاش راضيا عن حياته، واعترف اعترافا يندر أن يعترف به أحد، حيث يقول ".. أننى رجل سعيد".. وعندما أخذ فى تحليل أسباب سعادته، فقد كان واضحا أمامه أن حياته لم تكن خالية من الهموم والمتاعب الصعبة، ولكنه مع ذلك وجد سعادته فى إقامة حياته على أساس من الاعتراف بالواقع، وعدم الإنسياق وراء الخيالات والأوهام، فالسعادة جميلة، ولكنها ليست سهلة، والوصول إليها يقتضى منا أن نخوض بحارا من المشاكل،

ونتحمل الآلام ونصبر عليها، ويقتضى منا أيضا ألا نهرب إلى اليأس والإحباط عند أول عقبة تلوح أمامنا وتبدو لنا. وما أجمل تصوير الكاتب للحياة بأنها "عاصفة" وأن علينا أن نعيش فى هذه العاصفة، ونحاول بالجهد والمثابرة والسيطرة على النفس أن نحنى منها وهذا الجهد وهذه المثابرة ضد "عاصفة الحياة" هما الطريق الوحيد إلى أن يحقق الإنسان سعادته، وليس هناك طريق آخر.

تلك كانت طريقة الكاتب والموسيقار فى الحصول على السعادة. ومع ذلك فالسعادة لها طرق أخرى متنوعة، وهذه الطرق تتعدد بتعدد الذين يبحثون عن السعادة. وهذا رجل سعيد بطريقة أخرى مختلفة وأسمه "جيك زايتلن"وهو "مؤلف ومحاضر وناشر معروف، وأحد أصحاب المكتبات التى تبيع الكتب النادرة فى جنوب كاليفورنيا" وتجربة هذا الرجل فى البحث عن السعادة والوصول إليها تجربة مليئة بالبساطة والجمال، وسعادته هى أيضا نابعة من معتقداته التى تتصل بسلوكه ونظرته إلى الحياة. فكيف وصل هذا الرجل إلى ما يريد، وكيف أصبح إنسانا سعيدا ؟

يقول "زايتلن": ".. أنى أثق فى النظام المثمر الذى ينبعث من النفس، وهناك من الشعراء والفلاسفة من يحاولون إقناعنا بأن الحياة ما هى إلا "باطل الأباطيل" وقبض الريح" وأن مصير الإنسان فى هذه الأرض محتوم. وأنا لا أقبل هذا المنطق ولا أرضى أن أرسم خطة حياتى على أساسه، ولو أننى وثقت أن نهاية الألم بعد عشرة أيام لبدأت على الفور فى أن أبنى دارا أو أكتب قصيدة من الشعر".

"أنى أعتقد أن من واجبى أن أحتمل نصيبى من المسئولية عما يصيبنى من الأحداث. وأنا أثق بالكرامة الإنسانية وأن هذه الكرامة تستحق أن أتمسك بها إلى حد أنى لا يمكن أن أفرض على غيرى ما يمس كرامته. و "الخوف" هو ألد أعدائى، ويليه الكبرياء المقترنة بالغرور والخيلاء، وهذا النوع من الكبرياء يقترن عندى بالسخف. وأذكر عبارة سمعتها وأنا صبى من رجل كبير كان يحذرنا من الخوف حيث قال لى ولمجموعة من الأولاد فى سنى: "أيها الأولاد.. أن الناس يستطيعون أن يقتلونا ولكنهم لن يستطيعوا أن يأكلونا"!! وليس من المبادئ التى أؤمن بها أن أرد الإهانة الموجهة لى بمثلها. فلا أحد يستطيع أن ينقص من شأنى، ولكنى أنا وحدى الذى أستطيع أن أنقص من شأن نفسى، وعلى ذلك فإن الذى يحاول أن يسلب منى كرامتى لن يستطيع ذلك أبدا، لا بالتهديد ولا بالإهانات ولا بالنفاق. وأنا أعتقد أن الابتسامة العذبة خير من التكشيره". ولقد تعلمت الضحك من زوجتى "الهولندية" تلك التى عاش أجدادها فى هناء وسعادة تحت سماء ملبدة بالغيوم الدائمة. فهذا الجو القاتم بصورة دائمة لم يحرم أهل هولندا من أن يكدحوا فى حياتهم ويعيشوا مع ذلك ضاحكين سعداء".

ثم يقول هذا الرجل السعيد والمصمم على الاحتفاظ بسعادته:

"أن مهنتى كبائع كتب هى مظهر عملى لما أؤمن به وأعتقده.. فأنا أقضى نهارى وليلى مع الكتب ومع الذين يحبون الكتب. ومع كل ما يريد الناس معرفته وكل ما يقوم بتخليد آثار حياتهم وتاريخهم.. كل ذلك له قيمة عندى. وكل كلمة جميلة يتم طبعها سوف تعيش وتبقى

خالدة رغم أحكام الاستبداد وإحراق الكتب والرقابة وتغير الأذواق. وكلما بعت كتابا لأحد من الناس شعرت بالسعادة، لأنى نقلت إليه شيئا ثمينا، كما أنى نلت الربح الذى أستحقه. وخلاصة معتقداتى هى فى منتهى البساطة. فأنا أؤمن بأن عقلى يجب أن تكون له السيطرة على حياتى، وعندى ميل يقترب من الإيمان بأن العقل فى طريقه إلى السيطرة على تصرفات الناس. وأؤمن مع "جيفرسون" ـ الرئيس الثانى لأمريكا ـ أن محاولة "التحكم" فى عقول الناس وحياتهم هى محاولة قائمة على الشر. ولذلك فأنا أتجنب فرض إرادتى أو فلسفتى على غيرى".

هذه ألوان من الأساليب التى يستخدمها بعض "الرجال السعداء" فى البحث عن سعادتهم، وهى أساليب بسيطة، وكلها تبدأ من المراجعة والتأمل وقدرة الإنسان على المصالحة مع نفسه. ولو أننا استخدمنا هذه الأساليب البسيطة التى استخدمها هؤلاء الرجال السعداء، لعرفنا طريقنا إلى الينابيع الصافية للسعادة. وعلينا أن نعترف بما توصل إليه هؤلاء الرجال السعداء. فنؤمن بأن الصراع بين الخير والشر مستمر على الدوام، وأن الحياة والطبيعة لا يعرفان الكمال النهائى، وأن فرض إرادتنا وآرائنا على الآخرين شر، وأنه لا أحد على هذه الأرض يملك الحق أو يستطيع أن يوجه الإهانة لإنسان آخر، والوحيد القادر على إهانة الإنسان هو.. نفسه.. وأخيرا فعلينا أن نتأمل كثيرا تلك الكلمة الرائعة لأحد هؤلاء الرجال السعداء عندما يقول ".. لو أصبحت واثقا أن نهاية العالم بعد عشرة أيام لبدأت فى بناء دار أو كتابة قصيدة شعر".

أفضل ما يقودنا إلى السعادة أذن هو: العمل. وليس مهما أن يكون العمل كبيرا وخطيرا، فكل عمل مهما كان شأنه له قيمته، وهو مصدر حقيقى للسعادة التى نبحث عنها.. المهم أن نؤدى هذا العمل بإخلاص وأمانة و .. إذا كنت سعيدا فاعترف بذلك وتحدث عنه، فالسعادة لها إشعاع يؤثر فى الآخرين. والسعيد الذى يعترف بسعادته قد يسعد غيره ويضئ له الطريق.

وكل النصوص الواردة فى هذا المقال لهؤلاء الرجال السعداء المعترفين بسعادتهم مصدرها كتاب "علمتنى الحياة" الذى أشرت إليه فى الفصل السابق وقد أشرف على إصداره وترجمته الأديب والمفكر الكبير الراحل أحمد أمين.

عبقرية التسامح

من أعظم الفضائل عند أى شعب من الشعوب فضيلة "التسامح"، فالتسامح هو الذى يتيح فرصة للرد على الخطأ والقضاء عليه بالبرهان والدليل، والتسامح هو الذى يعطى للصواب قوته وقدرته على الامتداد وتحقيق النصر، دون أن تسيل الدماء، ودون أن تتعرض النفوس لأى إهانة تصيبها وتؤدى بها إلى الهروب والعزلة والانسحاب.

هل يتصور أحد ماذا كان يمكن أن يحدث فى التاريخ العربى القديم، لولا موقف النبى عليه السلام حين دخل مكة فى "عام الفتح" وسأل أهلها :ما تظنون أنى فاعل بكم؟

فقالوا له فى خوف وكرب شديد : أخ كريم وابن أخ كريم، فإذا بالنبى يقول لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء!

كان النبى يستطيع أن يتيح الفرصة الكاملة للعقاب والثأر، ممن نالوا منه ومن المسلمين بالأذى الشديد، ولم يدخروا وسيلة للقتل ومصادرة الأموال والحرب المعنوية، إلا واستخدموها ضد الرسول ومن آمن به وبرسالته، ومع ذلك لم يتردد الرسول الكريم لحظة واحدة فى رفع راية "التسامح" ليعيش الجميع فى ظلها، بل وبلغت عبقرية "التسامح" عند النبى إلى الحد الذى جعله يقول فى نفس الموقف: من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن.

ومن هو أبو سفيان؟

إنه العدو الأول للإسلام منذ أن أشرق نوره على الدنيا حتى يوم فتح مكة.

كان النبى الكريم فى هذا الموقف يعبر عن أصالة أخلاقه، وسمو صفاته الإنسانية، التى قال عنها القرآن الكريم "وأنك لعلى خلق عظيم".

ولكن النبى من ناحية أخرى، كان فى هذا الموقف رجل سياسة ودولة من الطراز الأول، وكان ينظر إلى المستقبل نظرة فيها بصيرة ونفاذ ووضوح، فلو أنه عاقب واشتد فى العقاب؛ لأنقسم العرب بعده، واستمروا فى الثأر من بعضهم البعض، ولما استطاعت القبائل التى قام بتوحيدها فى شعب ودولة، أن تحمل راية العروبة والإسلام من بعده إلى أقصى بلاد الدنيا، فالتاريخ يسجل للأمويين أبناء أبى سفيان، أنهم حملوا الراية العربية الإسلامية إلى قلب آسيا، ووصلوا بها إلى الهند، وحملوها إلى غرب أفريقيا كلها،

وعبروا البحار وحملوا الراية إلى الأندلس، فالأمويين، أبناء أبى سفيان، هم الذين أنشأوا "دولة الأندلس"، وجعلوها أعظم وأجمل دولة فى الدنيا فى عصرها.

فلو كان النبى قد أنشأ المحاكم لإعدامهم وعقابهم على ما فعله زعيمهم أبو سفيان، فهل كان بالإمكان أن يحمل الأمويون هذه الراية، أو يلعبوا هذا الدور التاريخى النادر فى توسيع رقعة الدولة العربية، وتدعيمها، وفرض سيادتها على الدنيا فى أزهى عصر من عصور الحضارة الإنسانية؟

وأسارع هنا فأقول أن للأمويين أخطاءهم الكبيرة، بل ولهم جرائم تاريخية مثل جريمة مقتل سيد الشهداء "الحسين بن على" فى "كربلاء". ولكننا هنا نتحدث عن المسيرة العامة للتاريخ، وفى هذه المسيرة فإن للأمويين وغيرهم من أهل مكة دور نادر فى التاريخ العربى، ما كان بالإمكان أن يقوموا به أو يؤدوه لولا عبقرية "التسامح" عند الرسول الكريم بعد فتح مكة، ولولا كلمته الخالدة التى قال فيها: "أذهبوا فأنتم الطلقاء"!

أى أنه لن يحاسب أو يعاقب على ما كان وما مضى.

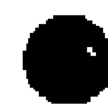
وهو لن يفتح الجراح القديمة، ولن يقيم محاكم للثأر والتنكيل بالمخطئين فى أيام سابقة، فقد أنتصر النبى وارتفعت رايته الكريمة.. وعند النصر لا أعداء.

التسامح فضيلة كبرى، وهو قوة مؤثرة فى حركة الحياة. والشعوب التى تعرف التسامح وتأخذ به، وتعتمد عليه تتجنب كثيرا

من المعارك، وتحمى مستقبلها من المشاكل التى يمكن أن تترتب على الشدة والعنف والثأر والخلاف حول صغائر الأمور، والإصرار على فتح الصفحات القديمة والوقوف أمامها والغرق فيها.

التسامح فضيلة وقوة حضارية هائلة تقود الشعوب التى تتحلى بها إلى النهضة والتقدم والسيادة واختصار الوقت والجهد والقفز فوق الحواجز والسدود.

وكل ما هو عكس التسامح هو قتل لروح الشعب، وإضعاف لقدراته، وقضاء على كل قوة معنوية محركة له فى داخله.



وأترك هذا الحديث العام لأتعرض لواقعة محددة فى تاريخ الفكر العربى، هى محاكمة الفيلسوف والطبيب العربى الأعظم "ابن رشد"، الذى يعتبره الأوروبيون حتى الآن أحد العقول الكبرى التى ساعدتهم على تحقيق نهضتهم الكبرى، فأبن رشدهم الذى علمهم كيف يحترمون "العقل" ويعتمدون عليه فى فهم أمور حياتهم، وأقنعهم بصورة قاطعة، بأنه لا تناقض بين "العقل والإيمان" أو بين "الفلسفة والدين".

أسمه بالكامل "أبو الوليد محمد بن رشد". ويقول عنه الدكتور "فيليب حتى "فى كتابه" "صانعو التاريخ العربى":

"فى القرن الخامس عشر الميلادى، وهو القرن الذى تميز بظهور الطباعة، ظهر فى مدينة "البندقية" أكثر من خمسين طبعة لأعمال ابن رشد مترجمة إلى اللغة اللاتينية.

وفى العقد السابع من هذا القرن نفسه "١٤٦٠-١٤٧٠ "ظهرت فى مدينة "بادوا" الإيطالية ثلاث طبعات لمؤلفات ابن رشد الرئيسية، وعمت "الرشدية" البلدان الأوروبية، وأصبحت درسا رئيسيا فى مناهج الدراسات الجامعية، وحركت الفكر الأوروبى على مدى ثلاثة قرون، كما لم تحركه حركة فكرية أخرى".

هذا عن أثر "ابن رشد" فى أوروبا ونهضتها، التى وصلت بها إلى ما هى عليه الآن، أما صورته الإنسانية فهى جديرة منا بأن نلتفت إليها ونتأملها، وهذا ما يقوله أيضا عن "ابن رشد" المؤرخ الكبير فيليب حتى، وهو عربى انتقل إلى أمريكا ولمع فيها وأصبح من كبار علمائها ومؤرخيها:

كان "ابن رشد" رجلا شغوفا بطلب العلم، وكان عفيفا إلى درجة التقشف، متواضعا لا يطلب شيئا لنفسه، قانعا بعيشه، زاهدا فى السلطان، ويقال عنه أنه لم يترك القراءة والدرس والبحث من صباه حتى وفاته، إلا ليلة وفاة أبيه وليلة زواجه. وفى صباه كتب شعرا فى الحب والغزل، ولكنه أحرقه فيما بعد. وواضح أنه لم يكن يشبه زملاءه فى الغطرسة، التى كان معظمهم يتميز بها. وكان كريما إلى حد الإسراف فى كرمه. وكان كرمه، إلى جانب انقطاعه إلى طلب المعرفة والعلم، يبدو فى تقتيره على نفسه فى ملبسه، وفى القليل الذى تركه من حطام الدنيا بعد رحيله، وعندما كان أصدقاؤه يعاتبونه على كرمه وإحسانه إلى أعدائه، كان يقول لهم: وليس الفضل فى الإحسان الذى تقدمه إلى صديق لك تحبه ويحبك، إنما الفضل فى الإحسان الذى تقدمه إلى عدوك..."!

هذه صورة "ابن رشد"، العالم الإنسان المتسامح الكريم، الذى وصل إلى منصب الوزارة فى عصره، فلم يدفعه ذلك إلى الغرور والتعصب والتعالى على الناس، وهو المفكر الذى تعترف أوروبا بفضله على النهضة والحضارة فيها، بينما لا يزال بعض العرب يتهمونه حتى الآن فى دينه وعقيدته.

هذا الرجل العظيم الذى عاش بين سنة ١١٢٦ وسنة ١١٩٨ تعرض للمحاكمة، وهو فى السابعة والستين من عمره، حيث اجتمع عليه أعداؤه وحاسدوه وملأوا قلب السلطة بالشك فيه، فاجتمعت محكمة من الفقهاء والقضاة انتهت باتخاذ قرار غريب ضده هو: تجريد ابن رشد من كل مناصبه ومن كل رتبه، ومن كل ثروته، وإحراق كتبه ومؤلفاته، وأن يخرج منفيا من مدينته "قرطبة". هذا هو الحكم الذى أصدره القضاة ضده، لاتهامه بالكفر وإفساد عقول الناس وعقائدهم، وما إلى ذلك من اتهامات كلها سخيفة وباطلة ولا برهان عليها أو دليل.

وقد وجد فنان وشاعر أسبانى معاصر هو "انطونيو جالا" فى محاكمة "ابن رشد" موضوعا لمسرحية صغيرة رائعة، ترجمها إلى العربية الشاعر الناقد الفنان الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم، وهى الترجمة البديعة التى سوف نعتمد عليها فى اختيار بعض أقوال "ابن رشد" فى الدفاع عن نفسه وفى التعليق على الحكم الذى صدر ضده.

"يقول ابن رشد" كما يصوره "انطونيو جالا" فى هذه المسرحية:

"التسامح... أنه يتخلى اليوم عن عرشه"، وذلك فى تعليقه على المحاكمة التى انتهت بأدانته.

ويواصل "انطونيو جالا" فى مسرحيته القصيرة الجميلة تصوير محنة "ابن رشد" عندما تعرض للمحاكمة، ويعبر "ابن رشد" عن دهشته لعدم التفريق "بين العدو والمخالف فى الرأى"، فهناك فرق كبير بين الاثنين، والتفرقة الدقيقة بينهما أساسية، لأن العدو لا حل معه إلا الحرب ضده، أما المخالف فى الرأى فالحل هو الحوار، وتبادل وجهات النظر، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة عن طريق الحجة والبرهان".

ويتحدث "ابن رشد" فى المسرحية حديثا إنسانيا بالغ الجمال والتأثير فيقول لقضاته الذين يحاكمونه:

"حضرات العلماء والقادة والفقهاء، أنكم مجتمعون فى هذه المحكمة لمحاكمتى على مؤلفاتى، ومؤلفاتى معقدة، وهى كثيرة وغزيرة، حتى أننى لا أذكرها بدقة وتفصيل، لقد كتبت عن كل شئ تقريبا، تحدثت عن ما هو إنسانى، وعن ما هو إلهى، ولا شك أننى وقعت فى أخطاء، ولكننى أؤكد لكم أن نيتى كانت دائما أن أعتمد على ما جاء فى القرآن الكريم، وما جاء فى تفاسيره الصحيحة، إنكم أنتم أهلى، كنت طبيبكم، وطبيب أولادكم ونسائكم، ولقد تبادلنا التحية والسلام فى شوارع مدينتنا "قرطبة"، وتعارفنا، وصلينا معا، وسهرنا معا، أحيانا فى منازلكم وأحيانا أخرى فى منزلى، وتحدثنا حول آلاف الأمور المهمة، وتبادلنا الآراء

والنظرات، وكنت أنا قاضى قضاتكم، ودافعت عنكم فى المجلس الملكى، واهتممت بأمور طلاقكم، وشهاداتكم، ومواريثكم، وتكفلت بأموال الغائبين، واليتامى، والقاصرين، وطلبت المشورة منكم أحيانا، وكنتم شهودا على أحكامى ونزاهتى. لم أصنع فى حياتى، أكثر من الدرس، والتأمل ومساعدة الذين حولى، لهذا أقف بينكم هنا بدون خوف، فأنا أؤمن بالإنسان، وأثق فيكم، لأنكم تعرفوننى، وأنتم فقهاء وطنى، وقضاته، وقادته".

ورغم هذا النداء الجميل الصادق، الذى ألقاه "ابن رشد" فى المحكمة، فقد حكم قضاته بإحراق كتبه، ومصادرة ممتلكاته، ونفيه من المدينة التى ولد فيها وعاش فيها وأحبها إلى درجة العشق، وهى مدينة "قرطبة" الأندلسية.

وفى هذه المحاكمة كان لابن رشد كلمات خالدة سجلها "أنطونيو جالا" فى مسرحيته القصيرة البديعة التى ترجمها الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم إلى العربية،ومن كلماته:
"أن الجيش هو حارس البلاد لا صاحبها"

ومن كلماته أيضا:

"ليست أفكارى عن النساء متمردة. لقد كتبت عن مساواة الرجل بالمرأة فى بساطة، وأكدت أننا نجهل مهارات المرأة ومواهبها. لأننا لم نستخدم المرأة حتى الآن، إلا فى الإنجاب. وبسبب رفضنا لأعداد المرأة لأى نشاط إنسانى، فقد صارت المرأة أشبه بالنبات. وأحد أسباب فقر بلادنا هو عدم أهلية النساء، والكسل المفروض

عليهن، لأن الرجال أرادوا لهن هذا الوضع الشاذ، والنساء يساوين عدد الرجال على التقريب، فكيف لا نعتنى بهن، وكيف ندعهن، ولا نسمح لهن، وفى أحوال قليلة نادرة، إلا بالغزل والنسج، أننى معجب بالمرأة وأشعر باحترام كامل لها".

ثم يقول "ابن رشد":

"إن الذى يحقق الشرعية للسلطة، هو العفة والعلم والحكمة".

ويقول "ابن رشد" فى محاكمته:

"أنا رجل مسالم، ولست مستسلما".

وينادى "ابن رشد" قضاته فيقول لهم:

"لا تخدعوا هذا الشعب الرائع، لا تهيجوه بالباطل" أنكم تعاملونه مثل الطفل. وأنا أطالبكم باحترامه. احترموا شعب "قرطبة" هذا، واحذروه، فأنه مثل "السكين"، أن لم تحسنوا استخدامه فأنه يقطع أيديكم".

وتنتهى مأساة محاكمة "ابن رشد" بمناجاة يطلقها "ابن رشد" نفسه، بعد صدور الحكم ضده، وهى مناجاة رائعة يقول فيها:

"وداعا يا أبنائى، يا أبناء لحمى، وأيضا أبناء نفسى، أعرف أنه فى يوم من الأيام ستنتهى حمى "الاتهام" هذه، ولن يستطيع أحد أن يقضى على عمل الغير، إذا كان هذا العمل فيه قيمة وله أهمية، وسوف تزول هذه "البلادة"، وسوف يزول "الحزن" وسوف تستمرون من بعدى تتعلمون وتعلمون فى مدينتى ومدينتكم "قرطبة"، أننى

واثق من ذلك: فهذه مدينة هادئة، ولكنها لا تنسى، سوف يزول هذا الحقد، وسوف ينتهى هذا الميل إلى الحرب والعدوان بين الناس. سوف تزول أسباب الهدم والتدمير بالنسبة لمن يحبون السلام والعلم والحوار، لكنى لن أحيا، حتى أرى هذا، لن أرى "قرطبة" بعد ذلك فأنا منها منفى بالحكم الذى صدر ضدى، لن أرى نجومها الكثيرة السهاد، والتى طالما كنت أراها وأرعاها، ولن أتنفس هواءها الذى عرفته ودرسته فى عناية ودقة، ولن أعاصر ذاتها الأرضية التى استطعت أن أتنبأ بها قبل حدوثها، يا أسفا على قرطبة التى تنفى علماءها وأبناءها البررة، وتطفى أنوار الذكاء فيها، وتشعل نيران أعدائها، وتغذى هذه النيران، يا أسفا على "قرطبة"، التى تنفى شعراءها، وتمجد الذين يستبدون بها. وأسفا عليك يا قرطبة، وأنت تهجرين أعظم المبادئ وأرقاها وهو مبدأ احترام العقل. وداعا يا "قرطبة" أننى على عتبة الموت. ومع ذلك يبعدوننى عنك، وأنا أحوج ما أكون إلى هوائك. إنهم يطردون العصفور من فوق شجرة الزيتون، وداعا يا قرطبة، وداعا، سأسقى بدموعى أرضا أخرى، وأوارى جثمانى فى أرض غير أرضك. وداعا.. وداعا".

وهكذا تنتهى تلك المحاكمة العجيبة "لابن رشد" بطرده من بلده الحبيب "قرطبة"، وتؤدى إلى إهمال الفكر العربى له، ليتسلمه الغرب، وينتفع به، ويبنى نهضته عليه، ولو عرف أهل قرطبة "التسامح" الحر، وهم يحاكمون "ابن رشد"... لما حكموا عليه وعلى أنفسهم بهذا الحكم القاسى الردئ، ولما اتهموه بالباطل فى دينه وعقيدته وأحرقوا كتبه، وقرروا طرده من مدينته التى أحبها، وتمنى أن يعيش أيامه الأخيرة فوق أرضها فى هدوء وسلام.

إذا كنت رومانسيا فلا تقرأ هذا الكلام

لو أن الإنسان عاش فى هذه الدنيا بدون خيال أو أحلام لأصبحت الحياة نوعا من الجحيم أو "الكابوس" الذى لا يطاق، ذلك لأن الخيالات والأحلام مثل أقراص "الأسبرين" تخفف "صداع الحياة"، وتجعل الألم أقل عنفا، وتتيح للإنسان أن ينفصل ـ بعض الانفصال ـ عن الأحداث الكبيرة التى تحيط به، لأن الإنسان لو غرق فى الأحداث اليومية لحياته، فإنه لن يعرف السعادة على الإطلاق، بل سيظل يعانى حتى النهاية.

والمعاناة مرض من أخطر الأمراض، لأنه لا يثمر غير القلق والتوتر، وقد يؤدى إلى مرض آخر هو المرض الذى أصبح الأطباء يطلقون عليه اسم "الاكتئاب"، وأصبحوا يعتبرونه فى العصر الحديث مرضا مثل سائر الأمراض التى تصيب الناس، والتى لابد

من علاجها، وإلا قضت على صاحبها وأفقدته قدرته على الحياة، وهناك كلمة لأحد الحكماء يقول فيها "أغمض عينك بالنهار، لتستطيع النوم فى الليل".. وهى حكمة جميلة جدا. وهى نفسها الحكمة الشعبية التى نسمعها والتى يقال لنا فيها "فوت" ـ من "التفويت"-، أى لا تعامل كل تفاصيل الحياة باهتمام شديد، فكثير من التفاصيل يمكن المرور عليه بسلام، حتى لو كان فيه بعض ما يؤذينا ويجرح مشاعرنا، لأن تفاصيل الحياة "السخيفة" إذا توقفنا أمامها جميعا، فإن أيامنا سوف تصبح طويلة وثقيلة. وسوف يمر اليوم الواحد كأنه سنة كاملة، مما ينتهى بأن يجعل حياتنا بالغة الصعوبة والمشقة. وليس فى ذلك شئ من الحكمة. فلابد أن نعرف ونعترف جميعا بأن الحياة ـ مهما طالت ـ قصيرة، والإنسان فى طفولته وشبابه الأول محتاج إلى عون الآخرين، ثم هو عندما يبلغ الستين يعود مرة أخرى إلى الحاجة الشديدة لعون الآخرين، فهو فى الطفولة والشباب يكون مثل "العود الطرى" غير قادر أو ناضج للاعتماد على نفسه، ثم عندما يبلغ الستين، يكون قد فقد الكثير من قدرته وحيويته بحكم تقدم السن. وبحسبة بسيطة، فإن حياة الإنسان فى صحته وكامل سلامته لا تتجاوز أربعين سنة حتى لو عاش مائة سنة، وهى السنوات الأربعون التى تمتد بين العشرين والستين.. أما ما قبلها وما بعدها فهى بدايات ونهايات، ولا مفر فيها من الاعتماد على عون الآخرين.

وهكذا نجد أن العمر الحقيقى الذى ينتفع به الإنسان لا يزيد فى حقيقته على أربعين سنة.. هذا إذا خلت حياة الإنسان من

الأمراض أو المتاعب النفسية والعملية المفاجئة التى تواجهنا دون أن نتوقعها أو نحسب لها أى حساب. وهذا يضعنا جميعا أمام الحقيقة الكبيرة التى تقول لنا: إن الحياة قصيرة مهما طالت، فأربعون أو خمسون سنة من الحيوية والنشاط والعمل والاجتهاد، هى فترة قصيرة جدا. وفى العصر الحديث تبدو "أربعون سنة" فترة محدودة، تمر بسرعة شديدة، لأن العصر الحديث هو عصر "السرعة الجنونية"، وهو العصر الذى لا يكاد الإنسان فيه يلتقط أنفاسه أو يشعر بمرور الأيام والسنين، لأن الأحداث كثيرة متلاحقة، وهى مثل موج البحر فى العاصفة العنيفة، لا تكاد موجة منها تظهر حتى تعلوها موجة أخرى. ويكفى أن نتذكر بعض الشخصيات التاريخية التى هزت الدنيا القديمة لندرك أن الزمن فى العصور القديمة كان أهدأ وأبطأ من الزمن فى عصرنا الحالى، فالإسكندر الأكبَر الذى هز الدنيا، واستولى بفتوحاته العبقرية على معظم أنحاء الأرض المعروفة فى عصره.- مثل مصر والشام وبابل وفارس والهند-، قام بكل أعماله الخارقة فى سنوات قليلة، وقد مات الإسكندر وعمره ثلاثة وثلاثون عاما، وحقق إنجازاته العجيبة فى هذا العمر القصير، وصنع مجدا تتحدث به الدنيا منذ أكثر من ألفى سنة إلى الآن ونابليون وصل إلى قمة مجده وأصبح إمبراطورا لفرنسا وأقوى حاكم فى أوروبا وفى الدنيا كلها سنة ١٨٠٤، وكان عمره فى ذل الوقت خمسة وثلاثين عاما! والمسيح عليه السلام الذى قلب الدنيا فى عصره وبعد عصره _ لم يعش إلا نحو ثلاثين سنة أو أكثر قليلا!.. فالزمن فى العصور القديمة كان هادئا،

والسنة الواحدة كانت سنة طويلة.. أما الآن فالسنوات تخطف بعضها خطفا، ويمر الوقت على الإنسان فى سرعة جنونية. وهذه الحقيقة تؤكد لنا النتيجة السابقة وهى أن حياة الإنسان فى هذه الدنيا قصيرة جدا، وهى فى العصر الحديث أقصر منها فى أى عصر آخر، بسبب ما أصاب عصرنا من سرعة تكاد تصل به إلى حد الجنون!

وعندما يصاب العصر بالجنون، فعلى الإنسان أن يلتفت إلى ذلك، وعليه أن ينتبه إلى حياته، بحيث لا يقع فى أى نوع من التفريط فى أيام عمره المحدودة، حتى لا تبتلعه دوامة الأحداث، ويكتشف فجأة أن كل شئ قد ضاع من بين يديه.

وهنا لابد أن نعترف بأن الله قد منح الإنسان القدرة على الخيال، والقدرة على الأحلام. والخيالات والأحلام تساعد الإنسان ولا شك على أن تجعل حياته أكثر امتدادا مما هى عليه فى الواقع. فالخيالات والأحلام نعمة لا يمكن إنكارها. ولكن الخيالات والأحلام مثلها مثل أى دواء آخر، فهى دواء يساعدنا على علاج إحساسنا بأن الحياة قصيرة مهما طالت. ولكن هذا الدواء إذا تناولناه بكميات "غير طبية"، وغير دقيقة، فإنه يمكن أن يعصف بحياتنا، ويوقعنا فى هذا الخطر الذى يمكن تسميته باسم "الرومانسية القاتلة"!

و "الرومانسية" فى معناها العام هى "التفكير القائم على الخيال الشريف المثالى النظيف"، والذى لا يقبل ما فى واقع الدنيا من سخافات وانحرافات.

ولكننا الآن نستطيع أن نقول، بعد مراجعة للتاريخ القريب عندنا وعند الآخرين، إن بعض الرومانسية يجعل الحياة أجمل وأحلى وأكثر عذوبة، ولكن الإغراق فى الرومانسية يقتل أصحابه!

الرومانسية هى نغمة واحدة من نغمات "سميفونية كبيرة" اسمها "سمفونية الحياة". والسيمفونية فى معناها الدقيق هى عمل موسيقى يقوم على عدة فواصل أو حركات، وليس على فاصل واحد أو حركة واحدة، والحياة بهذا المعنى هى "سيمفونية"، أى عدة حركات، وعدة فواصل، وعدة أنغام متكاملة. ولا تستقيم الحياة بعنصر واحد من هذه العناصر.. وإلا اضطربت السميفونية، وفقدت كل ما فيها من سحر وجمال.

والرومانسية عنصر واحد، أو حركة واحدة، أو فاصل واحد، أو نغمة واحدة. وإذا كنا لا ندرك ذلك فلن نحصل على عمل متكامل وجميل اسمه "سيمفونية الحياة".

ولكن بعضنا للأسف يقضى حياته، أو جزءا منها، فى الاعتماد على عنصر واحد هو "الرومانسية".. والنتيجة هى أننا إذا فعلنا ذلك، فلابد أن نعانى كثيرا.

والرومانسية التى تجر المتاعب والبلاء على أصحابها لها صفات وعناصر تميزها بوضوح، وأول ما يميز الرومانسية القاتلة هو "المبالغة".. المبالغة فى الفرح، والمبالغة فى الغضب، والمبالغة فى الرضا، والمبالغة فى السخط. وهذه المبالغة ضارة جدا، ونتيجتها أن يعيش الإنسان فى "عالم وهمى" لا وجود له، ويتصرف

على أساس أن هذا العالم الوهمى له وجود فعلى، وهو فى الحقيقة غير موجود. ومعنى ذلك ببساطة أن تضيع حياة الإنسان بغير جدوى ولا نتيجة. والمبالغة عند أصحابها تلبس ثيابا براقة جميلة، منها البحث عن المثل الأعلى الكامل فى كل شئ.. ولا وجود لهذا المثل الأعلى "النهائى" على الإطلاق. وأجمل تعبير أدبى عن هذه الفكرة نجده فى رواية "دون كيشوت" للأديب الأسبانى العظيم سرفانتس ١٥٤٧ ـ ١٦١٦.

دون كيشوت فارس، يريد أن يحارب الشر، وأن يملأ الدنيا بالخير، ويريد أن يساند الضعفاء ويقف فى وجه الظالمين، وأن يملأ الحياة حبا ورحمة وعدالة.. وكانت كل هذه "النيات الطيبة" عند "دون كيشوت" تجعله عاجزا عن رؤية أى شئ آخر فى هذه الدنيا غير تلك النيات الطيبة التى لا علاقة لها بواقع الحياة.

كان "دون كيشوت" يبالغ فى كل شئ، وكانت مبالغته لمصلحة الخير، ولذلك فنحن نتعاطف معه ونحبه ونرى فيه نموذجا حيا للصفاء والحنان والنقاء.. ولكننا من ناحية أخرى نحس بأن نهايته لن تكون سعيدة، لأنه يتجاهل الواقع، ويعيش على مائدة ليس فيها طعام سوى الأحلام.. والأحلام وحدها لا تطعم الجائعين، ولا تنير طريق الحائرين! وعندما يصطدم "دون كيشوت" بالواقع، فإنه يرفضه بالكامل، ويتخيل أن الحياة فى القرن السابع عشر ـ كان يعيش فيه مؤلف الرواية "سرفانتس" ـ هى سبب تعاسة الإنسان.. وأن الحل هو العودة إلى الحياة الفطرية البدائية التى كان الناس

جميعا يشتركون فيها مع بعضهم البعض فى كل شئ. ثم يرسم "دون كيشوت" لهذه الحياة البدائية التى يدعونا للعودة إليها صورة وردية بهيجة لا تتفق أبدا مع الحقائق العلمية.. فالحياة البدائية لم تكن صافية نقية طاهرة كما يتصور "دون كيشوت"، بل على العكس، كان الإنسان فيها وحشا يلتهم أى شئ أمامه إذا جاع، حتى لو كان هذا الشئ "إنسانا آخر". قد يكون أخاه أو ابنه أو زوجته. فالحياة البدائية حياة وحشية، والحضارة الإنسانية ـ وإن لم تتخلص من وحشيتها حتى الآن ـ أفضل بكثير من الحياة البدائية وأقل قسوة منها.

ولكن "دون كيشوت" رومانسى حالم، ولذلك فهو يتصور كل شئ على هوى أفكاره الطيبة النبيلة، ويستسلم للخيالات التى تريحه وترضيه..

ولنقرأ هذا الجزء من رواية "دون كيشوت" والتى يتحسر فيها على العصر الإنسانى الفطرى البدائى ويتمنى عودته، ويتصور أن فى هذه العودة سعادة الناس وراحة بالهم.. وهو فى ذلك من كبار الواهمين الحالمين المبالغين فى الخيال والبعد عن الحقيقة!

يقول "دون كيشوت":

"كانت أياما سعيدة.. تلك الأيام التى نعم فيها أجدادنا الأولون بالحياة فى عصرها الذهبى. لا لأن الذهب ـ الذى يحظى بالثناء الجم فى عصرنا الحديدى الذى نعيش فيه =كان شيئا يحصل عليه الناس فى تلك الأيام السعيدة دون أن يبذلوا فى سبيله أى

جهد.. ولكن لأن أولئك الذين كانوا يعيشون فى تلك الأيام لم يكونوا يعرفون هاتين الكلمتين: "ملكى" و "ملكك".. أى "هذا الشئ أملكه أنا"، و "هذا الشئ تملكه أنت"، لأن امتلاك الأشياء جميعا فى تلك الأيام المقدسة كانت مشاعاً، ولم يكن أحد بحاجة من أجل الحصول على القوت العادى إلى أن يفعل أى شئ إلا أن يمد يده فيأخذ ما يحتاج إليه من الأشجار التى كانت تدعوهم بالفعل إلى جمع ثمرها الحلو الشهى دون رقيب أو حسيب، كما كانت الينابيع الصافية والأنهار الجارية تمنحهم هذه المياه النقية العذبة بكميات زاخرة. وكان النحل الذكى الحريص ينشئ دولته الحرة فى شقوق الصخر وتجاويف الأشجار، مانحا كل مخلوق ـ وبلا مقابل ـ محصوله الشهى، الذى هو ثمرة كده وكدحه. لقد كان السلام يعم العالم حينئذ، والجميع فى ألفة ومحبة وود، والكل فى وفاق واتحاد ووئام".

"لقد كان سلاح المحراث حتى ذلك العهد لا يخطر بباله أن يشق أحشاء الأرض ـ وهى أمنا الأولى الحنون ـ فى مثل هذه الغلظة الوحشية، وأن يخوض فيها. ولماذا كان يفعل، وقد كانت الأرض تفيض بخيراتها غير مضطرة ولا مجبورة، فتمنح من جميع أطراف حضنها الخصب الرحيب كل ما كان يكفى أبناءها حينذاك ويضمن لهم السعادة والهناء؟ أجل.. لقد كان هذا هو الزمن الذى كانت فيه الراعيات الجميلات يذهبن من واد إلى واد، ومن ربوة إلى ربوة، وشعورهن مضفورة أحياناً، وأحياناً منتشرة مبعثرة.. وليس عليهن من شئ إلا ما يكفى لستر ما تدعو الحشمة إلى ستره.. وسيظل هذا هو أدب الحشمة فى كل العصور"..

تلك هى أحلام "دون كيشوت" التى تقوم على البراءة والنية الحسنة والخيالات غير الواقعية، وفيها أكبر عيوب الرومانسية على الإطلاق.. وهو عيب "المبالغة" والمبالغة مثل "الخمرة" خادعة. فهى تدير رأس الإنسان، وتجعل الأشياء أكبر من حجمها أو أصغر من حجمها، وقد صدق الشاعر العربى "أبو نواس" عندما قال فى إحدى قصائده عن أثر الخمر فى رأسه:

اسقنى حتى ترانى

أحسب الديك حمارا!

نعم. فالسكران يحسب "الديك" "حمارا"، لأنه لا يرى الأشياء بحجمها الطبيعى. والإنسان لا يسكر بالخمرة وحدها، وإنما يسكر أكثر بالأحلام والخيالات.. والذين يسكرون بالأحلام والخيالات لا يرون الواقع على حقيقته أمامهم. وهذا هو ما سقط فيه "دون كيشوت"، فظن أن الحياة البدائية الفطرية هى "الجنة الأرضية"، حيث كان كل شئ طيبا فى هذه الحياة، وكل إنسان فيها من السعداء. وهذا من الأوهام، لأن الحياة البدائية لم تكن سعيدة. بهذه الصورة الكاملة المثالية، ولم يكن فيها الإنسان يختلف عن أى حيوان فى الغابة. وكان الناس متوحشين، وبلا عواطف طيبة تجاه أى إنسان آخر. لأن البقاء فى الحياة البدائية لم يكن متاحاً إلا لمن يفترس غيره.. فهل هذه هى الحياة التى تريدنا أن نعود إليها يا "دون كيشوت"؟!

إننا ندرك تماما ما فى قلب "دون كيشوت" من رحمة وحنان، وندرك أن نيته طيبة جدا. وأن قلبه من أطهر القلوب، وأنه ـ بالرغم من شقائه الخاص ـ لم يكن مهتما بنفسه، بقدر ما كان مهتما بمصير اخوته فى الإنسانية، فهو يريد لهم الخير والسعادة.. ولكنه كان "رومانسيا".. أى أن حياته وأفكاره كلها قائمة على "المبالغة" فى تصوير حالة من الخير الكامل هى حالة الإنسان البدائى. ولم تكن هذه الحالة خيراً كاملا.. بل ربما كانت على العكس.. شرا من أكبر الشرور! ولم يكن فيها شئ يتحكم فى الإنسان سوى غرائزه. والغريزة وحدها عمياء. تريد دائما أن تحقق أهدافها دون أى حساب لأى شئ آخر فى طريقها. الغريزة وحدها لا تعبأ بالأخلاق، ولا بمشاعر الآخرين، ولا بمصالحهم. لأن الغريزة فى النهاية لا تعبأ إلا بنفسها وهدفها الخاص بها. ولكن "دون كيشوت" كان يتصور أن الحياة الفطرية البدائية كانت هى السعادة الكاملة. وهذه مبالغة!

وكان "دون كيشوت" يتصور أن الحضارة التى هذبت بعض أخلاق الإنسان وفرضت عليه بعض القوانين، وأعطته مزيدا من الوسائل لحماية نفسه من غضب الطبيعة وشرور الحياة.. كان "دون كيشوت" يتصور أن هذه الحضارة كانت هى الشر.. كل الشر، ولا شئ غير الشر!.. وهذه مبالغة.

ومشكلة الرومانسية الأساسية تتمثل فى عنصر "المبالغة". والمبالغة تجعل الإنسان غير مدرك لواقع الحياة، وغير قادر على

فهمها بصورة صحيحة تنجو به من المتاعب والمصاعب، والهموم والكوارث.

وهذا أول وأكبر عيب فى "الرومانسية". إنها تبالغ فى كل شئ.. فى المشاعر والمواقف والتصرفات والأفكار والأحلام، وعدم القدرة على تحديد المسافة الدقيقة بين الخيال والحقيقة، وبين المستحيل والممكن.

وهذا هو السر فى "كارثة" "روميو وجوليت" فقد بالغ هذان العاشقان فى كل شئ، وتصورا ـ خطأ ـ أن كل العقبات لا أهمية لها ما دام الحب مشتعلا فى قلبيهما الجميلين، فقفزا على العقبات والمشاكل، وإستهانا بها، حتى قادتهما "المبالغة" فى الأمور وتصورهما للواقع على غير حقيقته إلى الكارثة، التى أنهت حياتيهما بالموت وهما فى عز الشباب، وعز الحب، وعز النشوة بالحياة.

إنها "الرومانسية" فى وجهها الخاطئ وهو المبالغة التى تقود إلى المهالك.

ولو خلت الرومانسية من المبالغة، لكانت أجمل المشاعر فى الوجود، لأن الرومانسية فى الأصل هى البراءة والطهارة واحتضان الحياة فى صدق. ولكنها عندما تقع فريسة للمبالغة فأنها تصبح مثل طفل جميل برئ مقبل على الحياة وهو يجرى فوق أرض مليئة بالألغام.. وفجأة، وهذا الطفل يبتسم ويغنى ويطير كأنه عصفور،

ينفجر فيه أحد الألغام فيقضى عليه ويسيل دمه نهرا فوق التراب، لأن الطفل البرئ لم يحسب لمثل هذه الألغام أى حساب.

على أن "المبالغة" فى الرومانسية لها أخواتها وأبناء عمومتها!

من ذلك أن "الرومانسى" الذى ينظر إلى الحياة ويتعامل مع الناس بأحلامه وخيالاته، يرفض تماما أن يرى فى الدنيا أى تناقض بينما الدنيا فى حقيقتها مليئة بالمتناقضات. ذلك لأن الرومانسى ينظر إلى الدنيا بعين واحدة، وليس بعينيه الاثنتين!

ففى واقع الحياة يمكن أن يواتينا فى وقت واحد حظ سعيد وحظ سيئ، وعلينا أن نتقبل ذلك ولا نرفضه أو نستنكره، فتلك طبيعة الحياة، وهى طبيعة ليس لنا يد فيها، وعلينا أن نتقبل الحظ السيئ بما يستحقه من صبر وجهد ومقاومة، كما نتقبل الحظ الحسن بما يستحقه من فرح وسعادة وحسن استغلال له حتى لا يفلت من أيدينا ويضيع.

ومن عيوب الرومانسية أيضا أن الرومانسى مقاتل عنيد، أى أنه لا يقبل "المرونة" ولا "الحل الوسط"، لأن المرونة والحل الوسط كلها تعنى ـ عند الرومانسى ـ تنازلاً عما يؤمن به، وتجريحاً لمشاعر الكرامة والكبرياء فى نفسه. والحقيقة أن الدنيا تفرض علينا فى كثير من الأحيان قبول "الحل الوسط، وليس فى ذلك ما يهين أو يشين.. والحل الوسط، إذا كان ضرورة لا مفر منها، أفضل من التسليم بالهزيمة والهروب من معركة الحياة. والحل الوسط إذا

تقبلناه واحتملناه يمكن أن يتحول مع الزمن لصالحنا.. بشرط أن نجتهد ونعمل من أجل ذلك، وألا نكتفى أبدا بالرضا والقبول.

والخلاصة.. أن الرومانسية هى شعور طيب شفاف جميل لا يمكن أن تستغنى عنه الحياة.. فالحياة بلا رومانسية، ولا خيالات وأحلام، هى جحيم لا شك فيه. والرومانسية لن تموت أبدا، ولن تنتهى أبدا.. فسوف يكون هناك دائما عشاق، وسوف تظل هناك عيون تذرف الدموع كلما أثارتها الحياة بموقف يثير الحزن، وسوف تظل هناك قلوب طاهرة تريد للحياة أن تكون أفضل، وللناس أن يكونوا أجمل.

الرومانسية الباقية والخالدة عليها أن تتخلص من المبالغة، ومن الرفض القاطع لما فى الحياة من التناقضات، ومن الإصرار على أن كل الألوان هى "الأسود" و "الأبيض" فقط بالرغم من أن هناك ألوانا أخرى عديدة يجب الاعتراف بها، لأنها ستظل موجودة حتى لو لم نعترف بها. كما أن الرومانسية الإيجابية التى نحبها ونحتاج إليها يجب أن تنمو وتنضج لكى تعترف بأن الحياة ـ وخاصة فى أثناء الأزمات الحادة ـ تحتاج إلى شئ اسمه "الحل الوسط"، وأن فيها ألوانا أخرى غير "الأسود" و "الأبيض"، وأنه لابد من الاستعانة بالحل الوسط والاعتراف بالألوان الأخرى حتى يمكن أن تستمر الحياة وحتى لا تنتهى كل خطوة لنا فيها بكارثة.

وإذا كنت رومانسيا من النوع الذى يصمم على المبالغة، ويصير الوصول فى كل شئ إلى الحد الأقصى، ورفض ما فى الحياة من

تناقض وألوان متعددة، وعدم المرونة أو الاعتراف بالحلول الوسط. فمن فضلك.. لا تقرأ هذا الكلام! وإذا قرأته فلا بأس عليك فى أن تلعنه، وتلعن كاتبه الذى خطه بيديه وفكر فيه! فكل شئ مقبول منك أيها الرومانسى الجميل.. فأنا نفسى "رومانسى سابق"! وياليت الحياة كانت مثلما يتصورها الرومانسيون الخالصون، وكما يحبون ويتخيلون! ولكنها ـ للأسف ـ ليست كذلك!

لا تغلق بابك على أحزانك

منذ فترة شاهدت فى برنامج "أوسكار" الناجح على قناة التليفزيون الثانية فيلما بديعا هو "النهر الثائر"، وكان بطل هذا الفيلم هو الممثل الأمريكى العظيم "مونتجمرى كليفت" "١٩٢٠-١٩٦٦" وهو ـ فى الفيلم ـ مهندس يحاول إقناع سيدة متقدمة فى العمر بأن تترك بيتها لتعيش فى مكان آخر تم إعداده لها لأن المنطقة التى تعيش فيها سوف يغرقها سد أقيم فوق النهر، ولكن السيدة لا تريد أن تترك بيتها حتى لو غرقت معه، فلها فى هذا البيت ذكريات عزيزة جدا، وهذه الذكريات تساوى الحياة نفسها أو هى أعز منها. وكان المهندس هو الذى أخذ على عاتقه إقناع السيدة بالرحيل بدلا من إرغامها على ذلك بالقوة. كما هو مقرر فى الجهة الحكومية التى تشرف على بناء السد.

وبذل المهندس الإنسان كل جهده فى سبيل إقناع السيدة بالرحيل إلى البيت المعد لها فى مكان آخر، وتحمل منها كل الإهانات التى وجهتها إليه، لأنه كان مصمما على أن يحقق هدفه بالحسنى وليس بالقوة والعنف. وانتهى الأمر بفشل المهندس فى تحقيق هدفه، واضطرت الجهة الحكومية التى تشرف على بناء السد إلى نقل السيدة بالقوة، وما كادت السيدة تصل إلى البيت الجديد، وقبل أن تدخله جلست على كرسى أمام الباب لحظات قليلة ثم فارقت الحياة، فقد كان البيت القديم هو كل شئ بالنسبة لها. فلما فارقته تخلت عنها قدرتها على الاستمرار فى الحياة.

وهنا شعر المهندس الطيب بأنه لم ينجح فى تحقيق هدفه وهو إقناع السيدة بالانتقال من بيتها القديم بإرادتها واختيارها. وأخذ المهندس يراجع مواقف حياته المختلفة فوجد أنه قد بذل جهودا كبيرة فى قضايا عديدة ولكنه كان دائما ينتهى إلى الخيبة والإخفاق، ولذلك فإنه يشعر بالأسى والحزن، برغم أنه فى واقع حياته شخص جاد مستقيم حسن النية صادق فى كل ما يقوم به ويسعى إليه من أهداف.

وهنا تظهر فى حياته فتاة جميلة ذكية كانت تراقبه وهو يعمل ويجتهد ويصل فى النهاية إلى نتيجة سلبية. وهذه الفتاة ـ فيما أذكره من أحداث الفيلم ـ هى ابنة السيدة الرافضة للانتقال من بيتها المهدد بالغرق. ويدور بين المهندس الذى يشعر بالإحباط بسبب خيبته الدائمة وبين الفتاة الجميلة حوار بسيط ولكنه بالغ

الروعة والجمال. فالفتاة تقول للمهندس ما معناه: أننى قررت أن أتزوجك لحمايتك، فأنت لا تملك من الذكاء الواقعى ما يحميك من متاعب الحياة، وأنا أحبك، وسوف أقوم أنا بهذا الدور، أى بحمايتك من المتاعب بسبب نقص ذكائك الواقعى فى مواجهة الدنيا والناس. ويجيبها المهندس الطيب النبيل "الخيبان" بما معناه كيف تفكرين فى الزواج من رجل مثلى لم ينجح فى شئ خلال حياته كلها؟. فتقول الفتاة: لا يهم أن تكون ناجحا. المهم أن معدنك الإنسانى طيب ونبيل. ويتزوجان وتنتهى قصة الفيلم بهذا الزواج العجيب بين فتاة جميلة وبين الرجل الذى أحبته برغم أنه "قليل الحيلة" وأنه لا ينجح فى شئ مع صدقه وأمانته فى كل ما يقول ويفعل.

فما الذى أعجب الفتاة الجميلة فى هذا الرجل، وما الذى جعلها تختاره وترفض غيره من المعجبين الكثيرين بها وتفضله على الجميع؟

إن هذه الفتاة صاحبة قلب ذكى حساس وقد استمعت إلى موسيقى خفية وهادئة هى موسيقى صادرة عن شخصية الرجل الذى أحبته، فكل إنسان فى الدنيا له موسيقاه الخاصة، وبعض الموسيقى نشاز. ولكن هذا الرجل تصدر عنه موسيقى ناعمة وحزينة، فهو إنسان لديه تصميم على أن "يصنع" الصواب، وأن يخدم أهدافا نبيلة طيبة، رغم أن "الخسارة" و "الهزيمة" هما الصديقان الملازمان له فى كل ما يقوم به.

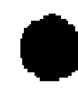
هذا الرجل "الخائب" هو فى حقيقته مقاتل شجاع يؤدى وأجبه على أجمل وجه فى معارك الحياة وهو لا يقابل ما يلقاه من خسائر بالغضب والتوتر، بل بشئ من الحزن الهادئ والدهشة الساذجة، ولكنه فى جميع الأحوال لا يفكر أبدا فى تغيير أسلوبه "النظيف" لمواجهة سخافات الدنيا والناس، ولا تثير فيه الهزائم التى يلقاها سوى نوع من الكبرياء الذى يحميه من أن تتمزق نفسه فى داخله. ولماذا تتمزق هذه النفس الطيبة وصاحبها لم يرتكب أى تقصير فى أى عمل يقوم به؟

هذا نوع من الناس رائع وفريد.

إنه يعمل فى بسالة وصدق وأمانة

وهو يتلقى الخسائر والضربات وخيبات الأمل واقفا على قدميه وليس راكعا على ركبتيه.

العمل النظيف الجميل عند هذا النموذج الإنسانى هو هدف فى حد ذاته بصرف النظر عن النتائج.



وهذه قصة واقعية أخرى تؤكد نفس المعنى

إنها قصة "الخائب الشريف" أو "الخائب القوى" أو الخائب الذى لا تستطيع كل الهزائم التى يلقاها أن تغير شيئا من عذوبة نفسه ولا من إصراره على طهارة السلوك والتصرف.

والقصة الواقعية الأخرى يرويها لنا الأديب العالمى الإيطالى الكبير "إجنازيوسيلونى "١٩٠٠-١٩٧٨ "فى مذكراته البديعة التى كتبها فى فصل من فصول كتاب عالمى معروف هو "الصنم الذى هوى" "ترجمة الأستاذ فؤاد حمودة".

يقول "سيلونى":

"كنت طفلا لا أتجاوز الخامسة، أعبر ميدان قريتنا الصغير فى يوم أحد، ويدى فى يد أمى، عندما شاهدت هذا المنظر القاسى.. منظر رجل من الأشراف وهو يسلط كلبه الضخم على امرأة فقيرة كانت خارجة _ لتوها _ من الكنيسة. لقد انطرحت المرأة على الأرض وتعرضت لأذى شديد، وتقطع ثوبها مزقا. وكان السخط فى القرية على هذه الحادثة عاما ولكنه سخط صامت لا يعلن عن نفسه. ولم أستطع أن أفهم من أين جاءت للمرأة تلك الفكرة المؤسفة.. فكرة اتخاذ الإجراءات القانونية ضد "الشريف وكلبه"، وقد كانت النتيجة الوحيدة لذلك أن أضيف الاستهزاء بالعدالة نفسها إلى ما وقع على المرأة من ضر وأذى. ومع أن كل الناس _ كما قلت _ قد أسفوا لها، وساعدها بعضهم سرا، إلا أن المرأة التعسة لم تجد رجلا واحدا على استعداد لأن يدلى بشهادته أمام القاضى، أو محاميا واحدا يتولى إقامة الدعوى ضد "الشريف" على حين أن محامى الشريف قام بمهمته، يعاونه فى ذلك جماعة من الشهود المرتشين الذين سردوا القصة بطريقة ممسوخة قلبت الحق باطلا، واتهموا المرأة بأنها هى التى أثارت الكلب. وأما القاضى الذى كان فى حياته مثلا للفضل والأمانة فقد أصدر

حكمه ببراءة الشريف، وأدان المرأة المسكينة، وأمرها بأن تدفع تكاليف القضية. وقد دافع القاضى عن نفسه بعد ذلك ببضعة أيام فى منزلنا قائلا: "لقد سار الأمر على عكس ما كنت أشتهى وأتمنى. وأقسم لكم بشرفى أنى أسفت لذلك كثيرا. ولكن حتى لو كنت من بين من حضروا هذه الحادثة المؤلمة وانتقدت فاعلها باعتبارى مواطنا عاديا، إلا أننى، كقاض، كنت ملزما بأن أحكم حسب البيانات التى أمامى، وكانت كلها لسوء الحظ. فى صالح الكلب!"

ويواصل "سيلونى" رواية ذكرياته عن هذه الحادثة الواقعية فيقول:

"كان هذا القاضى يحب أن يقول دائما: إن القاضى الحقيقى ينبغى أن يكون قادرا على إخفاء عواطفه الذاتية الخاصة، وأن يكون محايدا"، وقد اعتادت أمى أن تعلق على ذلك بقولها: حقا.. يالها من مهنة فظيعة .. مهنة القاضى هذه.. إنه لخير للإنسان أن يبقى فى بيته ويغلق بابه عليه".كما كانت أمى دائما تقول لى: "يابنى عندما تكبر اختر أى مهنة تحب.. إلا مهنة القاضى".

تلك هى القصة الواقعية التى يرويها "سيلونى" فى مذكراته وأول سؤال يتبادر إلى الذهن بعد أن نقرأ هذه القصة هو: لماذا أصرت هذه المرأة الفقيرة على أن ترفع قضية ضد الشريف وكلبه، برغم أنها، كما تدل جميع الظروف، على ثقة بأنها سوف تخسر؟

إن موقف المرأة هو موقف فيه شجاعة ونبل، وهو دليل على أن تكوينها النفسى فيه وضوح واستقامة وصفاء. فانتقامها الوحيد من

الشريف وكلبه هو مطالبتها أمام كل العيون بحقها العادل، برغم ثقتها وثقة الجميع بأن النتيجة فى النهاية هى الخسارة.

وفى هذه المقارنة نفسها شئ من رد الاعتبار والشعور بنوع من القوة أمام الأشرار، والدخول فى معركة لإثبات الحق ورفض العدوان والظلم، حتى لو كانت النتيجة هى الخسران ولا شئ سواه. فقدرة الإنسان على أن يقول للإنسان "لا" لشئ ينكره ويعترض عليه فيه نوع من السعادة الداخلية وفيه قدر كبير من إعادة الاحترام للإنسان.. أمام نفسه على الأقل.

وقد كسبت هذه المرأة برغم خسارتها، ومكاسب هذه المرأة تتمثل فى عدة أمور، منها أن قصتها ظلت محفورة فى نفس أديب عالمى هو "سيلونى" منذ أن كان طفلا، ففعل ما يفعله كل فنان حقيقى، أى أنه كتب عن شئ يسقطه المؤرخون من حسابهم عندما يكتبون. والفن دائما هو كتابة ما يسقط من يد المؤرخين. وعندما كتب "سيلونى"مذكراته بعد أن أصبح لامعا ومشهورا وصاحب كلمة مسموعة، سجل هذه القصة حتى يقرأها العالم كله، وحتى يشعر من يقرؤونها بالتعاطف مع المرأة ا لمغلوبة على أمرها، ويشعروا أيضا بالاحتقار الشديد للشريف الظالم وكلبه وكل من تعاونوا على ظلم المرأة. وكان من النتائج الإيجابية لمقاومة هذه المرأة أيضا أن القاضى الذى حكم ضدها لمصلحة "الكلب" وصاحبه، كان يشعر بتأنيب الضمير ويحاول التماس عذر لنفسه بأن القانون لم يساعده على تحقيق العدل، ولابد أن مقاومة المرأة الفقيرة قد فتحت بابا

أمام أهل قريتها من الضعفاء حتى يسيروا فى طريق المقاومة ولا يستسلموا بسهولة لكل ظالم شرير.

بل إن قصة المرأة الفقيرة فيها حافز لمن يقرؤها، فكل من يقاوم بعد قراءة هذه القصة إنما يقاوم لنفسه ويقاوم من أجل تلك المرأة المظلومة أيضا.

وأخيرا فإن هذه القصة التى يرويها "سيلونى" تعطى للإنسان شيئا من اليقين بأن القانون وحده لا يكفى لمقاومة الظلم، إذ أن الظلم فى العادة يكون لديه من القوة ما يساعده على العبث بالقانون عن طريق محام مأجور وشاهد زور.

وخلاصة ذلك كله أن على الإنسان ألا يشعر بالتعاسة والندم إذا خسر شيئا من أشياء الحياة، ما دام الإنسان قد بذل جهده حتى أقصاه، وما دام قد قاوم بشرف واستقامة حتى لو كان على يقين بالخسارة فى نهاية المطاف. ولعلنا ندرك إذا تعاملنا مع أنفسنا بصدق وأمانة أن ما خسرناه قد كسبناه فى الوقت نفسه. فالشعور بأن الإنسان لم يخطئ ولم يقصر فى الدفاع عن حقه ولم يلوث يديه بعمل غير شريف هو شعور قوى جدا بحيث يمكن أن يكون مصدرا لسعادة لها مذاق قوى خاص.

فالمقاومة والصبر على الأذى أمران رائعان وفيهما متعة فريدة للأرواح التى أتعبتها الحياة. فقاوم حتى لو خسرت. وطالب بحقك حتى لو لم تحصل عليه.

وعندما تعود إلى نفسك خالى الوفاض بعد انتهاء المعارك فقل:الحمد لله. وتستطيع فى مثل هذه اللحظة أن تشرب كوبا من الشاى أو فنجانا من القهوة وأنت تجلس وحيدا تتأمل صفحة الدنيا. لا أحد معك. ولا أحد يواسيك. ولعل الإنسان يجد بعد ذلك كله مذاقا عذبا لحرية النفس وسعادة الروح. وليس فى ذلك أبدا ما يسميه علماء النفس بمرض "تعذيب الذات" أو "الماسوشية". على العكس، ففيه قوة أقوى من كل قوة، وفيه سعادة أكبر من كل سعادة. فلنجرب هذا المعنى من معانى القوة والسعادة حتى لو كانت النتيجة هى: صفر، أو كانت خسارة من خسائر الحياة التى لا مفر منها. فلا تغلق بابك على أحزانك، فالخسائر مهما يكن حجمها ليست أخر الدنيا ولا نهاية الحياة.

لماذا فقدنا الحنان؟

لاحظ بعض العلماء الذين يهتمون بدراسة مظاهر الحياة المختلفة، أن "الحنان" عاطفة ضرورية لكل الكائنات، وأنه حتى فى عالم الحيوان يكون "الحنان" عاطفة لا غنى عنها لنمو الصغار "فالقطة الأم أو أى أنثى أخرى فى دنيا الحيوان تشعر بالحنان الذى يفيض منها على صغارها، ولا يتوقف هذا الحنان إلا عندما يقوى الصغار ويصبحون قادرين على تولى شئونهم بأنفسهم. هذا ما يقوله العالمان الأمريكيان الكبيران "هارى أوفرستريت" وزوجته "بونارو" فى كتابهما الممتع "العقل الحى" والكاتبان هما من أبرز علماء النفس والاجتماع فى أمريكا فى النصف الأول من القرن العشرين، وقد سجلا تجاربهما وآراءهما فى عدد من الكتب المعروفة، منها هذا الكتاب البديع عن "العقل الحى" وقد ترجمه

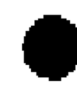
إلى العربية الدكتور عبد العزيز القوصى والأستاذ السيد محمد عثمان وفى هذا الكتاب يقول المؤلفان:

"إن سعادة البشر وقف على عاطفة بعينها لا غنى عنها، فالإنسان يولد فى حاجة إلى من يرعاه ويتولى أمره، ومعنى ذلك أن الإنسان لا يستطيع البقاء كنوع أو كأفراد إلا إذا تولى الكبار رعاية الصغار، وتولى الأقوياء رعاية الضعفاء. ويمكن القول بعبارة أدق وأكثر حسما أننا لا نستطيع البقاء إلا إذا أحس الناضجون بالرغبة فى رعاية من هم أقل منهم نضجا، وإلا إذا شعروا فى دخيلة أنفسهم بتلك العاطفة التى تجعلهم يقبلون مسرورين على النهوض بالواجبات والمسئوليات التى تتضمنها تلك الرعاية وينهضون بها كلما دعت الحاجة إلى ذلك. والعاطفة التى نعنيها والتى يتوقف عليها بقاء النوع البشرى هى عاطفة الحنان".

هذا هو ما يقوله الكاتبان الأمريكيان الكبيران، وهو كلام صحيح وصادق ولا يمكن إنكاره، فالمجتمع الإنسانى مهما تقدم وأصبح مليئا بالإمكانيات الكبيرة، فإنه بدون الحنان يتحول إلى غابة يعيش فيها وحوش فى شكل بشر، فالحنان هو القوة التى تسرى فى المجتمع كله، وتجعل العلاقات بين الناس سهلة ويسيرة، وتتيح للأفراد أن يطمئنوا إلى أحوالهم، وألا يخافوا من المفاجآت والمصادفات، مما يجعلهم يعيشون دائما فى اضطراب وقلق. والمجتمع الإنسانى عندما يخلو من الحنان فإن البديل لذلك هو أن تسود الأنانية بين الناس، وأن يفكر كل فرد فى نفسه فقط وأن يسعى لتحقيق سعادته الخاصة به، دون أن يهتم بما يصيب الآخرين

من تعاسة حتى لو كانوا أقرب الناس إليه وأكثرهم التصاقا به، سواء كان ذلك داخل الأسرة الواحدة، أو داخل العمل، أو فى العلاقات التى يحتاج فيها الناس إلى بعضهم البعض، وهى العلاقات الضرورية والتى لا غنى عنها أبدا فى أى مجتمع، فالإنسان لا يعيش وحده، وإنما يعيش مع غيره من الناس، وإذا خلا المجتمع من الحنان، وسادت فيه الأنانية الشديدة، وانعدم الإحساس بمشاعر الآخرين وهمومهم، فلابد أن ينهار هذا المجتمع على رأس الذين يعيشون فيه، بحيث يتعرض الجميع للشر، حتى هؤلاء الذين كانوا يتصورون أنهم آمنون مطمئنون.

والحنان الذى لا غنى عنه للإنسان هو كلمة عامة، تحتاج إلى شئ من التحليل والتفصيل، وإذا أخذنا بوجهة نظر الكاتبين الأمريكيين فإن الحنان لابد أن تتوفر فيه ثلاثة عناصر أساسية هى التى تجعل من هذا الحنان عاطفة حقيقية نافعة ومؤثرة فى تخفيف آلام الحياة، وتحقيق أكبر قدر من السعادة للبشر.



وأول عنصر من عناصر الحنان هو: الدفء. فلابد أن تكون العلاقات الإنسانية خالية من البرود والجمود، وعندما نجد أمامنا إنسانا باردا يغلق أبواب قلبه وعقله فى وجه الآخرين، فإن مثل هذا الإنسان يؤذينا ويثير فينا القلق حتى لو لم نكن بحاجة إليه. والبرود الذى يسيطر على بعض الناس هو حفرة فى طريق الحياة، وهو عقبة من العقبات التى "تسد النفس" وتؤدى إلى تعطيل النشاط

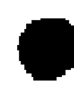
الإنسانى. والبرود لابد أن يكون له رد فعل يقابله، ومن الطبيعى أن يكون أثر البرود على الناس سلبيا وسيئا إلى أبعد الحدود.

أما الدفء الإنسانى، فهو الذى يبعث فى نفوسنا حماسا للحياة، ويدفعنا للإقبال عليها، ويعطينا شعورا صادقا بأننا يجب أن نكون طيبين ونافعين ومتعاونين دائما، وهو الذى يخلق فينا الرغبة فى الرد على المعاملة الدافئة بما يساويها أو بما هو أجمل منها. ولعل رسولنا "محمد" عليه السلام كان يشير إلى هذا المعنى الجميل عندما قال "إن الكلمة الطيبة صدقة". فالكلمة الطيبة لا تصدر أبدا إلا عن نفس دافئة خالية من البرود، وهذه الكلمة لها فى ميزان الجمال والخير نفس القيمة ا لتى تستحقها الصدقة التى يقدمها الإنسان راضيا إلى من يحتاج إليها. وكلنا بحاجة إلى هذه الكلمة الطيبة، وكلنا نتأثر بمثل هذه الكلمة عندما نسمعها، فتساعدنا على أن ننشط ونتفاءل ونقبل على الحياة ونتحمل ما فيها من متاعب ومنغصات. ولا حنان بغير دفء، ينعكس على الحديث والسلوك وطريقة التعامل مع الناس.

والحنان إلى جانب ما فيه من دفء يحتاج إلى عنصر أخر هو القدرة على منح الحب للآخرين، والقدرة على فهم مشاعرهم، والقدرة أيضا على احترامهم كأصحاب شخصيات لهم كيانهم واستقلالهم". وبدون هذه القدرة على الحب فلا معنى للحنان ولا قيمة له. على أن الحب ليس معناه كما يتصور البعض تلك العاطفة الساذجة المسرفة فى المبالغات والمجاملات وتوزيع الكلمات الطيبة بلا حساب على الجميع، فالحب الحقيقى عاطفة واعية

منضبطة غير عمياء، وهى تتجه دائما للموضع الصحيح، الذى يكون للحب فيه أثر وقيمة. والحب الحقيقى هو عاطفة ليس فيها إهدار للمشاعر، ولا تكلف ولا افتعال. ونحن نستطيع بسهولة ودون جهد كبير أن نفرق بين الأشخاص المحبين والأشخاص الكارهين. فالمحبون متعاونون مع غيرهم، يقدمون الخير الذى يقدرون عليه إلى الجميع، ولا يكلفون أنفسهم فوق طاقتها، أو يفرضون عليها ما يعجزون عن تحقيقه، أو ما يخرج عن حدود إمكاناتهم. أما الكارهون من البشر فهم الذين تنطق وجوههم وأفعالهم بروح تشاؤمية معادية للناس. فهم يسدون الطرق المفتوحة، ويجعلون الأمور السهلة صعبة، ولا يكلفون أنفسهم أى جهد من أى نوع فى سبيل مساعدة الآخرين وتيسير حياتهم، ويكفى أن ننظر إلى وجوه هؤلاء الكارهين حتى نشعر أن الدنيا ليست بخير، وأن الأمور لا يمكن أن تنتهى مع هؤلاء البشر إلى نتيجة طيبة.

وكلنا نعرف هذه الأحوال التى نلتقى فيها بالكارهين من البشر، والذين لا يعرفون الحب، ولا يعرفون الحنان.. وعندما يكون من سوء حظنا أن نلتقى بواحد منهم فى عمل أو فى موقف من المواقف فإننا ندرك على الفور أننا حالة من الحالات العسيرة، وأننا لن نستطيع تحقيق شئ مما نريده أو نحتاج له ونسعى إليه.



ونصل بعد ذلك إلى العنصر الثالث فى "الحنان" بعد الدفء، والقدرة على الحب. وهذا العنصر الثالث هو "الصبر". فالحنان

يحتاج احتياجا أساسيا إلى عنصر الصبر، لأن الحنان "المستعجل" لا قيمة له، فهو أشبه بتقديم "قطرة" من الماء إلى إنسان يكاد الظمأ أن يقتله ويقضى عليه، ومثل هذا الظمأ يكون بحاجة إلى "كوب" كامل من الماء يطفئ ظمأه، ويعيد إليه العافية المفقودة بسبب العطش الشديد.

الحنان لابد له من الصبر حتى يكون حنانا حقيقيا، ولا يمكن أن يكون صاحب الحنان الحقيقى إنسانا متعجلا، فإن رأى ما لا يعجبه أوقف قوة حنانه، وأنصرف غاضبا، ورفض أن يستمر فى تقديم عونه النفسى والروحى للآخرين.

هذا ليس حنانا، ولكنه تظاهر وكذب. فالحنان عاطفة قوية وليست رخوة، والحنان طويل البال، قادر دائما على الاحتمال حتى يحقق أثره الطيب ويؤتى ثمرته الناضجة.

ولا تصدق أبدا أن الحنان يمكن أن يكون طائشا أو متسرعا أو منتظرا لتحقيق نتائجه الطيبة فى لحظات قصيرة. فذلك حنان له شروط، وكل حنان مشروط هو ادعاء لا قيمة له فى حساب العواطف الإنسانية الحقيقية.

يبقى العنصر الرابع فى الحنان ولعله أهم هذه العناصر جميعا، وأكبرها صلة بالحنان الحقيقى المؤثر الذى ينفع الناس والحياة.



هذا العنصر الرابع هو "المرح"، فليس هناك ـ كما يقول الكاتبان الأمريكيان ـ "أكثر نقاء من صوت الضحكة المنبعثة من

الحنان، والتى تعتبر فيضا من بهجة الحياة ومتعتها". وبدون "المرح" يصبح الحنان درسا من دروس القسوة والتأنيب المستمر للإنسان، بحجة الدفاع عن مصالحه. ولذلك فإن كل أساليب العنف التى يستخدمها البعض ضد الآخرين لتعليمهم، أو ضمان إخلاصهم، أو فرض النظام عليهم، هى أساليب لا ينتج عنها أى خير حقيقى. فالأب القاسى على أولاده، والأم التى تتجهم دائما فى وجه أطفالها، والحاكم الذى يعاقب الناس بعنف وشدة ولا يعرف التسامح واللطف والمرونة مع شعبه، كل هؤلاء مخطئون، وكلهم لابد أن يكتشفوا فى النهاية أنهم لم ينجحوا فى الوصول إلى أهدافهم. إنهم جميعا يفتقدون روح "المرح" التى تجعلهم يتجاوزون الأخطاء الصغيرة، أو يعالجونها فى سماحة ويسر، وهم قد يضحكون من قلوبهم على هذه الأخطاء، فيساعدون أبناءهم أن كانوا أباء على تجاوز هذه الأخطاء دون تعقيد أو شعور بالذنب، ويساعدون شعوبهم إن كانوا حكاما على أن يكونوا أحرارا من المخاوف الصغيرة التى تطارد الإنسان وتجعل منه كائنا مضطربا إلى أبعد الحدود. وروح المرح هى قوة للإنسان تذيب الجليد القائم بينه وبين الآخرين، وتجعل العين شديدة التركيز على ما هو أساسى وجوهرى فى الحياة. فلابد أن يتعلم الإنسان عدم النبش فى "الجحور" الثانوية التى يمكن أن تكون مليئة بالأخطاء الصغيرة، والتى يمكن للمجتمع أن يعالجها .. ولين ومرونة دون الحاجة إلى أى نوع من التشدد والعنف.

ولعلنا نحن فى مصر ـ أفراداً وجماعات- من أكثر شعوب العالم إدراكا لقيمة"المرح" فى الحياة. فالنكتة المصرية أكثر شهرة من أهرام الجيزة. وأبناء مصر على مر العصور يستخدمون" المرح "لعلاج المآزق والأزمات. ولا شك أن روح المرح المتأصلة فى مصر كانت من الأسباب الحضارية القوية التى جعلت السياسة فى مصر فى معظم مراحل التاريخ بعيدة عن العنف والقسوة بينما كانت السياسة فى شعوب أخرى سببا دائما من أسباب المذابح وإسالة الدماء. وقد خلا تاريخ مصر تقريبا من هذه الظاهرة "الحمراء" وامتلأ بها تاريخ شعوب أخرى لم تعرف "المرح" فى طبعها وسلوكها ونظرتها للحياة.

الحنان الحقيقى يحتاج إلى المرح، كعنصر أساسى من عناصره، فلابد أن يكون صاحب القلب الحنون قادرا على الضحك، والضحك ليس تفاهة ولا سطحية، ولكنه قوة روحية، وشلال يتدفق من النفس ويقوم بتوليد كهرباء الحياة فيها، فتعمل بنشاط وحيوية ودون تعثر أو توقف أمام الأمور الصغيرة والعقبات المفاجئة. والذين لا يعرفون المرح والضحك لا يمكنهم أن يكونوا من أصحاب الحنان المطلوب والضرورى فى الحياة الإنسانية.



وهكذا نجد أن الحنان يتكون من أربعة عناصر أساسية هى: الدفء والقدرة على الحب، والصبر، والمرح. ولابد أن نقول هنا عن العنصر الأخير وهو "المرح" إنه لا يعنى أبدا خلو النفس من الحزن

والقلق، فالضاحكون الحقيقيون غير المزيفين، يشعرون بهموم الحياة ربما أكثر من غيرهم، ولكنهم يواجهونها بأسلحة متعددة منها هذا السلاح الأساسى وهو المرح. فالمرح أداة للتغلب على المتاعب والهموم، كما أنه أداة فعالة تساعد على الوصول إلى أفضل الحلول للأزمات المختلفة، إذ بدون "المرح" قد يجد الإنسان نفسه مضطرا إلى استخدام الحلول العنيفة والقاسية، والتى قد تصل أحيانا إلى أن تصبح حلولا دموية، إذا كانت المشكلة عامة ولها مساس بالسلطة والنفوذ.

وإذا نظرنا إلى المرحلة التاريخية الحالية ليس فى مصر وحدها بل فى العالم كله من الزاوية الإنسانية الخالصة فإننا يجب أن نعترف بأن "الحنان" بعناصره المختلفة يتضاءل دوره، فقد زادت مشاكل الحياة تعقيدا وصعوبة، وأصبح الصراع العملى المادى من أجل الرزق كبيرا وبالغ العنف، فالجميع يلهثون فى لهفة، قد لا يجدون معها لحظات هادئة يفكرون فيها ويتأملون ويتعاملون مع بعضهم البعض فى حنان.

وهكذا بدأنا نفقد ما فى الحنان من دفء وقدرة على الحب، وبدأنا نفقد الصبر المطلوب فى الحنان الحقيقى الجميل. والأخطر من ذلك كله أن روح "المرح" بدأت تتضاءل فى حياتنا بيننا فى مصر بوجه خاص فالصراعات المادية من أجل البحث عن فرصة مناسبة فى الحياة اتسعت، وأخذت تمتص ما فينا من قدرة على المرح، وظهرت نتيجة لذلك ظواهر غير مألوفة فى حياتنا

مثل التطرف والبلطجة، وهناك مظاهر أخرى لفقدان "الحنان" فى مجتمع مصر ربما كانت أكثر خطورة من التطرف والبلطجة، ومن هذه المظاهر ضخامة القضايا المرفوعة أمام المحاكم من مصريين ضد مصريين، فالساكن يتهم مالك العمارة، والمالك يتهم السكان، والشريك فى العمل سرعان ما يختلف مع شريكه ويقف الإثنان أمام القضاء، وقد وصلت الأمور فى بعض الحالات إلى حد أن الأخ لا يتردد عن اتهام أخيه ورفع قضايا ضده فى سبيل أمور كان يمكن تسويتها بالحسنى والتفاهم، لو كان هناك أساس عاطفى راسخ من المشاعر الطيبة التى يقف "الحنان" على رأسها. قرأت فى دراسة لأحد رجال القانون البارزين أن حجم القضايا الموجودة أمام المحاكم المصرية أصبح حجما ضخما وغير عادى، ومعظم القضايا متصل بخلافات عائلية، أو خلافات بين شركاء فى العمل، أو خلافات بين من يعملون فى مؤسسة واحدة والمفروض أن يرتبطوا مع بعضهم البعض بمصالح مشتركة، ومن هذه القضايا نسبة عالية يتهم فيها الزوج زوجته أو تتهم الزوجة زوجها، ويكون ذلك بعد علاقات عائلية استمرت سنوات طويلة. وبصورة عامة فقد أصبح هناك نسبة عالية من المصريين الذين لهم قضايا ـ بشكل أو بآخر ـ أمام المحاكم، وهذا يدل على ارتفاع نسبة الخلل فى العلاقات الإنسانية والعملية، وفقدان عاطفة الحنان بعناصرها المختلفة وهى:الدفء، والقدرة على الحب، والصبر، والمرح.

وقد تكون هذه الحالة من القلق والاضطراب فى العلاقات الإنسانية راجعة إلى أننا نمر بمرحلة انتقال كبرى، تتغير فيها القيم

والأفكار والعادات والمصالح، ويعاد فيها النظر إلى القوانين التى يقع عليها عبء تنظيم المجتمع وعلاقاته المختلفة، كما أن هناك ما يسميه بعض الباحثين باسم "ثورة الطموح" وذلك مرض عصرى ربما يكون قد أصاب الدنيا كلها، فطموحات الأفراد أصبحت كبيرة جدا، وأصبحت من ناحية أخرى أكبر من الإمكانيات المتاحة للناس، ومن هنا فإن الجميع يلهثون وراء سراب هذه الطموحات الكبيرة، وفى جريهم المحموم وراء هذا السراب فإنهم يفقدون القدرة الهادئة على تنظيم علاقاتهم الإنسانية على أساس هذه العاطفة القوية وهى عاطفة الحنان.

ومهما كانت الأسباب التى جعلت من "الحنان" فى حياتنا عاطفة يتراجع تأثيرها، وتقل مكانتها، فإن من واجبنا نحو أنفسنا أن ندرك خطورة هذا التراجع، وأن نعمل على استعادة دور الحنان فى حياتنا، حتى نتمكن من خلق مناخ مناسب يحقق لنا السعادة ويتيح لنا أن نعيش فى سلام مع أنفسنا ومع غيرنا، وأن نقضى حياتنا القصيرة ـ مهما طالت ـ على هذه الأرض فيما هو منتج ومفيد وممتع ومثير للنشاط والبهجة، بدلا من إضاعة أعمارنا فى صراعات حادة، يكون المنتصر فيها مثل المهزوم لأنهما معا قد أضاعا من العمر وقتا ثمينا، وأجهدا الأعصاب، وفرضا على نفسيهما قلقا واضطرابا كبيرين.

فلنبحث عن الحنان، ونعمل على أن يعود إليه سلطانه فى حياتنا الشخصية والعامة، بعد أن أصبح "الحنان" غريبا بيننا حتى يصح أن نقول: إن الحنان... بحاجة إلى حنان!

عاشق على الطريقة الإسلامية

وهل هناك عشق على الطريقة الإسلامية؟ وكيف يمكن أن تكون عليه هذه الطريقة الإسلامية فى الحب والهوى، إن كان لمثل هذه الطريقة وجود؟

هذا ما نجد إجابته عند أديب عربى كبير من أدباء النصف الأول من القرن العشرين، وهو مصطفى صادق الرافعى، «١٨٨٠ - ١٩٣٧». فقد كان الرافعى متمسكا بدينه الإسلامى أشد التمسك، وكان على فهم واسع لهذا الدين وإيمان عميق به. ولكنه كان مع ذلك شاعرا فنانا يحس بالجمال ويتأثر به أشد التأثر، وكان متزوجا من سيدة فاضلة هى شقيقة الشيخ «عبدالرحمن البرقوقى»، وهو أيضا عالم أديب، وكانت له مجلة ثقافية فى أوائل القرن الماضى هى مجلة «البيان» كانت مسرحا لكتابات أشهر الكتاب المصريين والعرب فى عصرها.

والبرقوقى أيضا هو صاحب «شرح ديوان المتنبى» وهو أوضح وأبسط شرح لأشعار المتنبى، والذى يقرأ هذا الشرح يحس أنه يقرأ كتابا عصريا سهلا يسيرا يكشف بقوة عن أسرار عبقرية المتنبى وما فى شعره، من سحر وعمق وجمال.

كيف يستطيع «مصطفى صادق الرافعى» أن يجمع بين حبه لزوجته، أم أولاده، وحرصه على الالتزام بمبادئ الإسلام الذى آمن به أشد الإيمان وأعظمه.. كيف يجمع بين هذا كله وبين نزعات قلبه المشتعل الفنان الذى يتأثر بالجمال ويستجيب له كلما رآه، وأحس به ومال إليه وامتلأ خياله الخصب بما يوحيه هذا الجمال من صور وأفكار ومشاعر؟!

إنها معادلة فى غاية الصعوبة، ولو كان الرافعى ضعيف الإيمان بالدين، أو كان من هؤلاء الذين يفضلون عبادة الجمال على عبادة الله لما وجد أى صعوبة فى الاستجابة لمشاعره الخاصة والجرى وراءها كلما لاحت له فى الدنيا الجمال وردة حلوة تحرك المشاعر وتثير أعمق الانفعالات. إنه فى هذه الحالة لن يجد ما يعوقه عن الحب ولا ما يقيد جناحيه عن الطيران الحر فى عالم الهوى والغرام.

ولكن «الرافعى» متمسك بعقيدته، ولا يريد للفنان فيه أن يتعدى على الدين والعقيدة، وهو «تناقض» عسير، لا يمكن حله بيسر وسهولة. ومع ذلك فقد وجد «الرافعى» الحل واستراح إليه، وذلك عن طريق الفصل الكامل بين «الحب الجسدى» و «الحب الروحى»، ففى عالم الجسد لم يسمح لنفسه بأى خروج على ما يفرضه الدين

من التزمات أخلاقية، أما فى عالم المشاعر فقد رأى أن يكون حرا طليقا بغير حدود. فالفنان - عنده - لا يمكن أن يعيش بقلب جامد وإحساس بالحياة مقيد بقيود شديدة صارمة، ولو أنه وضع قلبه ومشاعره فى «الثلاجة» وأغلق عليها الباب ولم يسمح لها بأن تنطلق فى حرية كاملة، فإن معنى ذلك أنه لن يكتب شيئا فى الجمال، ولن يفهم شيئا من هذا الجمال، بينما الجمال هو «نعمة» من أكبر النعم التى أهداها الله إلى الحياة، فكيف ننكر نعمة الله، ونرفضها، ونضع القيود عليها ونتوقف عن التغنى بها، وفهم معانيها، والشعور بما فى هذه المعانى من سعادة ونشوة وانطلاق؟!

لذلك كله كان الحب عند الرافعى» له معنى آخر غير المعنى الذى له عند سائر الناس. ولا أستطيع أنا أن أحدد هذا المعنى بدقة، ولكن الذى قام بهذا التحديد هو تلميذ الرافعى وصديقه الأديب الفنان محمد سعيد العريان، والذى يقول فى كتابه الجميل الممتع «حياة الرافعى»:

«إن الحب الذى أعنيه - وكان يعنيه الرافعى - هو شئ غير الحب الذى يدل عليه مدلول هذه الكلمة عند أبناء هذا الجيل.. أن الحب عند الناس هو حيلة الحياة لإيجاد النوع، ولكنه عند الرافعى هو حيلة النفس إلى السمو والإشراق والوصول إلى الشاطئ المجهول. إنه نافذة تطل منها البشرية إلى غاياتها العليا. وأهدافها البعيدة، وامالها الإنسانية السامية، إنه مادة الشعر وجلاء الخاطر وينبوع الرحمة وأداة البيان».

«وكان الرافعى يسمى كل جميلة: شاعرة، لأنها هى تمنحه الشعر، و «الشواعر» أو «الشاعرات» عنده طبقات على مقدار ما يبعثن فيه من الشاعرية ويرهفن من إحساسه. ففلانة شاعرة كالمتنبى وهذه كالبحترى وتلك بنت الرومى، ورابعة بشاربنبرد، وخامسة عبد الله عفيفى أو شاعر الرعاع..!!»

هذا هو الرافعى كما يصفه تلميذه محمد سعيد الريان. وهو الرافعى الذى كان يقول فى كلمة مشهورة له:

«أن النابغة فى الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق».

ومن هنا ترك الرافعى نفسه لتتطلق فى ألوان متعددة من الحب، كان أشهرها حبه لأديبة عربية معروفة فى عصره هى «مى».

وعندما وقع الرافعى فى حب «مى» وغيرها، وقع أيضا فى حيرة قاسية بين «دينه» و «قلبه».

لقد كان متزوجا فكيف يحب؟

وكان ملتزما أشد الالتزام بالأخلاق الدينية، فكيف يسمح لنفسه بالخيانة والحياة فى علاقة «سرية» مع امرأة أخرى غير زوجته؟

ونعود مرة أخرى إلى كتاب » حياة الرافعى» محمد سعيد العريان. لنرى الحل الذى أهتدى إليه الرافعى، وهو حل غريب وعجيب.

يقول العريان:

فى فترة من حياة الرافعى كان للرافعى هوى وغرام، ووقع له فى هواه ما يقع للمحبين من ضرورات الحب، ودافع نفسه ما دافع فلم

يجد له طاقة على المقاومة، واحتال على الخلاص فما أجدته الحيلة إلا هما على هم، وكان حبه أقوى منه، ما أنا وهذا الحب الذى يعترض طريقى ويغلبنى على إرادتى؟ أن فى بيتى امرأة أحبها وتحبنى. وأن لها حقا ليس منه: أن يكون منى لغيرها نظرة أو ابتسامة إلا أن تأذن لى! ماذا شكون من أمرى وأمرها غدا أمام الله حين يطلب كل ذى حق حقه؟ أأقول لها: نعم قد ضيعت حقك وأعطيت من قلبى الذى لا أملك لمن لا تملك؟ ويلى! أنها الخيانة والاثم والعار».

وذهب إلى زوجته فحدثها وحدثته، ثم أفضى إليها بحكاية حبه. وكشف لها عن نفسه، ثم قال لها: وأنت يا زوجتى هل يخفى عليك مكانك منى؟ ولكن...»

«واستمعت إليه زوجته هادئة مطمئنة... ثم أذنت له.. وكتب الرافعى رسالته الأولى إلى حبيبته التى غلبته على قلبه، وقرأت زوجته الرسالة وطوتها وأرسلت بها إلى صندوق البريد.. وجاء جواب صاحبته فقرأته زوجته كما قرأت رسالته، وصار هذا دأبهما بعد ذلك: لا ترى زوجته لها حقا عليه إلا أن تعرف، ولا يرى على نفسه فى ذلك ملامة ما دامت زوجته تعرف.. وأنشأ هذا الحب كتابين فى الأدب العربى تم بهما نقص العربية فى فلسفة الحب والجمال هما كتابا «رسائل الأحزان» و «السحاب الأحمر».

هذا هو ما كتبه محمد سعيد العريان تلميذ الرافعى وأقرب أصدقائه إليه.

والقصة التى كتبها العريان هى من أغرب القصص وأعجبها. وأعجب ما فيها - ولا شك - أن تقبل الزوجة من زوجها أن يحب غيرها، وأن تقوم هى نفسها بإرسال رسائل زوجها إلى حبيبته، وأن تقوم بعد ذلك بقراءة رسائل الحبيبة إلى زوجها، ولا تفسير لذلك إلا أن تكون هذه الزوجة «الطيبة الكريمة» قد اقتنعت تماما بأن المسألة لا تتعدى حدود «الكتابة» و «التعبير»، وأن زوجها الأديب الفنان إنما يعيش فى عالمين منفصلين:

عالم حقيقى واقعى تتربع فيه الزوجة على «العرش» ولا يشاركها فيه أحد، وعالم آخر خيالى وهمى يحرك مشاعر زوجها الفنان ويتيح له فرصة للكتابة والإبداع.

ولا شك أن هذه الزوجة كانت من النساء «العاقلات» اللواتى لا يهمهن إلا الواقع والحقيقة، أما الخيال وما يتصل به فلا يعنيهن فى شئ.

وهى زوجة نادرة ولاشك، لأن معظم النساء يحاسبن أزواجهن حتى على الخيال والأحلام.

والقصة كلها - كما أشرت - عجيبة وغريبة، ولم أقرأ مثلها فى الأدب العربى أو الأدب العالمى، أديب فنان يحتاج إلى الحب ليكتب وينفعل ويجد ما يعبر عنه وما يوحى إليه بالمعانى الجميلة. ولكنه رجل «متدين» عن وعى وبصيرة ويخشى أن يخطئ فى «دينه» بسبب «قلبه» و «فنه» فليلجأ إلى هذا الأسلوب العجيب من الأعتراف لزوجته، وإقناعها بأن ما يفعلها إنما هو فى سبيل الفن، وأنه لم

يرتكب ولن يرتكب أى خطأ آخـر يمكن أن يحـاسـبـه الله عليـه أو تحاسبه زوجته، وربما كان حساب الزوجة أشد قسوة وعنفا، فالله فى آخر الأمر وأوله: غفور رحيم. وأما الزوجات فإنهن ـ فى أغلب الحالات ـ لا يعرفن الغفران ولا يعرفن الرحمة فيما يتصل بحقهن فى قلوب أزواجهن. وما حدث بالنسبة للرافعى هو «استثناء» نادر، فقد أرضى ضميره الدينى، وأرضى زوجته.. ولو حدثت هذه القصةالان أى بعد وفاة الرافعى بما يقرب من سبعين سنة، لكان نصيب الزوج فيها ـ على الأقل ـ: ضرب الحذاء والشباشب، والطرد من البيت والتجرد من «الأهلية الزوجية» ليصبح الزوج من المشردين والضائعين فأين هى الزوجة التى تسمح لزوجها أن يقول لها أنا أحب غيرك، فتسمح له بذلك وتساعده عليه؟... ذلك أمر يفوق الخيال ويبتعد عن الواقع. ولكنه مع ذلك قد حدث فى حياة الرافعى.

إنها القصة الوحيدة التى قرأتها وأستطيع أن أقول عنها: أنها تمثل العشق على الطريقة الإسلامية!!.

برنامج للحب والسعادة

هل يمكن أن نتصور أن امرأة مصرية كانت تعيش فى أوائل القرن الماضى فى الصعيد، تستطيع أن تشترط قبل زواجها على الرجل الذى يقدم إليها ألا يتزوج هذا الرجل بامرأة غيرها، فإن فعل ذلك فإنه يحق لها الطلاق بالثلاثة؟.. وهل يصدق أحد أن مثل هذه المرأة.. استطاعت أن تجد الزوج الذى يقبل شروطها، ويرحب بها، بل ويكتب لها وثيقة بذلك يتعهد فيها بعدم الزواج من امرأة غيرها ليكون من حقها أن تطلق نفسها بنفسها إذا وجدت من زوجها مخالفة لهذا الإتفاق؟

إنها قصة من أجمل القصص الواقعية التى حدثت فى حياتنا فى أوائل القرن التاسع عشر، وبالتحديد منذ ما يقرب من مائة وثمانين سنة على التقريب. وفى تلك الفترة البعيدة لم تكن المرأة

فى مصر بل وفى الشرق كله تملك من أمر نفسها شيئا، وكان من الشائع أن تتعدد زوجات الرجال، وخاصة من كان منهم ميسورا وقادرا من الناحية الأقتصادية، بل وفى تلك الفترة لم يكن نظام «الرق» قد تم إلغاؤه وتحريمه، وكانت الأسر الكبيرة فى مصر وغيرها من البلاد الشرقية تملك عددا من الرقيق والجوارى، وكان التفسير الشائع للشريعة الإسلامية ـ كما يقول العالم الباحث الدكتور محمد عمارة ـ «يبيح للرجال التمتع بما شاء مما يملك من الجوارى».

وفى هذا العصر الذى كانت المرأة لا تستطيع فيه أن تعترض على تعدد الزوجات، لا على استمتاع الرجال بالجوارى كما يشاءون، وقفت هذه المرأة الصعيدية تطلب لنفسها أن تكون الزوجة الوحيدة فى حياة زوجها، وألا تكون له علاقة بذلك الحق الذى كان مباحا وهو حق «الاستمتاع بالجوارى، مهما كان عددهن ولا بحقه فى الزواج من امرأة أخرى غيرها «أنها تطلب الكرامة لنفسها فى زواجها، وتعتبر هذه الكرامة مرتبطة بإخلاص زوجها لها وحدها، فإذا خرج الزوج على هذه القاعدة أصبح من حقها الطلاق والانفصال عنه.

امرأة بلا رأى ولا حرية فى أختيار زوجها أو فى أن تفرض عليه شروطا من هذا النوع غير المألوف.. ومع ذلك فقد أصرت هذه الصعيدية على موقفها وطلبت من زوج المستقبل أن يتعهد لها بما تريده لنفسها وهو أن تكون الزوجة الوحيدة له.. والحبيبة الوحيدة.

وتدلنا الأحداث المعروفة عن هذه القصة، أن المرأة الصعيدية الشجاعة، لم تجد أى معارضة لمطالبها بل وجدت تأييدا واستجابة كاملة وترحيبا غير محدود من جانب الزوج، فقد كان الزوج نبيلا، وكان صاحب عقل كبير مستنير ملئ بالنور الغامر، وكان صاحب شخصية قوية أصيلة، وكانت رأسه مليئة بالأحلام الكبيرة، ليس لنفسه فقط، بل لبلاده، وأبناء شعبه أيضا وعلى رأسهم نساء هذا الشعب.

أما هذه المرأة الصعيدية الشجاعة فهى «الحاجة كريمة بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلى الأنصارى». من مدينة «طهطا» فى الصعيد. أما الزوج الذى تقدم إليها يطلب يدها فإنه «المعلم الأول» فى مصر الحديثة الناهضة "رفاعة الطهطاوى" فقد سارع هذا الرجل النبيل بتقديم مالم يطلبه أحد منه، وكان يكفيه أن يتعهد شفويا بما طلبته الحاجة "كريمة" والنص فى عقد الزواج على أن الزوجة فى "يدها العصمة"، وعندما تكون "العصمة" فى يد الزوجة، فإن من حقها أن تطلق نفسها من زوجها إذا رأت أن هناك ما يسئ إليها أو يمس كرامتها أو يجعلها غير راضية كزوجة وشريكة حياة. ولكن رفاعة لم يتوقف عند الوعد الشفوى، ولم يفكرفى الاكتفاء بعقد الزواج الشرعى والنص فيه على أن الزوجة "فى يدها العصمة" التى تبيح لها تطليق نفسها منه إذا أرادت ذلك.

لم يكتف "رفاعة الطهطاوى" بذلك، بل كتب على نفسه وثيقة فريدة من نوعها هذا نصها:

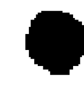
" التزم كاتب هذه الأحرف، رفاعة بدوى رافع الطهطاوى لبنت خاله المصونةالحاجة "كريمة" بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلى الانصارى، أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى، أو جارية أيا كانت، وعلق عصمتها على أخذ غيرها من النساء، أو تمتع بجارية أخرى، أيا كانت، بنت خاله بمجرد العقد "على الزوجة الأخرى"، طالق بالثلاثة، وكذلك إذا تمتع بجارية "ملك يمين". وقد وعدها أى بنت خاله وزوجته، وعدا صحيحا. لا يمكن انتقاصه أو الإخلال به، أنها ما دامت معه على المحبة المعهودة، مقيمة على الأمانة والعهد لبيتها ولأولادها ولخدمها وجواريها، ساكنة معه فى محل سكناه، لا يتزوج بغيرها أصلا، ولا يخرجها من عصمته حتى يقضى الله له بقضاء".

ومعنى هذه الوثيقة المكتوبه هو ببساطة: أن الزوج، رفاعة الطهطاوى سوف يكون ملتزما ووفيا لزوجته "الحاجة كريمة" حتى الموت.

هذه هى الوثيقة التى كتبها رفاعة الطهطاوى لزوجته عندما تقدم إليها يطلب يدها، وقد كتبها دون أن يفترض عليه أحد ذلك، وكتبها فى عصر لم يكن فيه الرجال يلتزمون بمثل هذه الالتزامات. فالوثيقة مكتوبة حوالى سنة ١٨٢٥. إذ أننى لم أتمكن من العثور الدقيق على تاريخ زواج الطهطاوى ولكنه -بالقطع- تزوج قبل سفره إلى باريس فى أول بعثة مصرية إلى أوربا سنة ١٨٢٦.

وأول مصدر علمى قرأت فيه نص هذة الوثيقة العجيبة هو كتاب الدكتور رفعت السعد "تاريخ الفكر الاشتراكى فى مصر" صفحة ٣٥

من الطبعة الأولى الصادرة سنة ١٩٦٩. أعاد الدكتور محمد عمارة نشر الوثيقة فى كتاب عن "رفاعة الطهطاوى".



كان الطهطاوى إنسانا جميلا ورجلا عظيما، وكانت زوجته الحاجة "كريمة" امرأة صعيدية أصيلة وشجاعة. ولن نستطيع تقدير قيمة هذه الوثيقة والإحساس بأهميتها إلا إذا عرفنا أنه فى ذلك العصر. وهو الربع الأول من القرن التاسع عشر، كان تعدد الزوجات شائعا بين الرجال، وكان نظام "الجوارى" موجودا ومشروعا، وأى جارية لرجل كان مسموح له أن يستمتع بها شرعا، دون حرج، وكان نظام "الرق" فى المجتمع المصرى لا يزال قائما، وكما يقول الدكتور محمد عمارة فى كتابه عن الطهطاوى، أن أولى تشريعات تحريم الرق بدأت فى إنجلترا ١٨٠٧،وتم تطبيقها على المستعمرات الإنجليزية فى جزر الهند الغربية سنة ١٨٣٣، ولم تتعهد الحكومات الإسلامية بما فيها مصر، بتحريم الرق إلا عندما انضمت إلى اتفاقية برلين سنة ١٨٨٥ ثم اتفاقية بروكسل سنة ١٨٩٠».

أى أن رفاعة الطهطاوى كتب وثيقته إلى زوجته فى وقت كان فيه تعدد الزوجات شائعاً وكان «الاستمتاع» بالجوارى قائما ومباحا وممكنا، ولكنه حرم على نفسه ذلك، كما حرم عليها أن يتزوج بامرأة أخرى على زوجته.

ولقد كان الطهطاوى فى وثيقته التى قدمها إلى زوجته يتصرف على أساس فكرة راقية عن المرأة استقرت فى ذهنه وقلبه من

خلال ثقافته وتجربته وتكوينه النفسى الراقى السليم، فهو يقول فى أحد كتبه «أنه كلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم و«ظرافتهم» فعدم توفية النساء حقوقهن، فيما ينبغى لهن الحرية فيه، دليل على الطبيعة المتبربرة، المتوحشة، وفى كلمات أخرى يقول الطهطاوى «إن المرأة مثل الرجل سواء، بسواء، أعضاؤها كأعضائه وحاجتها كحاجته، وحواسها الظاهرة والباطنة كحواسه، وصفاتها كصفاته، حتى كادت الأنثى أن تنتظم فى سلك الرجال». ويقول الطهطاوى أيضا إن «الفضائل إنسانية، توجد فى الرجال والنساء، ولكن على وجه مختلف فى طباعهن، هذه الصفات مثل الشجاعة والسخاء والعفة، هى صفات عامة فى جميع أمم الدنيا وقبائلها وأحيائها وذكورها وأناثها».

ويصل رفاعة الطهطاوى فى فهمه للعلاقة بين الرجل والمرأة إلى حد رائع من الصفاء والعمق، حيث يرى أن «الصداقة» هى عنصر أساسى من العناصر التى تجعل الحب قويا بين الزوجين، والحق أن الحب إذا لم يتحول إلى صداقة حميمة قائمة بين الحبيبين أو الزوجين. فإن هذا الحب بدون هذه الصداقة يفقد الكثير من جماله وبهجته وقدرته على الاستمرار والتأثير فى حياة أصحابه.

يقول الطهطاوى فى كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين»:

« .. معرفة ارضاء أحد الزوجين للآخر فن نفيس، وإن كان صعبا فى حد ذاته. لأنه يستدعى كمال التربية، والإتصاف بالعدل، وقوة

العقل، وذكاء الفطنة واعتياد كل من الزوج والزوجة على تحسين أحوال المنزل المشترك بينهما وتربيته وتنظيفه بقدر ما يمكن، ومعرفة الاعتناء بالوسائل التى تستدعيها «الصداقة» بين الزوجين لاشتراكها فى المنفعة العمومية، وينبغى أن يكون الحب الموجود فى قلبى والرجل والمرأة بعضهما لبعض، عبارة عن وداد خالص، والمحبة هنا مشوبة بالصداقة هى التى ينتج عنها بين الرجل وأهله كمال الاتحاد والائتلاف فى جميع الحركات والسكنات، والأحوال والأطوار، مع ما ينشأ من ذلك من تقوية الجذب والمسامرة والمحادثة، والتبسم وإظهار التلطف والتعطف، مع كل ما يترك فى النفس من تأكيد المحبة فتستحيل إلى عشق الشمائل «أى الصفات» المعنوية التى تبقى فى المرأة دائما وأبدا. فتبقى على ما هى عليه بعد الجمال الظاهرى، حيث يرى الزوج زوجته بالعين التى رآها بها يوم عرسها. فالإنسان الصادق فى حب من يهواه يصاحب الأصل. ويرى إبقاء ما كان على ما كان ، فكل ما إنمحى خارج العيان فهو موجود فى الأذهان...»

«وكما أن الرجل الكامل يرى زوجته بعين الإجلال والاحترام، فكذلك الزوجة الكاملة المحبة لزوجها لا ترى فى الدنيا رجلا يساوى زوجها، وربما أحبته حبين حبا لذاته، وحبا لحقوق الزوجية، فهذه هى المحبة الرشيدة، فمن ذلك يكون معلوما أن الوسيلة الوحيدة فى استدامة الود بين الزوجين ولو بعد فقدان المحاسن والإجلال بين النساء والرجال.

وعلى الزوجين أن يجتهدا فى حبهما لبعضهما البعض حبا تاما، وألا يذم أحدهما الآخر فى غيبته وألا يغضبا فى وقت واحد، وألا يتحدث أحدهما إلى الآخر بصوت عال. وأن يخضع كل منهما لإرادة الآخر: الرجل بالحب، والمرأة بالطاعة، وألا يلوم أحدهما الآخر على زلة لم يتأكد وجودها فيه، وألا يلوم أحدهما الآخر على خطأ ماض. وإلا يضطر أحدهما الآخر إلى تكرار الطلب فى حاجة، وإلا يفارق أحدهما الآخر، ولو يوما واحدا، من دون أن يودعه بكلمة من كلمات المحبة، كى يتذكره بها مدة الغياب، وألا يلتقيا دون ترحيب، وإلا يدعا الشمس تغرب على غضب أوزلة، وألا يدعا زلة ارتكباها تمضى دون إقرار بها، وطلب السماح عنها، وألا يبكيا على ما فات، بل يرضيان بما يوجد، وأن يجعلا الصدق دأبهما فى معاملة أحدهما الآخر..»

وأخيرا يوجه الطهطاوى هذه الكلمة القاطعة إلى الرجال:

«أياك أن تتزوج على أمرأتك، أو تتسرى عليها «أى تتخذ جارية لك معها» إلا أن وطنت نفسك على نكد الدهر».

ويرتفع الطهطاوى فى تقديره للمرأة إلى درجة عالية فيقول:

«إن درجة الفضيلة فى النساء، كالعفة والعصمة، أشد منها فى الرجال، بحيث يبلغن فى درجة الحياء أوج الكمال، فإن المرأة العفيفة الكريمة النفس تتحمل أثقاف الحركات النفسانية عند الاحتياج إليها، مما يعجز صناديد.. الرجل أى الشجعان منهم عن الصبر عليها، فمن تأمل فى نوع البشر ظهر له أن الأنثى لم تقتسم

مع الرجل نصيبها ـ مناصفة ـ من اللذات والآلام، فهى أكثر منه فى التعرض للأعراض الخاصة بهذه اللذات والآلام، حتى أن المرأة لا تتمتع بمطلوبها إلا إذا ذاقت فى مقابلها أشد الأوجاع، فلذتها المباحة لا تنالها إلا ببذل القوة والصحة وربما فقدت الحياة بقضاء وطرها «أى هدفها» كأن تتطلق «بالطلق» أثناء الولادة إلى دار الحق.

هذه هى فلسفة الطهطاوى فيما يتصل بالمرأة والتى عبر عنها فى كثير من كتاباته وخاصة فى كتابه العميق السابق لعصره والممتع الطريف الذى سماه باسم «المرشد الأمين للبنات والبنين».

هكذا نجد أن الطهطاوى «١٨٠١ ـ ١٨٧٣» يقدم لنا أول نموذج حى رفيع المستوى للدفاع عن المرأة المصرية والعربية والإسلامية بصورة عامة فى العصر الحديث فمنذ مائة وثمانين سنة تقريبا كان الطهطاوى يكتب هذا الكلام، ويسجل على نفسه فى وثيقة مكتوبة التزامه بألا يتزوج على زوجته، فإن فعل ذلك ـ ولن يفعل ـ فمن حق زوجته أن تكون «طالقا بالثلاثة»، وأن تنفض يدها منه، وقد كان هذا أمرا عجيبا، فى عصر كانت فيه المرأة بلا إرادة ولا حرية ولا تعليم، وكان عليها أن تقبل زواج رجلها بثلاث زوجات أخريات، وكان عليها أن تقبل أن يكون له من الجوارى ما شاءت له رغبته وإمكانياته المالية.

وكان ذلك كله منذ حوالى مائة وثمانين سنة مضت، حيث كان الرجال «طغاة» ، وكانت المرأة فريسة سهلة للأفكار الخاطئة،

وكانت محرومة من كل نعمة فى الحياة، ومنها نعمة التعليم ونعمة العمل والاستقلال الاقتصادى، ونعمة المساواة فى الحقوق الإنسانية الكاملة، ابتداء من حرية اختيار حبيبها وزوجها إلى حرية الانفصال عنه إذا أساء إليها بأى صورة من الصور. فالطهطاوى هو رجل عظيم، وصديق نادر للمرأة فى تاريخنا الحديث الذى يبدأ منذ عصر محمد على «١٨٠٥ إلى الآن، وهو يستحق أن تكون له صورة فى كل بيت، وليحتفلن بذكراه كل عام، حتى يتذكر الجميع أن هذا الرجل صاحب العقل الكبير، والقلب العامر بالعواطف الراقية والمشاعر السامية، كان أول من رفع صوته بالدفاع عن المرأة، وكان صاحب أول برنامج كامل للحب الناجح والسعادة الزوجية الصحيحة فى تاريخنا الثقافى الحديث. إنه رجل أخرج المرأة من الظلام إلى النور. وهاجم كل الأساليب الوحشية فى معاملة النساء واعتبارهن نوعا من «الأثاث» فى البيت، لا كرامة لهن ولا حرية، وهو أول من طالب بتعليم المرأة، وسخر سخرية قوية من ذلك القول الشائع الذى كان يتردد بأن المرأة إذا تعلمت فأنها سوف تستخدم تعليمها فى كتابه «الرسائل الغرامية» إلى الرجال. وأعتبر أن ذلك التفكير هو نوع من العبث والهمجية ، وأن المرأة المتعلمة هى كنز للرجال والأبناء، وقوة راسخة للمجتمع، تزرع فيه الورد، وتضئ فيه الأنوار، وتقيم فيه أساسا لا يهتز للمبادئ الصحيحة فى السلوك والعمل والعلاقات الإنسانية. الطهطاوى رجل عظيم أحب الحياة، وأراد لبلاده أن تنهض وتتقدم، وأدرك أن دور المرأة فى حياة العائلة والمجتمع، هو الدور الذى

يعطى قوة «البهجة والفرح» للجميع، حتى يتمكنوا من الوصول إلى الحماس» فى عملهم وعلاقاتهم الإنسانية وجهادهم من أجل التفوق فى حياتهم الخاصة وفى حياة المجتمع كله.

إنه رجل يقدم إلينا برنامجا كاملا للحب والسعادة الزوجية. ويقدم أسلوبا إنسانيا راقيا فى فهم معنى الحب، وفهم معنى السعادة، وهو صاحب الكلمات المشرقة، والوثيقة العجيبة التى قدمها بإرادته الحرة إلى زوجته «الحاجة كريمة»، واعدا إياها بالوفاء الكامل لها وعدم الزواج عليها. فإن فعل، وخان، وأخلف العهد، كان من حقها أن تطلق نفسها منه «بالثلاثة».

الطهطاوى رجل عظيم، جميل، نبيل، سبق عصره وأضاء مصباحا للحب والسعادة فى أيام كان الظلام فيها شاملا، وكانت المرأة لا شئ، وكان المجتمع منها مغلقا ومظلما، وكانت معانى الحب، وما يرتبط بها من الصداقة، والإحساس العميق بالمسئولية وهما من الأوهام.

ورقة فى العاصفة

هل يستطيع إنسان واحد فى عصرنا الحالى أن يصحو من نومه فى الصباح الباكر، ويفتح نوافذه على النور، ويقول بينه وبين نفسه: ما أجمل الحياة؟!.. أظن أن ذلك أصبح من الأمور الصعبة، فعبارة «ما أجمل الحياة» تحتاج منا إلى جهد كبير كى نقولها، وتحتاج إلى جهد أكبر لكى نؤمن بأنها عبارة صحيحة، ويعود ذلك إلى أن العصر الذى نعيش فيه هو عصر الضوضاء والزحام، وهو عصر الأعباء الكثيرة التى يتحملها الإنسان، فالمطلوب من الإنسان فى عصرنا أن ينجز فى يوم واحد ما يحتاج إلى أسبوع أو أكثر، ولذلك فمن النادر أن ينام الإنسان دون أن يكون لديه شعور بشئ من التقصير، لأنه لم يستطع إنجاز كل ما كان يريد إنجازه فى اليوم الذى مضى، وهذا الشعور بعدم الرضا لم يعد شعورا محدودا بمجتمع معين، فهو شعور عالمى يملأ الدنيا كلها. والأمريكى

يشترك فى هذا الشعور مع اليابانى وسكان أفريقيا وآسيا وأوروبا، فالناس لا يستطيعون أن يقولوا لأنفسهم فى الصباح، وهم مطئنون:

ما أجمل الحياة!

وكثيرا ما يظهر أمامنا سؤال حائر هو كيف: نعيد عبارة «ما أجمل الحياة إلى القاموس الإنسانى»؟

كيف يمكننا أن نجعل هذه العبارة إحدى العبارات التى نرددها ولو بين حين وحين؟ كيف نستطيع أن نفتح قلوبنا لاستقبال هذا الصوت الخفى الذى لا يمكن أن نسمعه إلا من داخلنا، وهو يقول لنا: إن الحياة جميلة رغم كل شئ؟ كيف يعود الرضا، أو بعض الرضا على الأقل إلى النفوس القلقة، المضطربة فوق هذه الأرض؟.. وببساطة شديدة: كيف نتوصل إلى درجة هادئة من الإحساس ببعض السعادة الضائعة فى زحام الحياة العصرية؟.

كيف نسيطر على ذلك البرنامج الصعب الذى نفرضه على أنفسنا أو تفرضه علينا الحياة فى اليوم الواحد، فينتهى اليوم ونشعر أننا لم ننجز كل ما نريد، ويتسرب إلينا القلق، ونحس كأن علينا دينا لابد أن نسدده قبل شروق الشمس فى اليوم الجديد؟!

لو نظرنا حولنا سوف نجد أن هناك أشياء صغيرة قد تعيد إلينا قدرتنا على أن نقول: ما أجمل الحياة. فنحن لم نعد نلتقى بأصدقاء حميمين، فالصداقة فى عصرنا المزدحم نوع من الترف وكثيرا ما يستغنى الناس عن هذا الترف قائلين: فى الوقت الحالى ليس عندنا فرصة للصداقة . وفى محيط الأسرة قد يندر أن

يجلس الإنسان مع أهله ساعة أو ساعتين فى أمان وهدوء، فالكل يجرى وراء همومه ومشاغله، فإن جلسوا للطعام معا جلسوا صامتين وأكلوا مسرعين. وأن جلسوا أمام التليفزيون كان كل واحد منهم يعيش فى عالمه الخاص. فالسرعة والضوضاء وكثرة المشاغل تجعلنا ننسى الينابيع البسيطة للسعادة، ونلهث وراء أشياء كثيرة لا يتسع لها اليوم الواحد. فكيف نعود إلى طبيعتنا؟ وكيف نسترد ما سرقته منا الحياة العصرية؟ وكيف نخرج من هذا المأزق الروحى والعملى الذى نعانى منه جميعا؟.

قد لا نعترف أننا نعيش فى مثل هذا المأزق، لأننا كثيرا ما نشعر بأن الوقت لا يتسع حتى لمثل هذا الاعتراف، ولا أحد يحب أن يقول لنفسه: هناك شئ ينقصنى، ولابد أن أبحث عنه وأعثر عليه.

ولكن.. ما أجمل أن نتعلم من تجارب الآخرين الذين عانوا ما نعانيه، واستطاعوا أن يجدوا لأنفسهم بعض العلاج.

هذا طبيب أمريكى أسمه الدكتور فردريك لوميس» يروى لنا تجربته فى مواجهة النظام القاسى للحياة الحديثة، ويصور لنا كيف ساعدته امرأة مجهولة على أن يكتشف خطأ نظامه فى الحياة، وكيف دفعته هذه المرأة المجهولة إلى تغيير برنامجه، بعد أكثر من عشرين سنة متصلة قضاها فى عمله كطبيب للولادة وأمراض النساء، ولم يكن يفكر فى شئ آخر غير العمل، ولم يكن يغادر المستشفى ليلا أو نهارا، ولم يكن يحس بأن فى الدنيا شيئا

مختلفا عما يقوم به كل يوم، وهو نوع من المرض بالعمل المستمر، ولا أعرف معنى لكلمة الإجازة منذ سنوات بعيدة، ولكن هذا الطبيب الخبير وصاحب التجربة يعلمنا درسا في الحياة، لاشك أنه عميق وبالغ الصدق والأمانة، وهذا الدرس يثبت خطأ كل من يعانون من مرض «العمل المستمر»، وأنا منهم.

يقول الطبيب الإنسان «والنص منشور فى مجلة المختار فى عدد يناير سنة ١٩٤٧».

«تلقيت منذ سنوات رسالة كان أثرها فى نفسى عميقا، وما رويت قصة هذه الرسالة لأحد إلا ووجدت كل من حولى يستجيبون لها مفكرين متأملين فيما جاء بهذه الرسالة. أما الرسالة نفسها فتقول:

«بكين - الصين..

عزيزى الدكتور.. أرجو الا يدهشك كثيرا أن تتلقى منى رسالة، وقد وقعتها بأسمى الأول وحده لأن لقبى يشبه لقبك وهو «لوميس». وحسبك لأن تتذكرنى. وقد كنت قبل عامين فى المستشفى الذى تعمل أنت فيه وكنت أنا تحت رعاية طبيب آخر. ومات طفلى يوم أن ولد. وفى اليوم نفسه زارنى طبيبى ليرانى، ولما هم بالإنصراف قال لى: على فكرة.. هناك طبيب اسمه مثل اسمك، وقد لاحظ اسمك على لوحة المرضى وسألنى عنك، وقال أنه يود أن يراك، فقد تكونين من قريباته، فقلت له أن طفلك قد مات يوم ميلاده، وأنى لا أظن أنك ترغبين فى رؤية أحد، أما أنا - كطبيب لك

. فلا اعتراض لى على أن يراك زميلى الطبيب الذى يسأل عنك. وبعد قليل جئت أنت، فوضعت كفك على ذراعى وجلست بجانب سريرى لحظة. ولم تقل لى شيئا يذكر، ولكن كان فى عينيك وصوتك حنان. وسرعان ماشعرت أنا أننى تحسنت . وقد لاحظت وأنت جالس عندى أنك تبدو متعبا، وأن التجاعيد التى بدأت تظهر على وجهك عميقة، ولم أرك بعد ذلك أبدا، ولكن الممرضات قلن لى أنك لا تكاد تبرح المستشفى ليلا أو نهارا».

أنا أمريكية أعمل فى بكين عاصمة الصين. وفى عصر هذا اليوم كنت ضيفة فى بيت صينى جميل، هنا فى بكين، والبيت له حديقة، ذات سور مرتفع، وعلى أحد الجوانب توجد لوحة نحاسية تحف بها أزهار بيضاء وحمراء متعانقة، وقد طلبت من بعضهم!

أن يترجم ما هو مكتوب على اللوحة فقال لى أن اللوحة مكتوب عليها عبارة واحدة هى:

«متع نفسك، فقد تأخرت أكثر مما تظن».

فأخذت أفكر فى هذه العبارة، وكنت قد زهدت فى الحمل مرة أخرى لأنى كنت لا أزال حزينة على طفلى الذى فقدته يوم ولادته، ولكن عزمى قد استقر فى تلك اللحظة على ألا أنتظر أكثر مما انتظرت، وقد فكرت كثيرا فى تعبك، وفى تلك التجاعيد التى فى وجهك، وفى لحظة العطف التى شعرت بها من جانبك، حين كنت أحوج ما أكون إليها. ولست أعرف ما هو عمرك الحقيقى. ولكننى واثقة أنك فى مثل سن أبى، وأنا أعلم أن الدقائق التى قضيتها

معى، لا قيمة لها عندك بالطبع، ولكنها كانت عظيمة القيمة لأمرأة كانت فى غاية البؤس. ولذلك أتشجع على الظن بأننى أقدم إليك معروفا مقابل المعروف الذى قدمته لى. وعسى ألا يكون الوقت فيما يتعلق بك، قد تأخر أكثر مما تظن، وأرجو أن تسامحنى، ولكن حين ينتهى عملك، أرجو أيضا أن تجلس وحدك ،تفكر فيما قلته لك فى هذه الرسالة، وفى اللوحة النحاسية الصينية، التى بها عبارة تقول: متع نفسك، فقد تأخرت أكثر مما تظن.. مرجريت».

تلك هى رسالة السيدة الأمريكية، الشابة «مرجريت» إلى طبيب الولادة «لوميس»، وقد كتبت إليه هذه الرسالة من الصين، حيث كان الأمريكان يعملون على نطاق واسع فيها قبل الثورة الصينية سنة ١٩٤٩، والتى نتج عنها قيام صراع عنيف بين الصين وأمريكا ولم تعترف أمريكا، بالصين الجديدة إلا سنة ١٩٧١، أى بعد قيام الثورة الصينية بحوالى سنة.

ماذا كان تعليق الطبيب «لوميس» على رسالة الشابة الأمريكية؟. لقد قلبت هذه الرسالة برنامج الطبيب رأسا على عقب، وجعلت حياته تختلف تماما عما كان عليه الأمر قبل أن يتلقى هذه الرسالة البسطية الجميلة. فقد كانت الرسالة نوعا من الإنذار للطبيب بأنه أصبح «آله» تعمل «وليس إنسانا يحس ويشعر، وأنه وضع بينه وبين أسباب السعادة حاجزا قويا، يمنعه من رؤية النور، ويحجب عنه أى شعور صحيح بحقيقة الحياة، ويجعل أيام العمر تفلت من يديه دون أن يكون لها بديل، لقد سقطت هذه الرسالة البسيطة الصادقة على

حياة الطبيب مثلما يسقط الحجر فى مياه ساكنة، فيحركها ويخلق فيها دوائر متتالين، وكانت الرسالة مثل الجرس الذى «ينبه» الإنسان، ويوقظه من نوم عميق.

ولنترك الطبيب «لوميس» يحدثنا بنفسه عن أثر الرسالة فيه، فيقول:

«أنا فى العادة يستغرقنى النوم إذا لم يوقظنى التليفون، ولكنى فى تلك الليلة التى تلقيت فيها رسالة «مرجريت» من الصين. استيقظت عدة مرات، وأخذت أقول لنفسى: أننى حقا رجل سخيف، تقلقه رسالة من امرأة لا يتذكرها، وأبعد الموضوع كله عن ذهنى، غير أننى وجدتنى، قبل أن انتبه إلى ذلك، وأقول لنفسى: «قد يكون الوقت تأخر أكثر مما تظن، فلماذا لا تصنع شيئا؟» وفى صباح اليوم التالى ذهبت إلى المستشفى الذى أعمل فيه، وقلت للمسئولين: أنى سأقوم برحلة تستغرق ثلاثة شهور، ومن المفيد لأى إنسان يظن أنه ذو شأن، وأنه لا غنى عنه فى عمله، أن يترك هذا العمل بضعة شهور، ففى المرة الأولى التى قمت فيها برحلة طويلة منذ بضع سنوات قبل أن أتلقى هذه الرسالة، ظننت - واهما - أن كل شئ فى المستشفى سوف ينهار نتيجة لغيابى، فلما عدت من رحلتى وجدت أن عدد المرضى لم يزد ولم ينقص، وأن كل مريض قد شفى بسرعة، وربما بأسرع مما كان يتم شفاؤه فى وجودى، وأن معظم مرضاى لم يعرفوا أننى غبت عنهم. ولعله مما يؤلم النفس أحيانا أن يجد الإنسان أن مكانه يتم امتلاؤه بسرعة وبصورة كاملة. ولكن ذلك كان درسا نافعا لى».

وهكذا يقول لنا الطبيب «لوميس»: إن الإنسان الذى يتصور أنه ليس له بديل ولا يمكن الاستغناء عنه واهم، وأن الحياة مستمرة وعلينا جميعا أن نكون فى غاية التواضع، مهما يكن دورنا فى الحياة، لأن الحياة سوف تمضى بنا... أو بغيرنا.

ويواصل الطبيب الإنسان وصفه لأثر الرسالة التى وصلته من الصين فيقول:

«اتصلت فى اليوم التالى لوصول الرسالة بصديق لى ودعوته إلى مكتبى فلما جاء قلت له أنى أريد منه أن يعود إلى بيته ويعد حقيبته ويصاحبنى فى رحلة إلى أمريكا الجنوبية، فقال لى: لقد كان يود أن يشاركنى، ولكن هناك أشياء تحتاج إلى وجوده فى الشهور القليلة المقبلة، ومن المستحيل عليه أن يغيب أسبوعا واحدا، فما كان منى إلا أن قرأت عليه الرسالة التى وصلتنى من الصين فهز رأسه وقال: لا أستطيع أن أذهب، بالطبع كنت أتمنى ذلك، ولكننى مازلت منذ أسابيع أنتظر أن أعقد صفقة. وأنا شديد الأسف يا صديقى.. ولكن.. ربما استطعت يوما.. ربما».

«وكان صديقى يتكلم ببطء شديد.. وعاد يسألنى: ما هذا الذى قالته تلك المرأة فى رسالتها؟.. الوقت تأخر أكثر مما تظن؟.. حسن...»

«وصمت صديقى لحظة ولم يتكلم أحد منا وكنت أرى قلقه بوضوح، فقد كان يقارن فى ذهنه بين مطالب الحاضر وبين ما بقى لكل منا فى الحياة من أعوام قليلة. وكان قلقه يشبه ما حدث لى

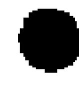
فى الليلة الماضية بعد أن تلقيت رسالة "مرجريت" وأخيرا تكلم وقال: لقد صبرت ثلاثة شهور على هؤلاء الناس ليستقر رأيهم على شئ، ولن أنتظر أكثر مما أنتظرت، وعليهم الآن أن تنتظروني.. متى تريد أن تسافر؟».

وذهبنا إلى أمريكا الجنوبية، وقضينا أيامنا فى البحر على باخرة مريحة، وأحسسنا أن أعباءنا تذوب شيئا فشيئا عن كواهلنا، وأن أجسامنا التى أرهقها التعب تبنيها من جديد تلك الرياح التى تهب على المحيط الهادى من الصين...»

لقد قضى الطبيب وصديقه أسابيع جميلة، استعاد معها كثيرا من نشاطها، وصحتها ونشوتها المفقودة بالحياة. وينتهى الطبيب من حديثه عن تجربته فيقدم خلاصة هذه التجربة الإنسانية ويقول:

«لقد أضيفت إلى متوسط أعمار الناس فى عصرنا عدة سنوات، بسبب الرعاية الصحية وتقدم الطب. وقد عاش أفضل الناس وأكثرهم خيرا من أجل غيرهم سنوات أخرى يمكن أن تمتد فى أعمارهم، حتى يتمكنوا من مواصلة الخير الذى يمكن أن يقدموه للناس. وكل ما عليهم هو أن يبدأوا بأن يعملوا شيئا لأنفسهم... أن يسافروا.. أن... يفعلوا ما كانوا يتطلعون إليه من زمن طويل.. أن يتيحوا لمن يحبونهم أن يروهم ينعمون ببعض الجزاء الذى يستحقونه.. وأن يجعلوا "التأمل" فى حياتهم يحل محل "التنافس".

تلك هى تجربة الطبيب الأمريكى "فردريك لوميس" كما رواها بنفسه. لقد تغيرت نظريته إلى الحياة بعد أن تلقى الرسالة البسيطة من الصين. وفكر كثيرا فى العبارة المكتوبة على لُوحة نحاسية فوق سور بيت صينى وهى العبارة التى تقول: "متع نفسك.. فقد تأخرت أكثر مما تظن".



إنه درس إنسانى بسيط وجميل.. ولو استوعبنا هذا الدرس فسوف يحمينا ذلك من أن نكون "ورقة" ضائعة فى عاصفة الحياة، ولعل هذه التجربة الإنسانية التى يرويها لنا الطبيب الأمريكى تساعدنا على أن نقول لأنفسنا تلك العبارة التى نعجز كثيرا على ترديدها حتى لأنفسنا وهى أن الحياة جميلة، وأن السعادة ممكنة، خاصة لو أنا بحثنا عن هذه السعادة فيما حولنا من أشياء صغيرة وبسيطة.

أول كتاب.. فى حياتى

عندما أحاول أن أراجع مطالعاتى الأولى فإننى أجد صعوبة كبيرة فى تذكر أول كتاب قرأته. ولكننى لا أستطيع أن أنسى أننى فى هذه المرحلة كنت أريد أن أحفظ بعض سور القرآن الكريم وأنا فى سن مبكرة جدا. وقد ساعدنى والدى على ذلك لأننى كنت أجد صعوبة فى قراءة أى سورة من سور القرآن وحدى.. وكان أبى رحمه الله شاعرا أديبا كما كان من علماء الدين فى قريتنا الصغيرة «منية سمنود» بمحافظة الدقهلية «المنصورة».

وكان أبى يقول لى: عليك أن تفهم أولا قبل أن تحفظ، ولابد من أن تعرف معانى الألفاظ الصعبة، ثم عليك أن تقرأ قراءة صحيحة من حيث التشكيل، وهو ما نسميه فى علوم اللغة باسم الإعراب.

وبعد فهم الألفاظ وتشكيلها تشكيلا صحيحا، فإن الحفظ يكون سهلا ولا أزعم أننى حفظت كل القرآن، ولكننى حفظت بعض

السور، وخرجت من هذا الحفظ المعتمد على فهم وصواب النطق بالكلمات وأنا فى حالة حب شديد للغة التى يمكن أن نسميها باسم اللغة القرآنية. وقد ساعدتنى هذه المحبة التى تكونت عندى فى بداية حياتى على قراءة القرآن كله بعد ذلك مرات عديدة. بل وقد يبدو غريبا أن أقول: إن القرآن الكريم هو الذى دفعنى فى فترات متقدمة من حياتى إلى قراءة «الكتاب المقدس» الذي يضم العهد القديم وهو «التوراه» والعهد الجديد وهو «الأنجيل» ذلك لأن القرآن يعلمنا أن نؤمن بالأنبياء والرسل السابقين على سيدنا محمدصلى الله عليه وسلم، وسورة "موسى" و"عيسى" فى القرآن هى رائعة مليئة بالتقدير والتكريم والمحبة، ولذلك فقد خلق القرآن عندى رغبة فى قراءة الكتاب المقدس فقرأته وكثيرا ما أعود إليه بين الحين والحين.

وأتوقف هنا لأقول: إننى قرأت القرآن الكريم أولا بدافع دينى، لأنه كتابى المقدس من المسلمين، ولكننى سوف أترك الحديث عن الجانب الدينى، وهو جانب بديهى ومفهوم، وأريد أن أتحدث عن جانبين آخرين من جوانب المتعة والفائدة العالية من قراءة هذا الكتاب الكريم. أما الجانب الأول فهو جانب أدبى وفنى وذوقى، ذلك أن القرآن ملئ بالصور الفنية الرائعة المؤثرة، وهى صور مدهشة من الناحية الأدبية الخالصة. فعندما نقرأ الآية التى تقول:"ولما سكت عن موسى الغضب" فإننا نتخيل على الفور أن الغضب له صوت زاعق داخل النفوس، وأن الغضب لا يهدأ ولا ينتهى ولكنه "يسكت"، وهذة صورة بالغة الحيوية والجمال والتأثير،

وعندما نقرأ أية كريمة أخرى تقول: "فوجدا جدارا يريد أن ينقض"، فسوف نجد أن هذا الجدار الذى هو على وشك الإنهيار وكأنه قد أصبح كائنا حيا له "إرادة". فالجدار له إرادة، وهو "يريد" أن ينقض، أى أن ينهار. وهذه صورة رائعة أخرى تهز شعر الرأس، لأن الجدار وهو جماد فى جماد قد أصبح فى هذة الصورة بين الكائنات الحية، ولعلك تصدقنى إذا قلت لك إن هذة الآية الكريمة تجعلنى بعد أن قرأتها وفهمتها وحفظتها، أشعر أن الأشياء المادية جميعا فى هذه الدنيا لها روح، ولذلك فأنا لا أستطيع أن أتعامل مع الأشياء المادية فى عنف وقسوة، إننى أحاول دائما أن أتعامل معها على أساس أن عندها "إحساسا" خاصا بها، وأن من واجبى أن أحافظ على إحساسها ولا أجرحه ولا شك، أن هذه الآية الكريمة التى جعلت للجدار إرادة مثل إرادة الإنسان تكون سابقة بما يقرب من ألف وخمسمائة سنة للنظرية العلمية الحديثة والثابتة والتى تقول إن المادة ليست جامدة كما يبدو لنا بل هى طاقة، أى أن فيها حياة وحيوية وحركة. وهذه النظرية العلمية هى التى نتج عنها تفتيت الذرة. ولا أستطيع أن أشرح هذة النظرية فليس هذا مجال تخصصى. ولكننى أقول أن القرآن سبق هذه النظرية بمئات السنين وقال لنا إن الجدار له إرادة، أى أن فيه حركة وحياة.
وعندما أقرأ الآية التى تقول "ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا " فهذة صورة رائعة جدا فيها تجسيد عجيب للغرور والمغرورين، فهم يدبون على الأرض كأنهم سوف يخرقونها، ويرفعون رؤوسهم إلى السماء فى كبرياء كأنهم

سوف يصبحون فى طول الجبال. والصورة هنا مؤثرة وقادرة على أن تجعل المغرور يخجل من نفسه، وتجعلنا جميعا نحسب حسابا للكبرياء المزيفة فلا نمارسها أبدا، لأن هذة الآية الكريمة تجعل من كل مغرور متكبر موضع سخرية واستنكار شديد. القرآن ملئ بهذه الصور الفنية الحية الجميلة العجيبة المؤثرة.. وهذا ما أقول عنه: إنه يعلم القارئ الفاهم للقرآن ما يمكن أن أسميه بالإحساس الفنى الذى يرفع الذوق الإنسانى بصورة عميقة وقوية. ولا شك مما ساعدنى فى مراحل حياتى المتقدمة القراءة الأدبية الفنية هوكتاب بديع للأستاذ سيد قطب كتبه قبل أن يدخل فى دوامة العمل السياسى فتبتلعه هذه الدوامة.. وهذا الكتاب هو "التصوير الفنى فى القرآن ".

والخلاصة أننى استفدت من القراءة المتأنية الحريصة على فهم كل كلمة وكل آية الكثير من المعرفة باللغة العربية، لا من حيث الألفاظ فقط ولكن من حيث التذوق والتصوير الفنى القادر على التأثير الكبير فى النفس. ولا أتصور أن هناك من يحب الثقافة ويريد أن يكسب لنفسه ذوقا ومعرفة سليمة يمكنه أن يصل إلى شئ من ذلك دون أن يقرأ القرآن قراءة فهم واستيعاب، ولا فرق فى ضرورة قراءة القرآن بهذه الطريقة بين المسلمين والمسيحيين. وأنا أعتمد فى قراءتى للقرآن على مختصر تفسير الطبرى "مصحف الشروق" وهناك جانب آخر تؤدى إليه قراءة القرآن بهذه الطريقة الحريصة على الفهم قبل الترديد والحفظ، وهذا هو الجانب الأخلاقى. وهو جانب عظيم جدا، فالقرآن يخلق فى

الإنسـان حـاسـة أخـلاقـيـة صـادقـة وعـالـيـة وبعـيـدة كل البـعـد عن التظاهر والافـتـعـال. ولن أسـتطـرد فى الحـديث عن هـذا الجـانب، ويكفـينى أن أشـيـر إليـه وأوكـد عليه. والـذين يقـرأون الـقـرآن بفـهم صـحـيح سـوف يدركون هذا الـمعنـى بسـهـولة ويسـر. فـقـراءة الـقـرآن بعـيـدا عن قـيمتـه الدينية الثـابتـة والعـاليـة، هـى متـعة أدبيـة وفنيـة وأخلاقية وثقافية لا يوفرهـا بهذا القدر الأصيل أى كتاب آخر.

أنا وزوجتى

تجربتى فى الزواج من «الدكتورة هانية عمر» يمكننى - بحمد الله - أن أقول عنها: إنها تجربة ناجحة وسعيدة، ولم يتحقق ذلك بسهولة فقد كان نتيجة لجهد طويل مشترك بين زوجتى وبينى، فالنجاح والسعادة لا يأتيان للإنسان على طبق من الفضة، بل لابد من السعى إليهما وبذل الجهد فى سبيلهما، إذ أن النجاح والسعادة يشبهان النبات، لابد من بذر بذوره وتغذيتها ورعايتها حتى تنمو وتثمر، أما إذا تعرض النبات للإهمال فأنه يموت ولا تكون له أية ثمار.

وقد التقيت مع زوجتى بالمصادفة فى بيت أستاذنا الكاتب الكبير محمد عودة، والذى كانت شقته الصغيرة الجميلة فى ميدان الدقى بالقاهرة بمثابة ندوة دائمة مفتوحة للشباب المهتمين بالأدب

والفكر والثقافة من الجنسين. وصورة اللقاء بالصدفة بينى وبين زوجتى هو ما يسميه أبناؤنا باسم "النصيب"، ويربطون دائما بين هذا النصيب وبين الزواج برباط وثيق، وكانت كل الظروف المحيطة بلقائى مع زوجتى تمنعنى تماما من التفكير فى الارتباط بها. أذ إننى كنت عندما تم هذا اللقاء صحفيا صغيرا فى بداية الطريق، ولم يكن مرتبى يزيد على ثلاثين جنيها، أما أسرتى فهى متوسطة فقيرة، وكانت زوجتى ابنة أسرة كبيرة ومعروفة وميسورة، وهذا الفارق ظهرأمامى كعائق قوى يجعلنى أبتعد عن التفكير فى الأرتباط بزوجتى، إلا أن الأمور مضت فى طريق التوفيق، والفضل الأول فى ذلك يعود إلى زوجتى التى لم تعبأ بما بيننا من فارق اجتماعى ومادى.

وهذه خلاصة تجربتى التى يمكن الحديث عنها طويلا، إلا أن المجال لا يتسع إلا للاختصاروالإيجاز:

١- الفوارق المادية بين الزوجين مهما تكن كبيرة لا أهمية لها إذا كان هناك اتفاق نفسى وروحى، وكان هناك اقتناع كامل بالتكافؤ الإنسانى بين الزوجين.

٢- لم أشعر أبداً بعقدة "النقص" أمام زوجتى، على الرغم من الفارق المادى الكبير بيننا، لأننى كنت دائما أحمل فى نفسى أملا قويا فى المستقبل، وكنت لا أتوقف لحظة عن العمل والاجتهاد فى سبيل تحسين وضعى والتقدم المستمر فى مهنتى وهى الصحافة، وكنت دائما ولازلت من الذين يعملون ويتوكلون على اللّه تماما بالنسبة لنتائج العمل.

٣. كان إصرار زوجتى على اختيارها فى غاية القوة والأصالة وهو ما لا أنساه لها أبدا. فقد كان هذا الإصرار هو الذى اجتاز بنا جميع الأزمات وأوصل علاقتنا ألى النجاح والسعادة.

٤. لم نعبأ فى زواجنا بأية شكليات من أى نوع، وأقمنا فرحا صغيرا فى بيتها كان أشبه "بحفلة شاى"، ولا أذكر مطلقا أننا اهتممنا بما يسمى "شهر العسل"، إذ أننا قضينا هذا الشهر فى بيتنا، بل إننا لم نتوقف عن العمل ... أنا فى "أخبار اليوم" التى كنت أعمل بها، وهى طالبة فى كلية الطب بجامعة القاهرة.ومن الطريف أن الفيلم الذى التقطه لنا أحد المصورين فى يوم الفرح قد احترق ... فلم يبق لنا من ذكريات هذه الليلة سوى صورة صغيرة واحدة التقطها لنا خال زوجتى المرحوم كمال الدين رفعت، الثائر الوطنى المعروف، ونائب رئيس الوزراء فى عصر عبد الناصر.

٥ - لم أكن أملك عند الزواج أكثر من ثلاثمائة جنيه أدخرتها بصعوبة شديدة ثم دفعتها مقدما لإيجار الشقة التى نعيش فيها إلى الآن. ولم أدفع مهرا، فقد كان المهر المسجل فى عقد الزواج هو خمسة وعشرون قرشا مع مؤخر قيمته خمسمائة جنيه.

٦- كان والد زوجتى فى البداية يعارض زواجى من ابنته الجميلة التى كان يحبها أشد الحب ويعتز بها اعتزازا كبيرا، فإنها إلى جانب شقيق وحيد لها المهندس المتفوق الناجح "هانى عمر"

هى ابنته الوحيدة. وبمرور الوقت تحول غضب والدها إلى رضاء فأصبحت مع الأيام من أقرب الناس إليه، لأنه لم ير فى شخصى المتواضع إلا الاجتهاد والمثابرة وحبى لابنته وحرصى التام على سعادتها وراحتها بقدر ما أستطيع.

٧- اسم زوجتى الكامل هو الدكتورة "هانية عمر المارية" الطبيبة ورئيس قسم الأطفال الآن فى مستشفى أم المصريين، وقد أثار لقبها وهو "المارية" دهشتى فى البداية، ثم علمت أن أسرتها من عرب الأندلس المسلمين الذين هاجروا إلى مصر بعد خروج العرب من إسبانيا، واستقروا فى مدينة كفر الشيخ وأصبحوا أكبر وأشهر عائلة فيها، وقد حملت الأسرة إسم المدينة التى كانت تعيش فيها وهى مدينة "المرية"التى لا تزال موجودة بهذا الاسم فى إسبانيا إلى الآن، وقد أسعدنى هذا الأمر كثيرا وكلمة المرية هى – فى الأصل – كلمة عربية وهى تخفيف لكلمة "المرئية" أى الناعمة السعيدة. وقد احتفظت هذه المدينة باسمها العربى حتى الآن.

٨- وقفت زوجتى بشجاعة وأصالة إلى جانبى فى كل الأزمات التى مرت بى، وهى كثيرة وكان أخرها أزمة شديدة كادت تعصف بى فى أول عام " سنة ٢٠٠٠ "، ولكننى اجتزتها بسلام، بفضل عونها الصادق الكريم.

---

(١) هذا ما يقوله الكاتب الموسيقار عن موعد بداية الصيف في بلاده. أما في مصر فالصيف القاسي يبدأ من أوائل مايو.

٩- أشعر بعد أن تقدم بى العمر بأن زوجتى هى أعظم هدية منحها اللّه لى. ولم تخل حياتنا من المتاعب الصعبة، ولكننا كنا نتغلب عليها بالتعاون الأصيل المشترك دون الاعتماد مطلقا على الآخرين.

١٠- أشعر أيضا بأننى ظلمت زوجتى معى بمتاعب حياتى .. فقد كانت تستطيع أن تعيش حياة أفضل بكثير مما عاشته معى. وأكثر ما يحزننى أن حياتنا العائلية قد حرمتها من نتائج تفوقها الكبير جدا كطبيبة إذ كانت تستطيع لو واصلت دراستها أن تكون أستاذة لامعة فى كلية طب القاهرة، ولكنها توقفت عند الماجستير وشغلتها الحياة معى عن مواصلة طريق التفوق الذى بدأته، وقد حرمتها مشاغلنا المشتركة أيضا من ممارسة موهبة متميزة لديها وهى الموهبة الأدبية، فهى تملك أسلوبا بديعا نادرا وذوقا فنيا رفيعا ... ولكنها لم تحاول ممارسة شئ يتصل بموهبتها الأدبية والفنية بسبب أنشغالها بحياتنا العائلية.

١١- لابد أن أشير هنا- بأمانة - إلى أن نجاح زواجنا كان فى جانب منه ثمرة من ثمرات " ثقافة عصر عبد الناصر "، ففى هذا العصر انتصرت ثقافة ترفع من شأن فقراء مصر من أمثالى وتفتح لهم أبواب الحياة الكريمة إذا اجتهدوا واستفادوا من الفرص المتاحة لهم، ولولا ثقافة عصر عبد الناصر هذه، لكان من المستحيل أن ينجح زواجى من فتاة تنتسب إلى طبقة أعلى بكثير من تلك التى أنتمى إليها.

والمهم فى هذا النجاح أننى - بفضل ثقافة عصر عبد الناصر- لم أشعر يوما بعقدة نقص، بل كنت أشعر على الدوام بأننى أعيش حياة طبيعية، وقد ساعدتنى زوجتى على ذلك، فلم تشعرنى يوما بشئ يجرح إحساسى على الإطلاق، ولا أذكر أننى فكرت فى هذا الفارق الاجتماعى بينها وبينى إلا وأنا أتحدث الآن عن تجربتى فى الزواج، ولعل هذا هو أثمن ما تركته لنا ثقافة عصر عبد الناصر .. أى أن يقاس الإنسان بمقدار جهده وعمله، ولا يقاس بمنزلة أسرته وطبقته، فالإنسانية أعلى من الطبقات، والمساواه بين الناس حقيقة وليست وهما، وكل الفوارق تقوم على مدى ما يبذله الإنسان من جهد أولاً وقبل كل شئ .. فكل جهد إنسانى له ثمرته. وأظن أننى اجتهدت، وكانت ثمرة اجتهادى هو زواجى من امرأه رائعة، مرت سنوات زواجنا الطويلة، والمليئة بالمصاعب التى واجهتنا معا، وكأنها يوم واحد!.. والحق أننى مندهش جدا .. كيف مرت علينا كل هذه السنوات بهذه السرعة العجيبة !؟ ولابد أن نذكر نعمة الله علينا فقد مرت هذه السنوات فى تفاهم وسعادة.

رسالة إلى ابنتى

ابنتى " لميس " تعمل مدرسة فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، ولذلك فهى ليست بحاجة منى إلى رسالة أونصيحة، لأنها قد وصلت إلى مرحلة النضج والاستقلال التى تجعلنى أخجل من توجيه أى نصيحة لها، هذا بالأضافة إلى أننى واحد من الذين لا يؤمنون بجدوى " النصيحة "، أولا لأننى لست على على ثقة بأن النصيحة التى أقدمها لغيرى هي الصواب، وكثيرا ما أقول لنفسى إن نصيحتى يمكن أن تكون مخطئة. فلماذا أقدم لغيرى نصائح؟.. إن "الناصح" لابد أن يكون واثقا من أنه على صواب.. وأنا لا أملك هذه الثقة فى نصائحى على الإطلاق، ولذلك فأنا حريص على الا أقدم نصائح لأحد، حتى لو كان أقرب الناس لى، لأننى أخشى دائما أن تؤدى نصيحتى إلى نتيجة سيئة، فأشعر بالندم الشديد على ذلك. والندم بالنسبة لى، خاصة إذا كان بسبب إساءة وقعت

غيرى على، هو شعور مرير أخشاه كل الخشية. ومن ناحية ثانية فقد علمتنى الحياة أن النصيحة لا تفيد أبدا، وإنما الذى يفيد هو التجربة، فالإنسان إذا لسعته تجربة من التجارب وخرج منها بفكرة أو حكمة أو مبدأ، فإنه لا ينسى ذلك، وهذا عكس النصيحة التى يتلقاها الإنسان من غيره، فإنه قد يسمع هذه النصيحة ليست قائمة على تجربة تؤثر فى الإنسان وتقدم إليه الحكمة المطلوبة.

أنا إذن لا أجد ما أكتبه لابنتى "لميس" غير أن أقول لها: "أنا أحبك وأتمنى لك الخير والنجاح والسعادة، وقد حرصت فى تربيتى لابنتى- وابنى "سميح" أيضا- أن أتعامل معهما على أساس. المبدأ الصينى الذى يقول "لا تقدم لإبنك سمكة. علمه الصيد". وقد بذلت كل جهدى لتعليم ابنتى وأبنى كيف يصيدان، وعليهما أن يحصلا على السمكة بنفسيهما. ولعلى لاأكون قد أخطأت كثيرا فى تعليمهما مبادئ الصيد الصحيح. ولعل الله يوفقهما - ببركة حسن نيتى - فلا تكون الشبكة التى يصيدان بها شبكة سيئة الحظ، فتعود من رحلة الصيد.. خاوية. على أننى رغم هذا كله أريد هنا أن أتخيل أن لى ابنه صغيرة، وأنها بحاجة إلى نصائح أقدمها إليها، فماذا يمكن أن أقول؟

هذه رسالتى إليك يا إبنتى - فى الخيال - ولا أضمن لك أبدا أن يكون كلامى "مضبوط"!.

إليك ياابنتى العزيزة بعض ما أتصور أنه ضرورى للحياة الناجحة والسعيدة التى أتمنى أن تحصلى عليها وتحقيقها لنفسك ولكل من تحبين:

١- لا تخالفى ياابنتى القانون بأى صورة من الصور حتى لو كانت هذه الصورة صغيرة ومحدودة. اجتهدى مع نفسك اجتهادا حازما لعدم مخالفة أى قانون، حتى لو بدا لك أن هناك فرصة لمخالفة القانون دون عقاب. فالالتزام الكامل بالقانون هو عادة أساسية تساعد على أن تبقى صفحة الحياة بيضاء، أى خالية من المشاكل والصعوبات.

٢- احرصى يا ابنتى على ألا تضعى توقيعك على أى ورقة قبل أن تقرأيها وتدرسيها وتقتنعى بما فيها- فما أكثر ما وجد الناس أنفسهم فى مشاكل معقدة جدا بسبب توقيعهم على أوراق لم يقرأوها، واعتمدوا فى ذلك على الثقة بمن قدموا إلهم هذه الأوراق. والثقة بالناس بأن يضع توقيعه على مالم يقرأه ويدرسه، حتى لو أن الذى يقدم إليك هذه الورقة هو أقرب النلس إليك.

٣- أنا يا ابنتى لم أترك لك ميراثا ترتعين فيه .... وهذا هو شأن معظم الناس، فالأغنياء فى هذه الدنياأقلية .. ونحن من الأغلبية التى تعيش على عائد جهدها وعملها. وهنا أقول لك: إن عليك أن تحترمى كل "مليم" فى يديك. وأن تتعودى الإنفاق فى الأساسيات والضروريات، وأن تبتعدى قدر الإمكان على الإنفاق فى الكماليات التى يمكن الاستغناء عنها فى شئ من الصبر والاحتمال. وعليك إن تتعودى أيضا فضيلة الادخار، مهما كانت مدخراتك قليلة فالادخار هو حماية للمستقبل. ولا تعبئى أبدا بما قد يقال عنك من

أنك بخيلة، فالبخل قبيح، لكن الحاجة أقبح بكثير. والذى يحرص على ما فى يديه ليس بخيلا ولكنه إنسان يسعى للمحافظة على كرامته ويكون مستعدا للمفاجآت التى لا تخلو منها الحياة.

٤- لابد أن تدربى نفسك على أن تكونى قادرة على أن تقولى "لا" عند الضرورة، واحذرى من الخجل والمجاملات عندما تكون "لا"، هذه..... «لابد» منها، فأنا شخصيا خسرت الكثير فى حياتى لأننى خجلت وجاملت ولم أستطع أن أقول «لا» عندما كان «لابد» أن أقولها، ولو أننى قلت «لا» فى الوقت المناسب لتجنبت الكثير من المعاناة.. التى مازلت «أعانى» منها.

٥ ـ الانخراط دون قيد فى الحياة الاجتماعية هو سم يفسد كل شئ ولذلك فعليك أن تجعلى لحياتك الاجتماعية نصيبها المناسب لها دون زيادة. لأن الحياة الاجتماعية الواسعة الفضفاضة تقدم المتعة والتسلية ولكنها تسرق العمر.

٦ ـ تعاملى مع الناس بقلب مفتوح، وتعاونى مع الجميع عندما يكون التعاون ضروريا وممكنا، ولكن إحذرى من أن تشتركى مع أحد فى عمل واحد من أى نوع، فالمشاركة مغرية وهى تبدأ فى العادة بالزغاريد ولكنها تنتهى دائما بالدموع، وخاصة فى مجتمعاتنا العربية التى لم تتعود بعد على وضع أصول دقيقة للمشاركة فى عمل واحد. وقد علمتنى التجربة أن كل الذين اشتركوا فى عمل واحد انتهى بهم الأمر إلى الخصومة والعداء والقتال فيما بينهم.

٧ ـ الوقت هو رأسمال الإنسان. فلا تبددى دقيقة واحدة دون أن يكون لها هدف، حتى لو كان هذا الهدف هو المتعة والراحة.

فالمتعة والراحة ضرورتان من ضرورات الحياة ولكنهما لا يجوز لهما أن يأخذا من الوقت مايقضى على الوقت الآخر المخصص للجد والاجتهاد.

٨ ـ أقرئى. وأقرئى كثيرا .. وتصورى لو أنك حرصت على أن تقرئى كل يوم ثلاثين صفحة فإن هذه القراءة لن تستغرق منك يوميا أكثر من ساعة. ولكن انظرى إلى النتيجة فسوف تقرئين فى الشهر تسعمائة صفحة وسوف تقرئين فى العام الواحد ما يقرب من عشرة آلاف صفحة. على أن القراءة ينبغى أن تكون قائمة على اختيارات دقيقة ونافعة، لأن قراءة التفاهات أو القراءات العشوائية هى إضعاف للشخصية وإضاعة للعمر دون جدوى أو فائدة.

٩ ـ احرصى على صحتك ونظافتك فالصحة رأسمال، والنظافة رأسمال آخر. ومن أضاع رأسماله فقد مهد بذلك لإضاعة حياته.

١٠ ـ كونى «كتومة» بقدر الإمكان فالثرثرة مرض قاتل. والثقافة النسائية فى بلادنا تعتبر الثرثرة فنا ممتعا. والحقيقة أنه فن سخيف والعقل الإنسانى مثل الشمعة المشتعلة المضيئة والثرثرة، تحرق الشمعة فتذوب وتنطفئ وجربى أن تتكلمى كثيرا وحاولى بعد ذلك أن تقومى بعمل ضرورى ومفيد، فإنك بعد جهد الثرثرة لن تستطيعى القيام بشئ لأن شمعة العقل والحيوية قد أطفأتها الثرثرة.

كنت أود أن أواصل نصـــــائحى، ولكن هذا يكفى وزيادة. وباستطاعتك يا ابنتى بعد أن تقرئى هذه الرسالة أن تمزقيها وألا تعملى بأى شئ فيها فقد يكون كلامى كله فى غير محله، وقد يكون لديك ما هو أفضل وأجمل.

كل ما أنا واثق منه هو أننى أحبك وأتمنى لك الخير والسعادة. أما بعد ذلك فأنا لا أملك الثقة القاطعة فى أى شئ لك فى هذه الرسالة إو فى غيرها.

الفهرس

رقم الإيداع : ١٤٣٦٢/ ٢٠٠٣

I.S.B.N. 977-01-8786-0

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى مسيرتها الحضارية.

السعر
٢٠٠ قرش

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب